سلسلة شخصيات غيرت مجري التاريخ

رؤية جديده لشخصية هتلر

ادولف هتلر

١٨٨٩ - ١٩٤٥



إعداد

د . يوسف أبو الحجاج الأقصري

أودلف هتلر

1889 م - 1945م

رؤية جديدة

لشخصية هتلر والنازية

اسم الكتاب : أدولف هتــــلر

اسم المؤلف : يوسف ابو الحجاج الأقصري

اسم الناشر : مكتبة زهران ـ دار الراوي

رقم الايداع : 15482 / 2017

الترقيم الدولي : 978-977-349-091-1

شخصيات غيرت مجرى التاريخ

أشهر شخصيات التاريخ المعاصر

أودلف هتلر

1889 م - 1945م

رؤية جديدة لشخصية هتلر

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديم

هذا الإصدار يتحدث عن شخصية أثارت جدالاً واسعاً منذ أن ظهرت على ساحة الأحداث العالمية إنه أدولف هتلر الذي ارتبط اسمه بالنازية والقتل وسفك الدماء.

ليس إصداراً عادياً لأنه يضع هتلر في الميزان .... ميزان القيادة كقائدة عسكري وميزان الإنسانية كإنسان.

إصدار متميز جمع بين رؤية أدولف هتلر لنفسه من خلال مذكراته ورؤية المؤرخين له.

قالوا إن شخصية هتلر شخصية متناقضة تجمع بين النقائض على اختلافها.

ولعل هذا الإصدار يعتبر إضافة جديدة للمكتبة العربية لشخصية غيرت مجرى التاريخ لأنه لا يتحدث عن مذكرات هتلر المعروفة باسم (كفاحي) ولكنه يقوم بتحليل شخصية (هتلر) وتصرفاته.

والله الموفق والمستعان

يوسف أبو الحجاج الأقصري

الفصل الأول

بطاقة تعارف

الاسم: أدولف هتلر

تاريخ الميلاد: 20 ابريل 1889

مكان الميلاد: برونوبيا الإمبراطورية النمساوية المجرية

الموطن:

1- الإمبراطورية النمساوية المجرية من 20 ابريل 1889 حتى 11 نوفمبر 1918م.

2- جمهورية فايمر في 25 فبراير 1932 حتى 30 يناير 1993.

3- ألمانيا النازية 30 يناير 1933.

الحزب السياسي: الحزب النازي

الزوجة: ايفا بردان تزوجها 29 ابريل 1945

الأب: ألويس هتلر

الأم: كلارا هتلر

الأخوة والأخوات: باولا هتلر – عوستاف هتلر – الويس هتلر الابن

المهنة: جندي – فنان – كاتب - قائد عسكري وزعيم

الولاء: الإمبراطورية الألمانية

المعارك والحروب: الحرب العالمية الأولي

معارك الحرب العالمية الثانية

أدولف هتلر

هو أدولف لويس هتلر (20 ابريل 1889 – 30 ابريل 1945م) سياسي عسكري ألماني، ولد في النمسا وكان زعيم حرب العمال الألماني الاشتراكي الوطني والمعروف باسم الحزب النازي، حكم ألماني في الفترة ما بين عامي 1933 و 1945 حيث شغل منصب مستشار الدولة في الفترة ما بين عامي 1934 و 1945م، اختارته مجلة تايم واحداً في بين مائة شخصية تركت أكبر أثر في تاريخ البشرية في القرن العشرين انضم هتلر إلي الحزب النازي عام 1920 وأصبح زعيماً له عام 1921، وبعد سجنه أثر محاولة انقلاب فاشلة قام بها عام 1923 استطاع هتلر أن يحصل على تأييد الجماهير بشخصيته لأفكار تأييد القومية ومعاداة الشيوعية وذلك بفعل الجاذبية التي كان يتمتع بها في إلقاء الخطب واستطاع أن يحصل علي حب ودعم الشعب الألماني له.

في عام 1933 تم تعيينه مستشاراً للبلاد حيث عمل علي إرساء دعائم نظام حكمه تحت نزعة شمولية وديكتاتورية قاسية ... وانتهج هتلر سياسة لها هدف معين وهو الاستيلاء على المجال الحيوي لحماية ألمانيا ويقصد به السيطرة على مناطق لتأمين الوجود لألمانيا النازية وضمان رخائها الاقتصادي وتوجيه ألمانيا نحو تحقيق هذا الهدف وقد قامت قوة الدفاع (فيرماخت) التي أعاد بنائها بغزو بولندا عام 1939 مما أدي إلي اندلاع الحرب العالمية الثانية، وخلال ثلاث سنوات احتلت ألمانيا بقيادة هتلر ودول المحور معظم قارة أوروبا ما عدا بريطانيا

بالإضافة إلي أجزاء كبيرة من أفريقيا ودول شرق وجنوب شرق آسيا والدول المطلة على المحيط الهادي وثلث مساحة الاتحاد السوفيتي من الغرب حتى مدينة ستالينجراد ومع ذلك نجحت دول الحلفاء في أن يكون لها الغلبة في النهاية.

في عام 1945 نجحت جيوش الحلفاء في محاصرة ألمانيا من جميع جوانبها وحتى سقوط برلين، وأثناء الأيام الأخيرة من الحرب في عام 1945 تزوج هتلر من عشيقته ايفا براون بعد قصة حب طويلة، وبعد أقل من يومين انتحر العشيقان ... هكذا قيل.

(سنوات حياته الأولى)

ولد أدولف هتلر في 20 ابريل 1889 م في برونوبيا بالإمبراطورية النمساوية المجرية، وكان هتلر الابن الرابع من أصل ستة أبناء أما والده فهو ألويس هتلر (1837 – 1903م) والذي كان يعمل موظفاً في الجمارك، وكانت والدته كلارا هتلر (1860م – 1907م) هي الزوجة الثالثة لوالده، ونظراً لأن الهوية الحقيقية لوالد (ألويس) شكلت سراً غامضاً في تاريخ الرايخ الثالث كان من المستحيل تحديد العلاقة البيولوجية الحقيقة التي كانت تربط بين ألويس وكلارا وهو الأمر الذي استدعى حصولها علي إعفاء بابوي لإتمام زواجهما ومن بين الأبناء الستة وهم ثمرة زواج ألويس وكلارا لم يصل إلي مرحلة المراهقة سوى أدولف وشقيقته بادلا التي كانت أصغر منه بسبع سنوات، وكان لالويس ابن آخر وابنة من انجيلا زوجته الثانية.

عاش هتلر طفولة مضطربة حيث كان أبوه عنيفاً في معاملته له وقد تحدث هتلر إلي مدير أعماله مسترجعاً هذه الذكريات قائلاً عقدت

العزم على ألا أبكي عندما ينهال عليّ والدي بالسوط) وبعد ذلك بأيام قام والدي بالضرب لي بالسياط فلم أبكي بل وضعت إراداتي موضع الاختيار أما والدتي فقد وقفت في رعب تحتمي وراء الباب، أما أنا فأخذت أحصي في صمت عدد الضربات التي كانت تنهال على مؤخرتي".

وغالباً ما كانت أسرة هتلر تنتقل من مكان لآخر حيث انتقلت من (بردنو إم إن) إلي مدينة ياسساو ومدينة لامباتش ومدينة ليوندنيج بالقرب من مدينة لينز.

كان هتلر متفوقاً في دراسته الابتدائية ولكنه تعثر بعد ذلك وصرح هتلر معقباً علي هذا أن تعثره التعليمي كان نابعاً من تمرده على والده الذي أراد له أن يحذو حذوه ويكون موظفاً في الجمارك بينما كانت رغبة هتلر أن يصبح رساماً ولم يتحسن مستوى هتلر الدراسي بعد وفاة والده بل ترك هتلر المدرسة الثانوية في سن السادسة عشر دون أن يحصل على شهادته.

(هتلر في المراهقة)

في كتابه كفاحي راجع هتلر تحوله إلي الإيمان بالقومية الألمانية إلي سنوات المراهقة الأولي التي قرأ فيها كتاب من كتب والده عن الحرب الفرنسية البروسية والذي جعله يتساءل حول الأسباب التي جعلت والده وغيره من الألمان ذوي الأصول النمساوية يفشلون في الدفاع عن ألمانيا أثناء الحرب.

بدءاً من عام 1905 عاش هتلر حياة بوهيمية في فينيا على منحة حكومية لإعانة الأيتام ودعم مالي كانت والدته تقدمه له، وتم رفض قبوله مرتين في أكاديمية الفنون الجميلة في فينيا وذلك في عامي 1907 – 1908م، لأنه غير مناسب لمجال الرسم وقالوا له من الأفضل له توجيه قدراته إلي مجال الهندسة المعمارية.

في 21 ديسمبر 1907 توفيت والدة هتلر أثر إصابتها بسرطان الثدي عن عمر يناهز السابعة وأربعين عاماً وبأمر من إحدى المحاكم في لينز أعطى هتلر نصيبه من الإعانة التي تمنحها الحكومة للأيتام.

(هتلر في شبابه)

عندما كان هتلر في الحادية والعشرين من عمره ورث أموالاً عن واحدة من عماته وحاول أن يشق طريقه بجهد كرسام في فينا حيث كان ينسخ المناظر الطبيعية الموجودة على البطاقات البريدية ويبيع لوحاته إلي التجار والسائحين، وبعد أن تم رفضه في أكاديمية الفنون للمرة الثانية كان ماله كله قد نفذ.

في عام 1909م عاش هتلر في نادي للمشردين، وفي عام 1910 كان هتلر قد استقر في منزل يسكن فيه الفقراء من العمال.

(معاداته للسامية)

صرح هتلر أن اعتقاده في وجوب معاداته للسامية ظهر لأول مرة في فيينا التي كانت تعيش فيها جالية يهودية كبيرة تشتمل على اليهود الارثوذوكس الذين فروا في المذابح المنظمة التي تعرضوا لها في روسيا، وربما تأثر هتلر بقراءاته للدراسة التي قام بها مارتيَ لوترر والتي كان عنوانها عن اليهود وأكاذيبهم وفي كتابه كفاحي يشير هتلر إلي مارتي لوتر باعتباره محارباً عظيماً ورجل دولة حقيقي ومصلح عظيم.

وزعم هتلر أن اليهود كانوا أعداء للجنس الآري كما القي على كاهل اليهود مسئولية الأزمة التي حدثت في النمسا، كما استطاع هتلر الوقوف على صور محدودة من الاشتراكية والبلشفية التي تزعمها العديد من

القادة اليهود من أنواع الحركات اليهودية ليقوم بعمل دمج بين معاداة السامية ومعاداة الماركسية .

لقد القي هتلر باللوم في هزيمة الجيش الألماني أثناء الحرب العالمية الأولي على ثورات عام 1918 وقد اتهم اليهود بجريمة التسبب في ضياع ألمانيا والتسبب في المشكلات الاقتصادية التي ترتبت علي ذلك.

استلم هتلر الجزء الأخير من ممتلكات والدة في مايو عام 1913م لينتقل بعدها للعيش في ميونيخ وكتب هتلر في كتابه (كفاحي) أنه كان يتوق دائماً للحياة في مدينة ألمانيا حقيقية، وفي ميونخ أصبح هتلر أكثر اهتماماً بفن المعمار ... كما أن انتقاله إلي ميونخ قد ساعده أيضاً في التهرب من أداء الخدمة العسكرية في النمسا لبعض الوقت بالرغم من أن الشرطة في ميونخ والتي كانت تعمل بالتعاون مع السلطات النمساوية وتمكنت في نهاية الأمر من إبقاء القبض عليه وبعد فحصه جسدياً وتقدمه بالتماس يدل علي ندمه على ما اقترفه تقرر أنه غير لائق لأداء الخدمة العسكرية لأنه على ما يبدو كان هزيلاً جداً وقتها وسُمح له بالعودة إلي ميونخ.

في عام 1914 عندما دخلت ألمانيا الحرب العالمية الأولي في اغسطس 1914 تقدم هتلر بالتماس لملك بافاريا لودفيح الثالث للسماح له بالخدمة في الجيش وبالفعل وافق الملك على التماسه وتم تجنيد هتلر في الجيش البافاري.

(هتلر والحرب العالمية الأولي)

خدم هتلر كجندي في الجيش أثناء الحرب العالمية الأولى في فرنسا وبلجيكا مع الفوج البافاري الاحتياطي السادس عشر والذي عرف باسم فوج (ليست) نسبة إلي قائده الأول.

وانتهت الحرب بتقليده رتبة (جيفريتر) وهي رتبة تعادل وكيل عريف في الجيش البريطاني وجندي في الدرجة الأولى في الجيوش الأريكية.

عمل هتلر كرسول بين الجيوش وهي واحدة من أخطر الوظائف علي الجبهة الغربية وكان معرضا في أغلب الأحيان للإصابة بنيران العدو، كما اشترك في عدد من المعارك الرئيسية على الجبهة الغربية مثل معركة بيريس الأولى ومعركة السوم ومعركة اراس ومعركة بأسكينديايلي.

في معركة يبريس التي دارت في أكتوبر عام 1914 والتي شهدت مقتل حوالي 40.000 ألف جندي خلال عشرين يوماً وهو ما بين ثلث إلي نصف عدد الجنود المشاركين فيها كانت الكتيبة التي كان هتلر فرداً من أفرادها تقلص عددها في مائتين وخمسين جندياً إلي اثنين وأربعين جندياً، وكانت هذه التجربة هي التي جعلت هتلر يتجه إلي الانعزال والانطواء على نفسه خلال السنوات الباقية للحرب.

تقلد هتلر وسامين تقديراً لشجاعته في الحرب الأولي، حيث تقلد وسام الصليب الحديدي في الدرجة الثانية عام 1914 م وتقلد أيضاً وسام الصليب الحديدي من الدرجة الأولى عام 1918م وهو تكريم نادراً ما يحصل عليه عسكري من رتبة (جيفريتر) ومع ذلك لم تتم ترقية هتلر إلي رتبة (اونتروفيزير) وهي رتبة تعادل العريف في الجيش لكونه يفتقر إلي المهارات القيادية من وجهة نظر قادة الفوج الذي كان ينتمي إليه.

كانت المهام التي كان هتلر يكلف بها في المقرات العسكرية محفوفة عادة بالمخاطر ولكنها سمحت له بمتابعة إنتاج أعماله الفنية وقام هتلر برسم الصور الكاريكاتورية والرسومات التعليمية لإحدى الصحف التابعة للجيش.

في عام 1916 أصيب هتلر بجرح في الفخذ الأيسر وذلك أثناء مشاركته في معركة السوم ولكنه عاد إلي الجبهة مرة أخرى في مارس عام 1917 وتسلم شارة الجريح في وقت لاحق من نفس العام وهي التجربة التي سمحت له على أقل تقدير يفهم الحياة العسكرية.

في 15 أكتوبر 1918 دخل هتلر إحدى المستشفيات العسكرية على اثر إصابته بعمى مؤقت عقب تعرضه لهجوم بغاز الخردل وبعد هذه الإصابة كان هتلر يردد دائماً أن سبب وجوده في هذه الحياة هو إنقاذ ألمانيا.

(هتلر والسياسة)

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولي ظل هتلر في الجيش وعاد إلي ميونخ حيث شارك في الجنازة العسكرية التي أقيمت لرئيس الوزراء البافاري الذي تم اغتياله (كيرت ايسفر) كما شارك هتلر في حضور دورات الفكر القومي التي كان ينظمها قسم التعليم والدعاية التابع للجماعة البافارية في مركز القيادة الرئيسي تحت إشراف كابتن (كارل ماير).

في يوليه 1919 تم تعيين هتلر في منصب جاسوس للشرطة وكان يتبع قيادة الاستخبارات التي كانت تتبع قوات الدفاع الوطنية من أجل التأثير على الجنود واختراق صفوف حزب العمال الألماني وأثناء استكشافه للحزب تأثر هتلر بأفكار مؤسس الحزب (انتون دريكسلر) المعادية للسامية والمناهضة للرأسمالية والمعارضة للأفكار الماركسية – وكانت أفكاره تؤيد وجود حكومة قوية ونشيطة وهي أفكار مستوحاة من الأفكار الاشتراكية غير اليهودية، ومن الإيمان بضرورة وجود تكافل متبادل بين كل أفراد المجتمع، كما حازت مهارات هتلر الخطابية على إعجاب (دريكسلر) فدعاه للانضمام للحزب ليصبح العضو الخامس

والستين فيه كما أصبح هتلر أيضاً العضو السابع في اللجنة التنفيذية التابعة للحزب وبعد مرور عدة سنوات ادعى هتلر أنه العضو السابع من الأعضاء المؤسسين للحزب.

كما التقي هتلر مع (ديتريش ايكارت) وهو واحد من المؤسسين الأوائل للحزب وأصبح إيكارت هو المعلم الخاص بهتلر الذي يعلمه الطريقة التي يجب أن ينتهي بها ويتحدث بها، كما قدمه إلي مجتمع واسع من الناس.

وفي محاولة لزيادة شعبية الحزب قام الحزب بتغير إسمه إلي حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني.

في مارس 1920 تم تسريح هتلر من الجيش فبدأ مدعوماً بالتشجيع المستمر من أعضاء الحزب من ذوي المناصب الأعلى في المشاركة الكاملة في أنشطة الحزب.

في بداية عام 1921 بدأ هتلر يتمكن بشكل كامل من إجادة فن الخطابة أمام الحشود الكبيرة، وفي فبراير 1921 تحدث هتلر أمام حشد يضم حوالي ستة آلاف فرد في ميونخ وللدعاية لهذا الاجتماع أرسل هتلر شاحنتين محملين بمؤيدي الحزب ليجوبوا الشوارع يحملون الصليب المعقوف محدثين حالة من الفوضى وهم يلقون بالمنشورات صغيرة الحجم إلي الجماهير في أول تنفيذ للخطة التي قاموا بوضعها.

انتشرت سمعة هتلر السيئة خارج الحزب نظراً لشخصيته الفظة وخطاباته الجدلية العنيفة المناهضة لمعاهدة فرساي والسياسيين المنافسين له بما في ذلك أنصار الحكم الملكي والمنادين بفكرة القومية وغيرهم من السياسيين الاشتراكيين غير المؤمنين بسياسة

التعاون الاقتصادي والسياسي بين الدول كما اشتهر هتلر بوجه خاص في خطاباته بمناهضة الماركسية واليهود.

اتخذ حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني من ميونيخ مقراً له وكانت ميونخ في ذلك الوقت أرضاً خصبة لمناصري القومية الألمانية الذين كان منهم ضباط من الجيش والذين قد عقدوا العزم على سحق الماركسية وتقويض دعائم جمهورية فايمار، وهي الجمهورية التي نشأت في ألمانيا في الفترة من 1919 حتى 1933 كنتيجة للحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا الحرب.

وبمرور الوقت لفت هتلر وحركته التي أخذت في النمو أنظار هؤلاء الضباط باعتبارها أداة مناسبة لتحقيق أهدافهم.

في صيف عام 1921 سافر هتلر إلي برلين لزيارة بعض الجماعات التي كانت تنادي بالقومية، وفي فترة غيابه كانت هناك حالة من التمرد بين قيادات حزب العمال الألماني في ميونيخ.

تولت إدارة الحزب أثناء غياب هتلر لجنة تنفيذية نظر أعضاؤها إلي هتلر باعتباره شخصية متغطرسة ومستبدة وشكلوا حلف ضد وجود هتلر في الحزب.

أسرع هتلر إلي العودة لميونيخ وحاول مقاومة الهجمة الشرسة عليه بتقديم استقالته رسمياً من الحزب في 11 يوليو عام 1921 ن، وعندما أدرك هؤلاء الأعضاء أن خسارتهم لهتلر ستعنى نهاية، الحزب انتهز هتلر الفرصة وأعلن عن إمكانية عودته إلي الحزب شريطة أن يحل محل (دريكسلر) في رئاسة الحزب متمتعاً بالنفوذ المطلق فيه، وحاول أعضاء الحزب الحانقين عليه بما فيهم (دريكسلر) الدفاع عن مكانتهم في بادئ

الأمر إلا أن اللجنة التنفيذية لحزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني تراجعت عن موقفها في نهاية الأمر واعترفت بهزيمتها، وتم التصويت بين أعضاء الحزب بشأن الموافقة على مطالب (هتلر) وحصل هتلر على موافقة خمسمائة وثلاثة وأربعين صوتاً من الأصوات في مقابل الرفض من صوت واحد فقط. وفي الاجتماع التالي لأعضاء الحزب الذي عقد في التاسع والعشرين من يوليو 1921 تم تقديم أدولف هتلر بصفته (فوهرر) لحزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني وهي المرة الأولي التي تم فيها الإعلان عن هذا اللقب على الملأ.

وبدأت الخطب التي كان هتلر يلقيها في النوادي والتي كان يجتمع فيها أفراد الشعب الألماني وكان هتلر يهاجم فيها اليهود والديمقراطيين والاشتراكيين والليبراليين وأنصار الحكم الملكي الرجعيين والرأسماليين والشيوعيين تؤتي ثمارها المرجوة وتجذب إليه المزيد من المؤيدين وكان من مؤيدي هتلر الأوائل (ردولف هس/ والطيار السابق في القوات الجوية هيرمان جورينج، وقائد الجيش ايرنست روم الذي أصبح بعد ذلك رئيساً للمنطقة العسكرية المعروفة باسم (S.A) كتيبة العاصفة، والتي تولت حماية الاجتماعات والهجوم علي خصومه السياسيين كما كون هتلر جماعات مستقلة مشابهة مثل جبهة العمل الألمانية والتي اتخذت من مدينة نورنبرغ مقراً لها، وكان يوليوس رئيساً لها وشغل بعد ذلك منصب قائد فرع إقليمي لحزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني.

علاوة على ذلك لفت هتلر أنظار أصحاب المصالح التجارية المحليين وتم قبوله في الدوائر التي كانت تتضمن أصحاب النفوذ في مجتمع مدينة ميونيخ، كما اقترن اسمه في ذلك الوقت باسم القائد العسكري

الذي كان ذائعاً في فترة الحرب الجنرال (ايريل لود ندوورف).

وحاولت قوات الحزب النازي الانقلاب على الحكومة في عام 1923 ولكن المحاولة باءت بالفشل وانتهت بسجن أدولف هتلر قائد الحزب آنذاك.

(انقلاب بيرهول)

سميت بمحاولة انقلاب الحزب النازي على الحكومة باسم (انقلاب بيرهول) وهي محاولة انقلابية فاشلة نفذها هتلر من أجل الاستيلاء على السلطة في بافاريا وألمانيا وابتدأت المحاولة الانقلابية في مساء يوم 8 نوفمبر حتى ظهيرة يوم 9 نوفمبر عام 1923 وكان أدولف هتلر قد قرر استخدام اسم الجنزال إريش لوندروف كواجهة في محاولة الانقلاب التي انتهت بالفشل الذريع وسجن رئيس الحزب النازي وكذا أدولف هتلر.

(عودة هتلر)

بعد وقت قصير من سجنه وبعد ضغط الجماهير تم إطلاق سراح هتلر وكان الموقف السياسي في ألمانيا قد بدأ يهدأ وأخذت الأحوال الاقتصادية في التحسن مما فرض قيوداً على فرص هتلر في الإثارة والتأنيب، وبالرغم من أن انقلاب هتلر العسكري قد أكسبه بعض الشهرة على الصعيد القومي.

تم حظر نشاط حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني وأعضائه في بافاريا عقب فشل انقلاب هتلر وتمكن هتلر من إقناع (هاينزيس هيلد) رئيس وزراء بافاريا بأن يرفع هذا الحظر مستنداً إلي مزاعمه التي أكد فيها على أن الحزب سيسعى من الآن إلي الحصول على السلطة السياسية عبر القنوات الشرعية.

بالرغم من تفعيل رفع الحظر المفروض على حزب العمال الألماني الاشتراكي الوطني في يوم 16 فبراير 1925 فإن هتلر قد جاب على نفسه حظراً جديداً نتيجة لخطبة الملتهبة التي ألقاها وقد تسببت في إثارة الشغب بين أفراد الشعب فتم حرمانه في إلقاء الخطب العامة.

قام هتلر بتعيين جريجور شتراسر الذي كان قد تم انتخابه عام 1924 لعضوية الرايخستاخ (البرلمان الألماني) تم تعيينه في منصب رئيس منظمة الرايخ ومنحه سلطة تنظيم الحزب في شمال ألمانيا، وسلك شتراسر بالإضافة إلي شقيقه الامغر أوتو وجوزيف جويلز مسلكاً بدأت استقلالية في التزايد مع مرور الوقت ليؤكد بذلك علي وجود العنصر الاشتراكي في برنامج الحزب وأصبحت قيادة جبهة العمل الألمانية في فرعها الإقليمي في شمال غرب ألمانيا تشكل جبهة معارضة داخلية داخل الحزب لتهدد سلطة هتلر، ولكن لحقت الهزيمة بهذه الزمرة المنشقة في مؤتمر (بامبرج) الذي عقد عام 1926 والذي انضم فيه (جويلز) خلاله إلي (هتلر).

عقب هذا الصدام زاد هتلر في مركزية سلطته في الحزب وأكد على وجود منصب القائد الأساسي للحزب كمنصب يجعل منه المسئول الأساسي عن تنظيم شئون الحزب، فلا يتم انتخاب القادة من قبل الجماعات التي يقومون بقيادتها ولكن يقوم رؤساؤهم من ذوي المراكز الأعلى بتعينها ويكون لهم أيضاً الحق في مساءلتهم ... بينما يتمتع هؤلاء القادة بالطاعة المطلقة ممن هم أقل منهم مركزاً وتماشياً مع ازدراء هتلر لفكرة الديمقراطية فقد جعل كل السلطة والنفوذ تنتقل من أعلى لأسفل.

هتلر وعملية (باربا روسا) العسكرية

عملية (باربا روسا) هو الاسم الرمزي الذي أطلقه أدولف هتلر على عملية غزو الاتحاد السوفيتي خلال الحرب العالمية الثانية.

بدأ الهجوم في 22 يونيو 1941 بمشاركة 4.5 مليون جندي من قوات المحور على جبهة بطول 2.90 كم وسميت هذه العملية باسم (باربا روسا) نسبة إلي الإمبراطورية فريدريك الأول (بربروسا) حيث تقول أسطورة ألمانية أن بربروسا سيستيقظ من سباته وينقذ ألمانيا حينما تحتاجه وشكلت عملية باربا روسا الجزء الأكبر من معارك الجبهة الشرقية خلال الحرب العالمية الثانية.

كانت الدعاية النازية تحت قيادة أدولف هتلر تدعي بأن الجيش الأحمر الروسي يستعد للهجوم علي ألمانيا وأن غزوهم للأراضي السوفيتية يأتي كضربة وقائية ولكن ما كتبه أدولف هتلر ذاته قبل ذلك أظهر بوضح أطماع هتلر الشخصية في غزو الاتحاد السوفيتي لأنه على حد قوله أن ألمانيا تحتاج إلي أراضي ومواد خام وكانت سياسة هتلر النازية تهدف بوضوح إلي قتل وترحيل الروس وغيرهم من السكان السلافيين الذي يعتبرهم أدني من الألمان على أن يحل السكان الألمان محلهم وقد سميت هذه السياسية وقتها بالنظام الجديد.

ضمت عملية بارباروسا ثلاث فعاليات عسكرية أساسية وهي الزحف الشمالي نحو لينتجراد ثم الاستيلاء الرمزي علي موسكو ثم الإستراتيجية الاقتصادية بالسيطرة علي آبار النفط في الجنوب خلف أوكرانيا، وهنا كان موضع الخلاف بين هتلر وجنرالاته حول أي عملية من العمليات الثلاث ستأتي أولاً، أو ستركز ألمانيا قواتها.

كان أدولف هتلر يعتبر نفسه عبقرياً عسكرياً وسياسياً خلال مراحل التخطيط لعملية باربا روسا خلال عامي 1940، 1941، وخلال نقاشاته مع الجيش الألماني كان هتلر يكرر دائماً: (لينـنجراد أولاً) ثم (حوض دونيك) ثانياً وأخيراً (موسكو).

كان أدولف هتلر متعجلاً أيضاً في المضي قدماً في طموحاته بالغزو نحو الشرق لأنه كان علي قناعة بأن بريطانيا سوف تطلب السلم مع هتلر طالما يسقط الاتحاد السوفيتي بأيدي الألمان، وذكر في مذكراته بأنه إذا دُمر الاتحاد السوفيتي فإن ألمانيا ستدمر حلم بريطانيا في إلحاق أي هزيمة بها.

واستعداداً من هتلر لتنفيذ خطته العسكرية حرك 3.5 مليون جندي ألماني ومليون جندي من قوات المحور إلي الحدود السوفيتية وقامت هذه القوات بعدة عمليات استطلاع من الجو فوق الأراضي السوفيتية.

ومع كل هذه التحركات على الحدود فقد كان الاجتياح مفاجئاً للسوفيت على الأغلب بسبب زعيم الاتحاد السوفيتي ستالين الذي كان يؤمن بأن الرايخ الثالث الألماني لن يقوم بهجوم معادي للسوفيت وقد مضي سنتين فقط على توقيع معاهدة (مواوتوف – ريبنتروب) والمتضمنة عدم الاعتداء بين ألمانيا والسوفيت وهو أيضاً كان يظن أن ألمانيا يجب أن تنهي حربها مع بريطانيا قبل أن تفتح جبهة جديدة في الاتحاد السوفيتي، وكان جوزيف ستالين زعيم الاتحاد السوفيتي يرفض التحذيرات التي كانت تأتيه من جهاز الاستخبارات لأنه كان يظن إنها معلومات بريطانية مسربة لإشعال نار الحرب بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي والأغرب من ذلك أن الجاسوس الذي كان يعمل لحساب الاتحاد السوفيتي وهو الدكتور ريتشارد سورج قام بإعطاء جوزيف

ستالين موعد بدء عملية باربا روسا إلا أن جوزيف ستالين لم يأخذ ذلك بنظر الاعتبار ولم يأخذه مأخذ الجد.

لقد قام أدولف هتلر وجنرالاته العسكريين بالبحث في أسباب فشل نابليون في غزو روسيا من قبل .... وبإصرار من أدولف هتلر بدأت القيادة العسكرية العليا الألمانية المسماة (okw) بتطوير إستراتيجية عسكرية جديدة لتلافي الوقوع في نفس الأخطاء التي وقع فيها نابليون بونابرت، واتفق أدولف هتلر مع جنرالات جيشه على إستراتيجية عسكرية جديدة أساسها التحرك بثلاث مجاميع مع الجيوش تستند إليها مهمة السيطرة على مدن ومناطق محددة من الاتحاد السوفيتي، ومجموعة جيش الشمال أسندت إليها اجتياح دول البلطيق إلي شمال روسيا وصولاً إلي لييننجراد والسيطرة عليها أو تدميرها، ومجموعة جيش الوسط أسندت إليها مهمة التقدم إلي سمولينسك وبعدها موسكو مروراً بما يعرف اليوم باسم بيلا روسيا الزراعية في قلب أوكرانيا وعليها التقدم وضرب المناطق المكتظة بالسكان والأراضي الزراعية في قلب أوكرانيا والسيطرة على كييف قبل أن يستمر شرقاً نحو (فولغا) و (القوقاز) الغنية بابار النفط.

واختلف أدولف هتلر مرة أخري مع القيادة العسكرية الألمانية العليا وعدد من القادة العسكريين حول الأهداف الرئيسية التي يجب تحقيقها خلال التحضيرات لعملية باربا روسا، وكانت القيادة العسكرية العليا الألمانية (okw) تؤيد اندفاع مباشر للقوات وسريع نحو (موسكو) بينما ظل أدولف هتلر يصر علي السيطرة أولاً على المناطق الغنية بالنفط والمواد الخام مثل أوكرانيا و البلطيق قبل التركيز علي موسكو.

وقرر القادة العسكريين الألمان إزاء إصرار هتلر القيام بجلب بعض

القوات الخلفية إلي المناطق التي تم اجتياجها والسيطرة عليها لصد وقمع إلي عمليات مضادة توقعوا ظهورها ومن هذه القوات استدعيت وحدات من النخبة المسماه (إس. إس) والجستابو المتخصصة في العمليات الخاصة.

يمكن القول إننا وضعنا أدولف هتلر في قائمة أسوأ وأفشل القادة العسكريين نظراً للدمار والقتل الذي أحدثته معاركه والتي قدرت بالملايين ولأن غزوة الاتحاد السوفيتي كان خطأ عسكري لا يغتفر لأنه بغض النظر عن تقديرات هتلر العسكرية فإن الاتحاد السوفيتي لم يكن بأي حال من الأحوال بلداً ضعيفاً ففي عام 1941م كانت القوات المسلحة السوفيتية تتألف من 5.774 مليون جندي منهم 4.605 مليون جندي في القوات البرية و 353 الف في القوات البحرية و 167 الف جندي في حرس الحدود و 171 الف جندي في الحرس الوطني كان متواجداً في المقاطعات الغربية 2.6 مليون جندي سوفيتي أخريين يقابلهم 4.5 مليون جندي من قوات المحور كما يتواجد 1.8 مليون جندي سوفيتي أخريين في الشرق الأقصى والبقية منتشرون في مواقع أخري.

كان الجيش السوفيتي يتألف من 303 فرقة عسكرية منها 61 فرقة مدرعة و 31 فرقة آلية وكانت 70% من الفرق السوفيتية في الجبهات الغربية أي 240 فرقة سوفيتية وكان التشكيل الأساسي للقوات السوفيتية هي الفيالق الميكانيكية وكان يضم الفيلق الميكانيكي الواحد فرقتين دبابات وفرقة مشاة بعدد جنود يبلغ 37.200 الف للفليق الواحد مع 1.108 دبابة وقبل عملية (باربا روسا) كان الجيش الأحمر يضم 29 فيلق ميكانيكي في وحداته العسكرية.

كان للسوفيت التفوق لعددي في الدبابات حيث امتلك الجيش الأحمر

23.106 دبابة منها 12.782 دبابة متواجدة في المقاطعات العسكرية الغربية الخمسة ثلاثة منها واجهت غزو الألمان بصورة مباشرة بينما امتلك الفيرماخت الألماني 5.200 دبابة من طرازات باتررا، وبانزر 2، زبانزر 3، وبانزر 4، وبانزر 35، وبانزر 38، وقد حشد الجيش الأحمر بنسبة 4 إلي 1 بالدبابات وهو ما يؤكد أن أدولف هتلر كان من أسوأ وأفشل القادة العسكريين في التاريخ....

كان الجيش الأحمر يستعمل دبابات تي 34 والتي تعتبر من أحدث الدبابات في العالم في ذلك الوقت وظلت متفوقة على الدبابات الألمانية.

كانت القوات السويدية متواجدة في كل مكان على الأراضي السوفيتية كما يلي:

أ- جبهة الشمال بقيادة الجنرال (ماركسان بوبوف) وضمت الجيش الرابع عشر والجيش السابع والجيش الثالث والعشرون ووحدات صغيرة أخري.

ب- جبهات الشمال الغربي بقيادة الجنرال فيودور كورنتسوف وضمت الجيش الثاني والحادي عشر والسابع والعشرون ووحدات أمامية أخري عدد 34 فرقة عسكرية.

ج- جبهة الغرب بقيادة الجنرال دميري بافلون وضمت الجيش الثالث والجيش الرابع والجيش العاشر ومركز قيادة الجيش العاشر الذي كان مستقلاً في عملياته عن باقي التشكيلات بعدد 45 فرقة عسكرية بالإضافة إلي الأسطول الشمالي وأسطول البلطين.

د- جبهة الجنوب الغربي وكانت بقيادة الجنرال ميخائيل بيتروفيتش وضمن الجيش الخامس والجيش السادس والجيش الثاني عشر والجيش السادس والعشرون بعدد 45 فرقة عسكرية.

هـ- جبهة الجنوب وكانت بقيادة الجنرال إيفان يتوليت وضمن

الجيش التاسع المستقل والجيش الثامن عشر مع تواجد الفليق الثاني الميكانيكي، والفليق الثامن عشر الميكانيكي بعدد 26 فرقة عسكرية بالإضافة إلي أسطول البحر الأسود....

هذا بالإضافة إلي الجيوش المتواجدة في الجبهات كان هناك 6 جيوش في المنطقة الغربية من الاتحاد السوفيتي وهي الجيش السادس عشر والجيش التاسع عشر والجيش العشرون والجيش الحادي والعشرون والجيش الرابع والعشرون والتي كونت مع وحدات أخري مستقلة مجموعة جيوش الاحتياط والتي سميت لاحقاً بجبهة الاحتياط وكانت تحت قيادة جوزيف ستالين مباشر.

وكانت العمليات العسكرية والتي كانت بقيادة أدولف هتلر على عدة مراحل يمكن إيجازها فيما يلي:-

المرحلة الأولي:

(من 22 يونيو 1941 – حتى 3 يوليو 1941) كما يلي:-

في تمام الساعة 3 من صباح الأحد 22 يونيو 1941 – بدأت قوات المحور بالهجوم وكان من الصعب ساعتها تحديد حجم القوات التي قامت بالهجوم بصورة دقيقة إلا أن التقديرات تشير إلي أن 3 مليون من قوات الفيرماخت قامت بالهجوم الابتدائي والتي واجهت أعداد أقل منها من الجنود السوفيت على طول حدود المقاطعات العسكرية على أن تساهم القوات الحليفة للجيش الألماني لاحقاً....

وقبل البدء بالهجوم كان مركز قيادة القوات المسلحة السوفيتية (ستافكا) قد تلقي تقارير تفيد أن قوات (الفيرماخت) تقترب من الحدود وذلك عند الساعة 3 صباحاً إلا أن عدد قليل من الوحدات الصغيرة هي

التي تم تحذيرها من بدء الهجوم، كانت الصدمة كبيرة على السوفيتيين من ليس حيث التوقيت فقط بل من حجم القوات الألمانية التي دخلت دفعة واحدة إلي داخل الأراضي السوفيتية، فبالإضافة إلي 3.2 مليون الماني كان هناك 500.000 ألف مقاتل في القوات الرومانية والهنجارية والكروانية والإيطالية والسلوفاكية رافقت الجيش الألماني في هجومه كما كانت مساهمة الجيش الفنلندي كبيرة في الشمال كما شاركت أيضاً في الهجوم فرقة المشاة 250 الاسبانية وبالإضافة إلي أعمال الاستطلاع والدعم للقوات البرية كانت مهمة سلاح الجو الألماني هي إبطال فعالية سلاح الجو السوفيتي وتدمير مطاراته وهذا لم يتحقق في الأيام الأولى من العمليات بغض النظر أن السوفيت كانوا يجمعون طائراتهم ضمن تجمعات كبيرة عوضاً عن تفريطها مما جعلها أهداف ثابتة لللوقتفاف الألماني، وقد أعلن أنه قد تم تدمير 1489 طائرة سوفيتية في اليوم الأول من العمليات العسكرية إلا أن القائد العام أعلن عن تدمير 2000 طائرة وزعم الألمان أنهم دمروا 3100 طائرة سوفيتية في الأيام الثلاثة الأولي من الهجوم ولكن في الحقيقة فإن خسائر السوفيت كانت أكبر من ذلك حيث فقدوا 3922 طائرة حسب ما قال المؤرخ العسكري الروسي (فيكتور كرليكوف).

في هذا الهجوم استطاع سلاح الجو الألماني الحصول علي التفوق الجوي في القطاعات الثلاثة من الجبهة وحافظ عليها لضعف وقلة خبرة سلاح الجو السوفيتي.

دور مجموعة جيش الشمال الألماني

مجموعة جيش الشمال الألماني كان في مواجهتها جيش من الاتحاد السوفيتي فقد أوعزت القيادة العليا للفيرماخت بتعليمات من

(هتلر) إلي المجموعة البانزر الرابعة التقدم وبقوة 600 دبابة في ذلك القاطع وكانت مهمة البانزر الرابعة هي عبور نهري (نيمان) و (داوغافا) الذين كانا العقبة الرئيسية في التقدم نحو لينجراد.

في اليوم الأول عبرت الدبابات نهر (نيمان) وتقدمت مسافة 50 ميل (80 كيلو متر) وقامت بتطويق وتدمير دروع القوات السوفيتية، بعدها عبرت المجموعة البانزر نهر اردواغان وباتت على مقربة من لينجراد إلا أنه ونظراً لتدهور الإمدادات أمر هتلر بالتوقف، وأمر التوقف هذا طال أكثر من أسبوع مما أعطي السوفيتيين الوقت لبناء التحصينات الدفاعية حول المدينة وعلى ضفاف نهر لوكا....

ومن الأمور التي عقدت وضع القوات السوفيتية أمام قوات هتلر هو قيام ثوار لتوانيون بانتفاضة وثورة ضد السوفيت في لتوانيا وذلك يوم 22 يونيو 1941وفي اليوم التالي أعلن استقلال لتوانيا واشتبك 30.000 من ثوار لتوانيا مع الجيش الأحمر السوفيتي.

وتزامن هذا أيضاً مع تقدم الألمان شمالاً واندلاع مقاومة مسلحة ضد السوفيت في استونيا ومعركة استونيا التي انتهت في 7 أغسطس 1941 بوصول الجيش الألماني لسواحل كوندا.

(موقف جيش الوسط الألماني)

بالنسبة لجيش الوسط الألماني فقد واجه كل من الجيش السوفيتي ارقام 3، 4، 10، 11، وتمكنت الجيوش السوفيتية من السيطرة على نتوء بارز أو ما يعرف هذا الجيب مدينة (بياليستوك) وخلفها مدينة (مينك) عاصمة بيلا روسيا بالإضافة إلي مفترق للسكك الحديدية حيث كان هذا هدفاً لمجموعتي البانزر 2، 3 والذي كان يهدف في النهاية

إلي الالتقاء عند مينسك وذلك بقطع أي طريق يحاول من خلاله الجيش الأحمر الهرب من خلال الجيب الذي استولى عليه.

واستطاعت مجموعة البانزر 3 اختراق جبهة القوات السوفيتية في شمال الجيب وعبور نهر انيمان بينما عبرت مجموعة البانزر 3 نهر بوك في الجنوب وعندما بدأت مجموعتي البانزر بالهجوم انقضت مجموعة جيش الوسط للمشاة علي هذا الجيب من الأمام مما أدي إلي تطويق القوات السوفيتية في بياليستك.

كانت مشكلة موسكو في البداية إنها لم تفهم أبعاد الكارثة التي إذ أمر المارشال (تيموستينكو) كافة القوات السوفيتية بالقيام بهجوم مضاد ولكن بدون خطوط إمداد وذخيرة وانعدام المواصلات ووسائل الاتصالات بين القوات السوفيتية بعضها ببعض مما أدي إلي فشل الهجوم المضاد السوفيتي.

في يوم 27 يونيو 1741 التقت مجموعتي البانزر 2، 3 في (منسك) وتقدمت مسافة 200 ميل حوالي 300 كيلو متر في عمق الأراضي السوفيتية وذلك بتوجيهات من هتلر شخصياً قاطعة ثلث الطريق المتبقي نحو موسكو العاصمة، وفي الجيب الواسع بين مدينة (منسك) والحدود البولندية قامت القوات الألمانية بتطويق بقايا القوات السوفيتية المتواجدة هناك والتي ضمت 8 فرق دبابات وفرق فرسان وفرقة مدفعية.

مجموعة جيش الجنوب الألماني:

كان مركز هذه المجموعة (أوكرانيا)، وفي أوكرانيا استجاب القادة السوفيت للهجوم الألماني بسرعة وواجه الألمان منذ البداية مقاومة شديدة من قبل الجيوش السوفيتية الثلاثة التي كانت متمركزة هناك

وهي الجيوش 5، 6، 26، وقامت جيوش المشاة الألمانية بالانقضاض على مواضع التماس مع الجيوش السوفيتية بينما قامت مجموعة البانزر الأولي و برأس حرية مدرع بلغ 600 دبابة بالتقدم نحو الجيوش السوفيتية وكان هدفها احتلال (برودي).

في يوم 26 يونيو 1941 قامت 5 فيالق ميكانيكية مع أكثر من 1000 دبابة بهجوم مضاد على مجموعة البانزر الأولي، وكانت المعركة من اشد المعارك خلال الاجتياح ودامت أربعة أيام ليتمكن الألمان في النهاية من هزيمة القوات السوفيتية والتي تمكنت من إلحاق خسائر كبيرة بمجموعة البانزر الأولى.

وبفشل الهجوم السوفيتي المضاد وانتقال من قوات الدروع السوفيتية في غرب أوكرانيا إلي وضعية الدفاع والتي ركزت على القيام بانسحاب استراتيجي وتحت ضغط شديد ووسط بوق إعلامي ناجح يقوده هتلر شخصياً.

وبانتهاء الأسبوع الأول من العمليات تمكنت كل مجموعات جيوش الألمان من تحقيق أهدافها الرئيسية في الحملة ووصلت خسائر القوات السوفيتية إلي 600.000 الف ما بين قتيل وجريح ومفقود وخسر سلاح الجو السوفيتي 1561 طائرة vvs فوق كييف وحدها وكانت نتائج المعارك انتصاراً تكتيكياً كبيراً للألمان واستراتيجياً في وجهه نظر هتلر إلا أنها أخرت الهجوم الذي كان مقرراً على موسكو.

المرحلة الوسطي من هجوم هتلر
(3 يوليو 1941 حتى 2 أكتوبر 1941)

في الثالث من يونيو 1941 أعطى هتلر أوامره لمجموعة البانزر باستئناف العمليات العسكرية نحو الشرق بعدما لحقت وحدات المشاة بالدروع إلا أن عاصفة مطرية هبت وأبطأت تقدم الألمان وزادت من قوة الدفاعات السوفيتية.

وقد أعطي هذا التأخير الوقت المناسب للسوفيت للإعداد لهجوم مضاد كبير ضد مجموعة جيش الوسط الألماني ولتي كانت هدفها الرئيسي مدينة (سمولينسك) التي تحكم الطريق نحو موسكو، وكان بانتظار الجيش الألماني خط دفاعي سوفيتي مكون ستة جيوش.

في السادس من يوليو 1941 قام السوفيت بهجوم من 700 دبابة على جيش البانزر الثالث إلا أن الألمان سحقوا هذا الهجوم بفضل تفوقهم الجوي الكبير فوق الأراضي السوفيتية.

وعبر جيش البانزر الثاني نهر (الدنيبر) وقام بالإغلاق على مدينة سمولينسك من الجنوب بينما قام جيش البانزر الثالث بعد سحق الهجوم السوفيتي المضاد بالإغلاق على المدينة من الشمال وعلق نتيجة ذلك بين فكي هذه الكماشة 3 جيوش سوفيتية.

في 26 من يوليو 1941 قامت مجموعة من البانزر بتضييق فكي الكماشة واسرت 180.000 ألف جندي من جنود الجيش الأحمر، وبعد

انقضاء 4 أسابيع على ذلك أدرك الألمان أنهم استخفوا بقوة السوفيت بشكل كبير خاصة بعد بدء نفاذ المؤن الأولية لديهم لذا بدأت العمليات العسكرية الألمانية في التباطؤ حتى يتم إعادة تزويد الوحدات بالمؤن اللازمة، ومهد هذا التأخير لتبني إستراتيجية تتناسب مع الوضع الجديد.

في هذه الفترة فقد هتلر ثقته بمعارك التطويق وذلك لتمكن عدد كبير من الجنود السوفيت من الهرب من كماشات الألمان.

أصبح هتلر يؤمن بأنه قادر علي إلحاق الهزيمة بالسوفيت بتوجيه ضربة قوية لاقتصادهم ليحرمهم في عمليات الإنتاج للاستمرار في الحرب وهو ما يعني ضرورة إيقاف العمليات في وسط (خاركوف). (حوض الدونتيس) والسيطرة علي أبار النفط في القوقاز في الجنوب والاستيلاء السريع علي لينجراد وهي مركز أساسي للإنتاج العسكر؟ في الشمال وكذلك القيام بربط العمليات بالفنلنديين في الشمال.

أكد هتلر على وجوب التوجيه المباشر نحو موسكو العاصمه
عن القيام بعمليات في الشمال والجنوب وذلك نظراً للأه
بالاستيلاء على عاصمة العدو وكذلك أشار إلي أن مو
رئيسي للإنتاج والسلاح ومركز عمليات النقل والاتص
كان هتلر مصراً علي وقف الزحف نحو موسكو
أصدر أمراً بإرسال دبابات مجموعة جيش الو

بحلول منتصف يوليو 1941 كان الأل
داخل (كييف) وتوجه بعدها مباشرة
بينما قام الجيش الألماني الـ 17
جيوش سوفيتية بالألمان ليقو

الدبابات الألمانية وتوجهت نحو الشمال وعبرت نهر (الدنيبر) وفي هذا الاثناء إفترق جيش البانزر الثاني عن مجموعة جيش الوسط وعبر نهر ديسنا مع الجيش الثاني وعلى أثر ذلك حوصرت 4 جيوش سوفيتية ثم بدأ جيش البانزر الرابع هجومه الأخير علي لينجراد بعدما وصلت التعزيزيات من مجموعة جيش الوسط والمتمثلة في الدبابات بصفة رئيسية.

وفي الثاني من أغسطس 1941 تمكن جيش البانزر من اختراق دفاعات السوفيت وهاجم الجيش الألماني الـ 16 الجهة الشمالية الشرقية وهاجم الجيش الألماني الـ 18 استونيا وتقدم نحو بحيرة (بايبس)

بنهاية أغسطس 1941 كان جيش البانزر الرابع قد تقدم مسافة 30 ميل (حوالي 50 كيلو متر) من لينجراد أما الفنلنديين فقد قاموا بالاندفاع نحو جنوب شرق بحيرة لادوغا وصولاً إلي الحدود والفنلندية السوفيتية القديمة.

في هذه المرحلة كان هتلر قد أعطي أوامره بأن تُمسح مدينة لينجراد من علي وجه الأرض دون أخذ أي أسير وبحلول التاسع من سبتمبر 194ا هـ بدأت مجموعة جيش الشمال اندفاعها الأخير، وبغضون ـرة أيام تقدمت 7 ميل (10 كيلو متر) من المدينة إلا أن الاندفاع لعشرة كيلو مترات الأخيرة كان بطيئاً وازدادت الخسائر فيها بشكل ـغاية.

هتلر صبره وقال إن لينجراد لا يجب اقتحامها بل يجب إخضاعها لأنه أراد تحويل دبابات مجموعة جيش الشمال إلي مجموعة ـط للقيام بالاندفاع النهائي نحو موسكو.

بالهجوم على موسكو كان لابد من إنهاء العمليات العسكرية

في كييف حيث قامت نصف مجموعة جيش الوسط ومجموعة جيش الجنوب بتطويق القوات السوفيتية في 16 سبتمبر 1941 إلا أن السوفيت لم يستسلموا بسهولة ودارت معركة عنيفة قام الألمان فيها بدك القوات السوفيتية بالدبابات والمدفعية والقصف الجوي وبعد 10 أيام من المعارك تمكن الألمان من أسر 600.000 ألف سوفيتي يعتقد أن 48.000 ألف منهم كانوا جنوداً.

المرحلة الأخيرة في هجوم هتلر
(2 أكتوبر 1941 حتى 7 يناير 1942)

بعد هزيمة السوفيت في كييف علي يد هتلر وقواته فقد الجيش الأحمر تفوقه العددي على الألمان ولم يعد هناك جنود احتياط وليتم إرسالها لميدان المعارك للدفاع عن موسكو، وقام (ستالين) بتوزيع 800.000 ألف جنيه ضمن 83 فرقة عسكرية 25 منها كانت ذو تأثير أو على مستوي من الفعالية القتالية، وفي الثاني من أكتوبر 1941 بدأ الألمان بتنفيذ عملية تايفون، وهي الطريق نحو موسكو، وكان أمام مجموعة جيش الوسط سلسلة في الخطوط الدفاعية أولها (فيازما) وثانيها (موبايسك) وكانت أولى الضربات التي تلقاها السوفيت كانت بعودة جيش البانزر الثاني في الجنوب مسئولياً على (أوريول) والتي تقع على بُعد 75 ميل (حوالي 12 كيلو متر) جنوب الخط الدفاعي السوفيتي الرئيسي.

بعد مرور ثلاثة أيام اندفعت وحدات البانزر نحو (بريانسك) بينما قام الجيش الثاني بالهجوم من الغرب مطوقين بذلك 3 جيوش سوفيتية وإلي 'لشمال هاجم جيش البانزر الـ 3، 4 (فيازيا) مطوقين 5 جيوش سوفيتية ذلك فإن الخط الدفاعي الأول لموسكو يكون قد إنهار وهذا الجيب ، السوفيتيين 663.000 اسيراً وبذلك أصبح العدد الكلي للأسرى فيت منذ بدأ الاحتياج الهتلري في هذه العملية 3 ملايين جندي وإن ما 'لسوفيت هو 90.000 الف جندي و 150 دبابة للدفاع عن موسكو.

في 13 أكتوبر 1941 تقدم جيش البانزر الثالث مسافة 90 ميل (140 كيلو متر) من العاصمة موسكو وكان الطقس في تدهور مستمر منذ بداية العملية (تايفون) مع انخفاض في درجات الحرارة واستمرار هطول الأمطار محولاً شبكة الطرق إلي وحل مما أدي إلي تأخير تقدم القوات الألمانية، وتدهورت الإمدادات بشكل كبير مما دفع القيادة العليا للجيش الألماني في 23 أكتوبر 1941 إلي وقف عملية (تايفون) بشكل مؤقت وذلك لإعادة تنظيم القوات، وهذا التوقف أعطى السوفيت الوقت الكافي لتعزيز قواتهم بفضل شبكة السكك الحديدية التي كان يستخدمها الجيش الأحمر حيث قام السوفيت بتنظيم 11 جيش جديد خلال فترة شهراً أو أكثر والتي ضمت 30 فرقة عسكرية من القوات السيبيرية التي تم استدعائها بعدما أكدت أجهزة الاستخبارات لستالين أنه ليس هناك خطر من اليابانيين، وكان قدوم القوات السيبيرية قد أسهم بدعم الجيش السوفيتي بـ 1000 دبابة و 1000 طائرة عسكرية أيضاً.

في 15 نوفمبر 1941 وواجهه الألمان في ذلك الوقت 6 جيوش سوفيتية، وخطط (هتلر) لجعل جيش البانزر الـ 3، 4 يعبران قناة موسكو ليقوموا بالإقفال على موسكو في الجهة الشمالية الشرقية بينما يقوم جيش البانزر الثاني بالهجوم على (تولا) والإغلاق على (موسكو) من الجنوب وعلى أثر ذلك سيتحرك السوفيت للأطراف، عندها يقوم جيش البانزر الرابع بالهجوم علي وسط المدينة.

وبعد أسبوعين من القتال المتواصل وبنقصان الوقود والذخيرة تمكن الألمان من الزحف ببطيء نحو موسكو.

وفي الجنوب تم صد هجوم جيش البانزر الثاني، وفي 22 نوفمبر

1941 قامت الوحدات السوفيتية السيبيرية بالهجوم على جيش البانزر الثاني ملحقة الهزيمة به وبالرغم من ذلك فقد تمكن جيش البانزر الرابع من عبور قناة موسكو وبداية عملية التطويق.

في 2 ديسمبر 1941 تمكن جيش البانزر الرابع من التقدم لمسافة 15 ميل (24 كيلو متر) إلي العاصمة موسكو، في هذه الفترة كان موسم العواصف الثلجية قد بدأ وبدأت معه معاناة الجيش الألماني الذي لم يكن مجهزاً للخوض في معارك شتوية إذ كلفته الأوبئة والأمراض ضحايا أكثر مما كلفته المعارك.

بلغت خسائر هتلر العسكرية 155.000 الف جندي ما بين قتيل وجريح في ثلاثة أسابيع، وبعض الفرق العسكرية فقدت 50% من قوتها كما أن البرد القارص سبب مشاكل للأسلحة والمعدات كما أن سوء الأوضاع الجوية قوض من فعالية سلاح الجو.

في 5 ديسمبر 1941 قامت الوحدات السوفيتية الجديدة التكوين والتي وصل عددها إلي أكثر من 500.000 الف جندي بهجوم مضاد كبير ضد قوات هتلر ودفعهم مسافة 200 ميل إلي الوراء وكان هذا الهجوم المضاد قد كلف هتلر 250.000 الف قتيل و 500.000 الف جريح أغلبيتهم كانوا ضحايا ما بعد الأول من أكتوبر 1941 مع عدد كبير غير معروف من قوات المحور من الهنغاريين وهكذا انتهت عملية (باربا روسا) التي قام بها هتلر بالفشل الذريع وكانت مقدمه النهاية لهتلر كقائد عسكري

معركة برلين ونهاية هتلر

معركة برلين أو عملية الهجوم على برلين واحدة من المعارك الأخيرة في الحرب العالمية الثانية وأطلق عليها السوفيت اسم عملية الهجوم الاستراتيجي على برلين حيث قامت جبهتان سوفيتيتان بمهاجمة (برلين) من الشرق إلي الجنوب بينما قامت جبهة ثالثة باجتياح شمال برلين.

ودارت رحي هذه المعركة من أواخر ابريل 1945 وحتى أوائل مايو 1945 والتي كانت واحدة من أكثر المعارك دموية في التاريخ.

قام أدولف هتلر ومعه الكثير من أتباعه بالانتحار قبل نهاية المعركة واستسلام القوات الألمانية تحت وطأة الحصار في 20 مايو 1945 ولكن القتال استمر في الشمال الغربي والغرب والجنوب الغربي في مدينة برلين حتى نهاية الحرب في أوروبا في 9 مايو 1945، وقد فضلت الوحدات الألمانية المتمركزة غرباً والتي قاتلت السوفيت الاستسلام للحلفاء الغربيين الذين لم يخوضوا المعركة أملاً في معاملة أفضل.

(مقدمة وتفاصيل المعركة)

في 12 يناير 1945 بدأ الجيش الأحمر هجوماً سمى بهجوم من وارسو عبر نهر ناريف واستمر هذا الهجوم ثلاثة أيام علي جبهة عريضة تضمنت أربع مجموعات جيوش، وفي اليوم الرابع بدأ الجيش الأحمر بالتحرك غرباً بسرعة من 30 إلي 40 كيلو متر في اليوم تقريباً قاطعاً دول البلطيق راسماً خطاً يبعد 60 كيلو متر شرق برلين ومحاذياً لنهر (الأودر).

حاولت مجموعة جيوش (فيستولا) المتكونة حديثاً تحت قيادة رئيس وحدات النخبة النازية (هاينزيش هيملر) القيام بهجوم مضاد ولكنها فشلت تماماً.

بحلول يوم 24 فبراير 1945 تقدم الجيش الأحمر إلي (بوميرانيا) مؤمناً الضفة اليُمني لنهر (الأودر) ووصل إلي (سيدليزيا).

وفي الجنوب حمى وطيس معركة (بودابست) وفشلت ثلاث محاولات المانية لفك الحصار عن العاصمة المجرية، وسقطت في يد السوفيت في 13 فبراير 1945، وقام الألمان بهجوم مضاد مرة أخرى وفشل هو الآخر.

أصر أدولف هتلر على استعادة نهر (الدانوب) وكانت هذه مهمة مستحيلة.

وفي 16 مارس 1945 فشل الهجوم الألماني غلى بحيرة (بلاتون) واستعاد السوفيت بهجومهم المضاد الذي استمر 24 ساعة كل ما اكتسبه الألمان في 10 أيام.

في 30 مارس 1945 دخل السوفيت النمسا، كما استولوا على فيتا في 13 ابريل 1945، وكان من الواضح حينها أن هزيمة الرايخ الثالث لن تستغرق سوي أسابيع قليلة حيث فقد الجيش الألماني (الفرماخت) ما بين يونيو وسبتمبر 1944 أكثر من مليون رجل كما شح الوقود والذخيرة والمؤن.

وقفات في حياة هتلر

1 - هتلر وإخفاق حركة شوفرز

يقول هتلر عن إخفاق الحركة الجرمانية (حركة الوحدة الجرمانية)

إن إخفاق حركة شوفرز ترتكز على ثلاثة أسباب:

أولاً: سوء تقدير شوفرز للقضايا الاجتماعية الهامة، خاصة بالنسبة إلي حزب ثوري جديد. فقد كان يعتمد بصورة خاصة على الطبقات البرجوازية التي لا أمل منها فالبورجوازية الألمانية تبقى مسالمة لدرجة نكران الذات، عندما تتعلق الأوضاع بمصير الأمة الداخلي، فعندما تكون الحكومة متباعدة عن الشعب ومطالبة الحق فمسألة الطبقة البرجوازية، في هذه الأوقات بالذات، لا يعتبر إلا تواطوء مع الحكومة ضد مصلحة الشعب.

لقد كان من واجب الحركة الجرمانية أن تستمر وتسعى لجذب الجماهير، ولكنها لم تفعل، بل بدأت باستمالة البورجوازيين المعتدلين الذين وسموا الحزب الجديد بطابعهم الخاص، مما أدى إلي فتور همة الحزب ومع الأيام جنح نحو التعاون مع السلطان على أساس الاعتراف بالوضع الحالي ووقف حركة النضال وعقد صلح أعرج.

إن فشل حركة الوحدة الجرمانية كان سببه إذن إغفال قوة الجماهير مما جعل الحزب بورجوازياً معتدلاً، ومن ثم تولد الخطأ الثاني.

عند ابتداء الحركة كانت حالة الألمان في النمسا تدعو إلي الأسف، فقد أصبح البرلمان في يد الحكام يستخدمون للقضاء على العنصر

الجرماني. وكانت كل محاولة لاسترداد هيبة هذا العنصر تفشل بصورة أكيدة. وقد شعرت الحركة الجرمانية بحرجه الموقف، فهل تدخل البرلمان وتعمل على استرداد نفوذها من الداخل أم تبقي لتعمل في الخارج. ولم تلبث أن فضلت العمل داخل البرلمان، وبالطبع خرجت من المعركة بالفشل الذريع.

لم تكن الحركة الجرمانية بوضع يسمح لها بالاختيار، فقد اضطرت لدخول البرلمان بسبب عجزها عن النضال خارج البرلمان لأن هذا يتطلب التضحيات الكثيرة والشجاعة والعزم. فالتضحيات وحدها التي توفر للقضية أبطالاً لا يتورعون عن البذل ولا يهابون العقبات التي تعترض سبيلهم.

إن الأبطال لا نجدهم بل يجب أن نبحث عنهم بين أفراد الشعب فالشعب هو العنصر المناضل القوي الذي يستمر في المعركة إلي نهاية الطريق، وهذا العنصر المناضل كان ما ينقص الحركة الجرمانية، فلم يبق أمامها والحالة هذه إلا دخول البرلمان والعمل على لغمه من الداخل.

لقد خيل اليهم إن في إمكانهم مخاطبة الجماهير وتنويرهم من خلال خطبهم النارية داخل البرلمان، وباعتقادهم أن المجلس سيصبح كمنبر عام يتوجهون منه إلي الأمة جميعها. ولم يعلموا أن الجمهور لا يمكنه الاستماع إليهم إلا عن طريق الصحافة التي تطالعه كل يوم بأخبار الندوة البرلمانية إما بطريقة محرفة أو ممسوخة.

انه من البساطة الاعتقاد أن العقائد السليمة كفيلة باجتذاب النواب إلي الاستماع.

إن الخطب التي ألقاها النواب الألمان في البرلمان النمسوي كانت

كالدرر الملقاة إلي الحيوانات، فذهبت جميعها كالهباء المنثور. أما الصحافة فكانت تحرف أقوال النواب الألمان وتنشر ما تراه مناسباً بعد أن تشوهها وتبدل في معانيها لتلقى ظلاً من الشك على مقاصد الحزب.

لقد كان على الحزب أن يعلم أن قيامه بشكله الجديد سيباعد بينه وبين النجاح إلا إذا بني عقائده على الفلسفة، إذ أن كل حركة قومية بحاجة إلي الدعامة الكافية التي تتيح لها قوة الاستمرار وهذه القوة تستمدها من المفاهيم الفلسفية للحركة.

إن العقائد الفلسفية بحاجة إلي زعماء شجعان قادرين على البذل والتضحية، وبذلك يتقدم لخدمتها وللدفاع عنها مناضلون يقمحون الموت بخطى ثابتة، لا يطمعون بوظائف ومراكز سهلة التناول. بل يجب على الزعماء أن يفهموا جماهيرهم ومؤيديهم أن طريق الكفاح طويل وشائك ولكن المستقبل سيحمل للجيل المقبل السعادة والازدهار، ولن تعطى ثمارها في الوقت الحاضر، وإذا لوح الزعماء بالوظائف والمراكز فسرعان ما يحتاجها الوصوليون والانتهازيون، ويأتي اليوم الذي يتسلط فيه هؤلاء على الحزب فيصبح المناضل الشريف دخيلاً على الحركة التي قامت على ساعده.

وبانتصار نشاط حركة الوحدة الجرمانية داخل البرلمان توفر لديها عوضاً عن الزعماء المكافحين، بضعة من النواب البرلمانيين، فهبطت الحركة الجرمانية إلي مستوى الأحزاب السياسية، ولم تعد قادرة على الصمود أمام التيارات المعادية، وبدلاً من أن تستمر في النضال العنيف تعلمت إلقاء الخطب وفن المساومة، وما لبث نواب الحزب أن اقتنعوا أن طريقتهم هذه أفضل وانفع، فهي أخف خطراً عليهم وأقل مشقة وإجهاد.

وقد علق أنصار الحزب الآمال الكبيرة على رجاله في البرلمان وانتظروا المعجزة الكبرى، ولكن سرعان ما خابت آمالهم ولم يتحقق شيء من الوعود الكثيرة، وعملت الصحافة على توسيع الخلاف فكانت تغفل إظهار مواقف النواب الألمان المشرقة، وفي نفس الوقت انقطعت الصلات التي كانت تربط أنصار الحزب وبعضهم لبعض، فقد اجتذب البرلمان الخطباء الذين توقفوا عن الاجتماعات ومخاطبة الجماهير وجهاً لوجه مما يقوي حماسة النفوس ويثبت الإيمان بقضيتهم وعدالتها.

لقد أضاعت الحركة طابعها الشعبي فانقلبت إلي ناد للجدال والنقاش منذ أن انتقل خطباؤها وزعماؤها من الساحات العامة إلي المجلس النيابي. وإذا كانت الصحافة قد لعبت دورها في تقوية مواقف النواب الألمان فإن غيابهم عن ساحة النضال الفعلي وانقطاعهم عن ناخبيهم كانا من أهم العوامل التي فتحت المجال أمام الصحافة لتتجح في إثارة نقمة الشعب على الحركة الجرمانية.

إن أي حركة ترقب أهدافاً بعيدة المدى ينبغي لها أن تحافظ على الصلات الوثيقة بينها وبين الجمهور، وإن تدرس كل قضية على ضوء هذه الحقيقة وتنفذ مخططاتها حسب هذا الاتجاه، وإن تدرس كل قضية على ضوء هذه الحقيقة وتنفذ مخططاتها حسب هذا الاتجاه، وإن يبتعد عن كل ما من شأنه أن يخفف من تأثيرها على الجماهير الشعبية لأن اي مشروع كبير لن يتحقق بدون مساعدة ومساهمة الجماهير.

أما العامل الثالث الذي كان مسبّباً لإخفاق حركة الوحدة الجرمانية هو جهل زعماء الحركة لنفسية الشعب. وأكبر مثال على هذا الجهل هو محاربة الحزب للكنيسة الكاثوليكية. ولكن كان هناك بعض المسببات التي

حدث بالحركة الجرمانية لمعاداة الكنيسة. فقد شرع آل هابسبورغ بوسم النمسا بالطابع السلافي حتى أنهم ورطوا المؤسسات الدينية في ذلك. فقد تحالفت معهم الأبرشيات التشيكية في تطبيق الفكرة الجديدة بعد أن عينت السلطات كهنة من العنصر التشيكي في مناطق ألمانية وأطلقت أيدي عملاء الكنيسة في محاربة النزعة الجرمانية والتبشير بالفكرة الجديدة.

وقد وقف رجال الأكليروس الألمان موقف المتفرد من تلك الأحداث. وقد آلم فون شوفرز أن يرى التحيز الفاضح من قبل الكنيسة الكاثوليكية فأعلن عليها الحرب وطالب "بالانفصال عن روما" باعتبار أن أصل البلاء هو أن رأس الكنيسة مقيم خارج ألمانيا، لذلك وجب على الألمان، كهنة وعلمانيين، أن يعملوا على إيجاد كنيسة وطنية خاصة بهم.

لم يكتب النجاح لحملة فون شوفرز، لأنها اعتمدت مقاييس خاطئة، فقد انحصر اعتمادها على إخلاص رجال الأكليروس للفكرة الجرمانية. ولكن الأكليروس كان يدين بالولاء المطلق للكنيسة، أما إخلاصه للوطن فكان موضوعياً.

لقد كان على الحركة الجرمانية قبل أن تعلن الحرب على الكنيسة أن تنظر إذا كان بقاء الألمان في النمسا يتمشى مع مصلحة الكنيسة الكاثوليكية أم لا.

فأما أن يترفعوا عن التدخل في القضايا الطائفية وإلا وجب عليهم البدء في تحقيق الإصلاح الديني بواسطة حزب سياسي.

يقول هتلر في حديثه عن حزب الحركة الجرمانية

قد يقول قائل أن حملة الألمان على الكنيسة لم تكن إلا لصد الهجمات المعادية عليهم. ولكن يجب أن لا تحمل الدين أو الطائفة تبعة الأعمال

التي قام بها أشخاص لم يتورعوا علن استخدام الدين والطائفية لنيل مآربهم. وكانت الحرب التي شنها الألمان علي الكنيسة بمثابة سلاح وضعوه في أيدي خصومهم لا سيما النواب الذي جعلت منهم تلك الحملة إبطالاً يدافعون عن الدين والكنيسة.

لذلك ابتعد عن الحركة جميع الكاثوليك الذين يدينون بالولاء لروما، فكان ذلك مدعاة لتضاؤل شأنها في جميع الأوساط.

وهناك خطأ آخر وقعت فيه الحركة، وهو إنهم اضطروا لمحاربة أكثر من خصم، فالشعب من أتباعهم توهم أنه يواجه أكثر من عدو وانه مضطر إلي الحرب على جبهات متعددة فارتبك بأمره واعتراه مركب نقص في حقيقة وعدالة قضيته، إذ أن الجمهور بدأ يتساءل هل يكون جميع خصومه على خطأ وهو وحده علي صواب ؟؟؟

إن الحزب الألماني النمساوي، قد اختار الهدف ولكنه اختار طريقاً أعوجاً وسلكه لبلوغ هدفه السامي فكانت النتيجة الإخفاق والفشل الذريع.

أما الحزب المسيحي الاشتراكي فلم يقع في الأخطاء التي وقع فيها حزب الحركة الجرمانية، فقد اختار الطريق القويم قبل أن يمضي نحو الهدف. فقد وعي أهمية الحركات الشعبية، فاجتذب نحوه أنصاراً مخلصين مستعدين للتضحية، وذلك بمجرد إعلانه عن أن عمله. وبنفس الوقت تجنب الاصطدام مع المؤسسات الدينية مما ضمن له مؤازاة الكنيسة الكاثوليكية.

إن الحركة التي تزعمها الحزب الجديد وهي معاداة السامية قد قامت على أساس ديني لا علي أساس عنصري بحجة أن المبادئ العنصرية لا تصلح كأساس للعمل على إنقاذ البلاد.

كانت فينا في ذلك الوقت قد اجتذبت من سكان الألوية العديدة من السكان ذوي الطابع القومي الخاص، وأخذ كل فريق منهم بتكتل سياسياً، وخوفاً من أن تصبح هذه التكتلات قوة معادية للألمان، جعل الدكتور لوجر ينادي بشعار "إنقاذ النمسا من المفسدين اليهود" ودعا جميع النمسويين من جميع الفئات إلي صد الشعار الذي يروج له اليهود، لا بصفتهم غرباء بل كونهم طائفة دينية.

ومن الواضح أن حملة تشن ضد اليهود على أساس ديني لن تلحق بهم أي ضرر، فمنهم على استعداد لإنقاذ أنفسهم وتجارتهم بقليل من ماء العماد ...

وسرعان ما ظهر سطحية الأسس التي قام عليها العداء للسامية. وخيل إلي الكثيرين أن القصد من هذه الحملة هو حمل اليهود على اعتناق المسيحية، وبدت لهم أن هذه المحاولة هي محاولة صبيانية لا تستحق أي تشجيع.

لقد ضحى الخزب بفكرة قيام الأدلة على القومية، حين وقفوا لمحاربة اليهود على أساس ديني، وحتى بعد فشل الحركة المعادية للسامية فقد تجنب الحزب إثارة مبدأ القوميات آملين أن يتمكنوا من إنقاذ دولة آل هابسبورغ. وقد فاتهم أن إثارة مسألة القوميات كفيل بجلاء الغموض الذي يكتنِف بعض الولايات.

يقول هتلر:

كنت مع الألوف الذين شيعوا جنازة الدكتور لوجر من دار البلدية إلي "الرانغتراس"، وقد شعرت بأن أعمال هذا الرجل قد ذهبت سدى، لأن القدر كان يأبي على الدولة النمساوية أن تستمر. ولو عاش لوجر في

ألمانيا لكان لحتل المرتبة الأولي ولكن سوء حظه جعله يعبش في هذه الدولة الغير قابلة للإصلاح.

عند موت الدكتور لوجر، بدأ البلقان بالاشتعال، وكان القدر رفيقاً به فيما رأي الكارثة التي عمل على تفاديها.

بدأت أكره النمسا بعد أن أصبحت معرضاً للقوميات المتنافرة، وتنكرت لتاريخها المجيد بعد أن سمحت لجموع البولونيين والتشيكيين والهنغاريين وغيرهم لغزوها والاستيطان فيها. وخيل إلي أن هذا الوقت إني أصبحت غريباً في تلك العاصمة الجميلة فينا.

قررت الانتقال إلي ألمانيا لأعود إلي مهنتي في هندسة البناء تاركاً المساهمة في تحقيق أغلى أماني القومية للألمان المخلصين وهي إلحاق وطني النمسا بالوطن الكبير الرايخ الألماني ...

إن الحنين إلي الوطن يتقد في قلوب جميع الذين يعيشون بعيدين عنه، ولن يعرفوا معنى الطمأنينة إلا حين يفتح أمامهم أبواب الوطن وينعم أبناء الوطن بالسلام والطمأنينة في الإمبراطورية الموحدة.

فقد كانت فينا المدرسة التي علمتني دروس الحياة، فقد دخلتها صبياً يافعاً وغادرتها رجلاً رصيناً. فقد تبلورت نظرتي إلي الحياة، وفيها تعلمت الأسس التي نعمل من أجلها اليوم كحزب بدأ حركة متواضعة منذ خمس سنوات وهو الآن ينمو بشكل كبير ليصبح حركة شعبية ذات شأن عظيم.

2 - هتلر في ميونيخ

وعن ذكريات هتلر في ميونيخ كتب يقول:-

غادرت فينا في ربيع عام 1912 قاصداً ميونخ. فقد كنت أعرف تلك المدينة كما لو كنت ساكناً فيها، وذلك بسبب دراستي للفن الألماني، إن من يزور المانيا ولا يزور ميونيخ لن يعرف شيئاً عن الفن الألماني، فقد كانت الفترة التي أمضيتها في ميونيخ من أسعد أيام حياتي مع أن تحصيلي من عملي كان متواضعاً، ولكن ما كنت أعمل لأعيش بل لأتابع دراستي وتحصيلي وأنا متأكد من بلوغي الهدف الذي رسمته لنفسي.

لقد تعلقت كثيراً بهذه البلدة الجميلة وشعرت بالفرق العظيم بينها وبين فينا، ومما زادني تعلقاً بها ما رأيته من مظاهر الحيوية الدافقة في جميع الميادين ومن روائع الفن الناطقة بعظمة الفن الألماني، ولا شك أن تعلقي بميونيخ هو أنها مرتبطة بتطوري ونمو مداركي ارتباطاً شديداً لا يمكن فصله، بالإضافة إلي تأثير جمالها في كل رجل مرهف الحس محب للجمال.

لم يصرفني انكبابي على الدرس عن متابعة الأحداث السياسية، وكنت ألمس من سياسة ألمانيا الخارجية أنها مبنية على أسس غير سليمة، ولكني كنت أظن أن الساسة في برلين على علم بحالة الضعف التي وصلت إليها النمسا، وبنفس الوقت يكتمون هذه الحقيقة عن الشعب تجنباً لنقمته، وبنفس الوقت كانوا يحرصون على الحفاظ علي سياسة

المخالفات التي رسمها ووضع أسسها بسمارك.

ولكن مع الأسف فقد كانت الفكرة لدى الألمان عن النمسا خاطئة، والوهم كان سائداً بأن النمسا لا تزال قوية يمكن الاعتماد عليها كحليف قوي. أما أنا فكنت على علم تام بمشاكل النمسا، بينما كانت الدبلوماسية الرسمية تجهل تلك المشاكل الخطيرة، حتى أن الرأي العام ظل على اعتقاده الخاطئ بقوة النمسا وجيشها. وبلغ حُسن الظن حدا أصبحت فيه ادعاءات فينا من أمانة للتحالف الثلاثي مثاراً للسخرية من الصحف في عواصم الولايات السلافية لا سيما التي كانت تعتبر هذا التحالف مسرحية مضحكة ومبكية معاً. وكان الرأي السائد في أيام السلم أن هذه المخالفات ستنقض عند أول تجربة قاسية.

وقد صدق الحدس ورأينا إيطاليا وفي الوقت الذي كان التحالف يمر في تجربته القاسية الأولى، تتنكر لحلفائها ألمانيا والنمسا وتقف مع أعدائها.

ويواصل هتلر حديثه قائلاً:

عندما كنت في فينا لاحظت الحماس البالغ من قبل أنصار الوحدة الجرمانية للتحالف الثلاثي بسبب اعتقادهم أن هذا التحالف سيدعم موقف ألمانيا في حال نشوب الحرب، وبذلك يرتبط مصير النمسا بمصير الرايخ. وقد فاتهم أن هذا الحلف سيحمل الرايخ حملاً ثقيلاً ويؤدي بالدولتين إلي الهاوية. كما أن تفاؤلهم بالحلف سيضمن تحقيق أمانيهم القومية، ولكن هذا الحلف كان ستاراً استخدمته فينا لتغطية تدابيرها الرامية إلي إبادة العناصر الجرمانية في البلاد.

لقد أصبح موقف المان النمسا حرجاً نتيجة لسياسة الأحلاف، لأنهم لو استمروا في نضالهم لاعتبروا خائنين، ولم يفت المطلعين منهم

أن الحلف الثلاثي قيمته في إبقاء العنصر الألماني متفوقاً، وبالتالي يتغلب الطابع السلافي على البلاد. وقد آلم هذا الفريق من الألمان النمساويين أن تسقط هذه الاعتبارات من حساب الدبلوماسية والرأي العام الألماني، وأن يقفا موقفاً من مسألة القوميات مجازفين بقدرات شعب من سبعين مليوناً، وذلك يجعل مستقبله مرتبطاً بمعاهدات مع سلطة لا تتورع عن إبادة رعاياها الألمان، أي العنصر الأساسي الذي تعتمد عليه هذه المعاهدة.

ولو رجع هؤلاء إلي التاريخ لوجدوا أنه لا يمكن للكيرينال والقصر الإمبراطوري أن يحاربا جنباً إلي جنب. فالشعب الايطالي لم ينس موقف الهابسبورغين وحدة بلاده واستقلالها. ولن تجرؤ الحكومة الايطالية إلي إرسال جندي واحد إلي الحرب ما لم تتأكد من أنه سيحارب آل هابسبورغ بالذات. ولئن تكن إيطالياً قد دخلت الحلف الثلاثي فلرغبتها في كسب الوقت والتضليل، بحيث يركن حلفاءها إلي المعاهدات بينما تستعد هي الحرب.

إن سياسة المحالفات التي اعتمدتها ألمانيا منذ أن ساءت علاقات النمسا مع روسيا، قد بنيت على افتراضات خاطئة.

لقد كانت الرغبة في عقد المحالفات هو الحاجة الملحة إلي أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم في حالة نشوب حرب لابد منها. فقد كان على المانيا أن تواجه مشكلة تكاثر عدد السكان ففي كل سنة كان يزداد عدد سكان المانيا 900 ألف شخص، وهذا التزايد يهدد البلاد بكارثة إذا لم تفكر السلطات بتدابير سريعة تقطع الطريق على المجاعة. وكان هناك أربع حلول يمكن اعتبارها لحل مشكلة ألمانيا:

أولاً: تحديد النسل لازدياد عدد السكان، كما هو في فرنسا، ففي الأقطار ذات المناخ الرديء تتولى الطبيعة مهمة الحد من تضخم عدد السكان، فهي تعترض نمو السكان وتضعهم إلي تجارب قاسية فتزيل العناصر الضعيفة وتبقى على الأصلح، وبذلك يتوصل خفض العدد إلي تقوية الفرد وبالتالي النوع ... وعلى العكس من ذلك إذ تولى الإنسان بنفسه تحديد النسل، فهو غير الطبيعة، لا يعترض نمو الفرد ولكنه يتولى الحد من التناسل، وبذلك يرضى إنسانيته لأنه لا يري من الكون إلا نفسه ولا يعتبر وزناً للعرق الذي ينتمي إليه.

إن طريقة الإنسان وعواقبها عكس طريقة وعواقب الطبيعة. فالطبيعة لا تتعرف إلي الحدود السياسة، وهي وضعت المخلوقات الحية على وجه البسيطة، وبدأت تراقب صراع القوى المختلفة وتنظر بعين العطف إلي مَنْ هو جدير بالحياة والبقاء. وقد تركت الطبيعة أرضٍ شاسعة لا تزال بكراً، وهي لم تحتفظ بها لجنس من الأجناس، بل تركتها للشعب الذي يتمكن من امتلاكها ويضع يده عليها.

فالشعب الذي ينصرف إلي الاستعمار الداخلي، بينما تحاول الشعوب الأخري الامتداد إلي مناطق واسعة من الأرض، سيضطر هذا الشعب عاجلاً أو آجلاً إلي تحديد نسله. ومن الملاحظ أن أفضل الأمم التي لا تطمح إلي التوسع وتكتفي بالاستعمار الداخلي، تاركة التوسع لأمم أقل منها جدارة ولكن أكثر منها عزيمة وقوة وحيوية. وفي نفس الوقت نجد الأمم الأولى مضطرة إلي تحديد النسل لتفادي المجاعة، بينما نجد الثانية تنمو وتزدهر وتزداد قوة تبعاً لازدياد إمكاناتها.

إن من سخرية القدر أن يكون اليهودي هو الموجه لهذا التوجيه

الخطر، وهو المدخل في روعنا أن في إمكاننا توفير ما نحتاجه جميعاً باستدار عطف الأرض الألمانية المجاورة.

لن ينقد ألمانيا من خطر الجوع إلا الاستيلاء علي أرض جديدة. والبلاد الصغيرة في مساحتها تبقي معرضة للمفاجآت العسكرية والسياسية، فالمساحة الكبيرة هي بحد نفسها عاملاً أساسياً من عوامل الاستقرار، فكلما امتدت أرضي شعب سهل الدفاع عنه، فقد رأينا أن الانتصارات السريعة كانت علي أراضي شعوب مجالها الحيوي ضيق، بينما كان علي العكس من ذلك بالنسبة للبلدان ذات المساحات الشاسعة، إذ أن قوة المهاجم تنهار قبل وصوله إلي هدفه البعيد.

تفسح الطبيعة المجال للتناسل ولكنها تخضع هذه السلالة إلي امتحان قاس فتختار الأصلح للحياة وتحتفظ به وتوكله بمهمة حفظ النوع. أما الإنسان فإنه يحد من نسله ويحاول الحفاظ على سلالته سواء أكانت صالحة للحياة أو لا. وبذلك يتمكن من الحد من العدد ولكن قيمة الفرد تتضاءل كما تتضاءل جودة النوع.

إن سنة الطبيعة تفسح مجال البقاء للأقوى، أما الحد من التناسل فلا يستعبد السلالات الضعيفة الغير جديرة بالحياة، فتؤلف سلالة جديدة اشد ضعفاً، مما يشكل تحدياً لسنة الطبيعة، ولكن الطبيعة تثأر لنفسها من هذا التحدى، فتسلط الأقوياء، الجدير بالحياة على الضعفاء الخاملين. وليعلم الذين يدرسون مشكلة تزايد عدد السكان أن الطريقة المتبعة في فرنسا أي تحديد النسل، لو اتبعت في ألمانيا فإنها تعني القضاء على مستقبل الشعب الألماني.

ثانياً: الاستعمار الداخلي، هذه الطريقة التي يدافع عنها الذين لا يدركون عواقبها.

إن الاعتماد على زيادة محصول الأرض كوسيلة لإنقاذ الشعب الألماني من المجاعة، ممكن كحل مؤقت، ولكن هذه الطريقة لن تحل المشكلة من أساسها حلاً نهائياً. باعتبار أن عدد السكان سيزداد بينما قدرة الأرض على الانتاج ستتضاءل، ولأن متطلبات السكان تأخذ بالتنوع فمثلاً كانت متطلبات أجدادنا منذ مئة عام أقل من متطلبات جيلنا الحاضر بنسبة كبيرة جداً. فالأرض كما قدمنا، لن تتمكن من العطاء إلي الأبد ولابد أن ياتي اليوم الذي ستجف الأرض وتصبح عاجزة عن الإنتاج والعطاء، قد لا تجف الأرض إلا في سنوات القحط، ولكنها ومع الاستمرار في ازدياد عدد السكان ستصبح الأرض عاجزة تماماً، فتطل المجاعة بوجهها القبيح، ولا ينقذ الموقف إلا تدخل الطبيعة مما تملكه من قوة على اختيار من هم صالحين للبقاء، وتترك سائر السكان إلي مصيرهم المحتوم.

قد يقول قائل أن هذه الاحتمالات ستحدث يوماً من الأيام وستطال المجاعة البشرية كلها ولن يسلم من خطرها شعب من الشعوب. وهذا القول يبدو وكأنه صحيحاً. ولكن هذا لا يمنع من النظر إلي الأمور على حالتها الراهنة. إن الموجهين الألمان قد رفضوا فكرة الاستعمار الداخلي لأسباب غير التي ذكرناها سابقاً فقد اعتبروا الاستعمار الداخلي كهجوم على الإقطاعيات الكبيرة بشكل عام وعلى الملكية الخاصة بشكل خاص. كما رفضوا فكرة تحديد النسل لأسباب دينية بحته.

ثالثاً: تأمين الطعام والإسكان والعمل للسكان الآخذين بالازدياد وذلك بالاستيلاء على أراضٍ جديدة وإسكان الألماني فيها.

رابعاً: إغراق الأسواق الخارجية بالبضائع الألمانية لتوفير أرباحاً

كافية تمنع عنا شبح المجاعة.

لقد اصبح على ألمانيا ان تختار بين الاعتماد على التوسع أو الاعتماد على التجارة. وقد اختارت التجارة بعد تردد وكان عليها أن تختار التوسع لأنها أصلح واسلم. إذ إن كسب أراضٍ جديدة ينتقل إليها الفائض من السكان له ميزات عديدة، أهمها وجود طبقة سليمة من الفلاحين تعتمد عليهم الأمة كلها. فإن ما نشكو منه اليوم سببه فقدان التوازن بين ما تقدمه المدن وبين ما تقدمه الأرياف، وقد كان وجود المزارعين الصغار المتوسطة الحال كالدرع الواقي للشعب ضد مشاكله الاجتماعية التي يواجهها. باعتبار أن نشاط المزارعين ضمن مجالات الاقتصاد المقفل يجعل نشاطهم يسير جنباً إلي جنب مع باقي النشاطات الاقتصادية وبذلك يؤمن التوازن المطلوب بين حاجات السكان وحالة الإنتاج.

لكن سياسة التوسع لا يمكن أن تستهدف بلاداً بعيدة كالكاميرون مثلاً، وعلينا أن نعتنق النظرية القائلة أن الله لا يمكن أن يقضي بأن يحصل شعب على خمسين ضعف ما لشعب آخر من الأرض وإنه إذ كانت الأرض قادرة على أكفاء الجميع، فليس من العدالة بشيء أن يفصل بيننا وبين الحصول على المدى الحيوي لنمونا وبقاءنا. لذلك يجب على كل فرد أن يكافح ليؤمن ما يكفل له البقاء، وإن لم يتمكن بالمسألة واللين فعليه بالقوة. ولو أن أجدادنا استسلموا وتخاذلوا، كما هي عقلية جيلنا اليوم، لما كان لنا أراضي وطننا الألماني، ولولا نضالهم لما قامت للرايخ أية قائمة.

وهناك اعتبار آخر يجعل من التوسع طريقة مثلى وهو أنه تشغل بعض الدول الأوروبية مساحة صغيرة جداً بينما تشغل ممتلكاتها خارج القارة مساحات شاسعة فتكون قمة هذه الدولة في أوروبا وقواعدها تمتد إلي

جميع أنحاء العالم، كالشكل الهندسي للهرم، وهذا عكس ما هو في الولايات المتحدة الأمريكية فقاعدتها على أرضها لا يوجد ارتباط بينها وبين العالم الخارجي إلا بواسطة القمة، وهذا مما يجعل البلاد مركزاً داخلياً منيعاً بينما بسبب العكس ضعفت معظم الدول الاستعمارية في القارة الأوروبية.

أما بالنسبة لألمانيا فالطريقة المثالية التي لا يمكنها إتباعها تقوم على إحراز مدى حيوي لها في القارة الأوروبية بالذات، لأن المستعمرات لا تصلح هدفاً للتوسع ما لم تكن قادرة على استيعاب أكبر عدد ممكن من السكان الأوروبيين، علماً أنه ليس بالإمكان الاستيلاء على مستعمرات تحوى هذه الميزة إلا بواسطة الحروب، التي يمكن خوضها في أوروبا عوضاً عن المجازفة خارجها.

ومتى تقبل شعبنا فكرة الحرب علي أن يكرس لها جهوده. ولا يمكن بإنصاف التدابير والتردد القيام بمهمة تفرض على كل منا أقصي ما يمكن من الجهد والحزم. ولابد من جعل سياسة الرايخ منسجمة مع هذا الهدف، لذلك يجب إعادة النظر في جميع المحالفات المعهودة وقيمة كل منها. ولا يغرين عن بالنا ان توسع المانيا في أوروبا يجب أن يتم على حساب روسيا.

إن انكلترا هي التي كان على ألمانيا أن تحالفها قبل الشروع في نهجها التوسعي. فبعد أن تضمن سلامة مؤخرتها كان بإمكان ألمانيا شن الحملة الصليبية الجرمانية الجديدة، إذ أن حقنا في حملتنا الصليبية واضح كما كان واضحاً حق أجدادنا.

كان على ألمانيا أن تكسب ود انكلترا مهما كلف ذلك من تضحيات فمثلاً كان علينا أن نكف عن المطالبة بمستعمرات، وأن نتخلى عن فكرة جعل ألمانيا أكبر دولة بحرية، وإن نكف عن مزاحمة بريطانيا في ميدان

الصناعة. وبدلاً من ذلك يمكننا تعزيز قوة جيشنا البرية، ولو ترتب على هذا النهج الإقلال من طموحنا مؤقتاً، مقابل ضمان المستقبل المزدهر لشعبنا الألماني العزيز.

إن حاجة ألمانيا التي كانت تواجه ازدياداً في عدد السكان، لم يكن خافياً على انكلترا، فلقد كان على ألمانيا أن تستفيد من هذه المعرفة وتمديدها إلي انكلترا التي كانت ترغب في التقرب منا. ولكن ساستنا لم يقدموا على هذه الخطوة، مع أن كل محالفة تقوم وتضمن مصلحة الطرفين المشتركين.

لو اعتمدت ألمانيا في ذلك الوقت النهج السياسي الذي اعتمدته اليابان عام 1904، لو فعلت ذلك لما كانت الحرب العالمية، ولما منينا بتلك الهزيمة المنكرة الشنعاء.

ومهما يكن، فتحالف ألمانيا والنمسا كان سخيفاً. فقد كانت هذه الدراسة حريصة على التحالف معنا ليتيح لساستها فرصة المضي في إبادة العنصر الجرماني. ولو كان ساستنا أبعد إدراكاً لعلموا أن قيمة التحالف النمساوي الألماني يكمن في استمرار نفوذ العنصر الجرماني في النمسا، ومتى زال هذا النفوذ أو ضعف لمصلحة السلاف، زالت بالتالي قيمة التحالف.

لقد كانوا في برلين يخافون النضال، ولما فرضت عليهم الحرب كانت الظروف غير مناسبة. وقد حاولوا تفادي المقدر، وحملوا بسلم دائم ولكنهم استيقظوا على أصوات المدافع....

أن التعلق بالسلام بهذا الشكل أقعد الساسة الألمان عن الأخذ بفكرة التوسع في أوروبا. فقد كانوا يعملون أن هناك أراضٍ يمكن الاستيلاء عليها

في الشرق، وإنهم بحاجة ماسة إليها، ولكنهم أحجموا عن ذلك لأنهم يريدون السلام بأي ثمن ، بدلاً من أن يضعوا نصب عيونهم توفير أسباب البقاء ومقوماته للشعب الألماني بأي ثمنٍ وكانت النتيجة حرب 1914 – 1918 .

ولم يبق إلا سلوك نهج السياسة الاستعمارية والتجارية.

إن طريقة الاستعمار تستلزم وقتاً طويلاً، فالاستعمار ليس بالقفزة الفورية، إنه دفعة تدريجية عميقة ولكنها مستمرة. فعندما سلكت ألمانيا هذا السبيل كان عليها أن تدرك أن هذه السياسة ستقودهم في النهاية إلي الحرب التي أرادوا تجنبها، مع أنهم كانوا يؤكدون نياتهم السامية.

وقد أدي هذا السلوك المتناقض إلي توتر العلاقات مع انكلترا التي وقفت ضدنا في جميع الميادين. وقد سهي عن بال زعمائنا أن التوسع في أوروبا يفرض التحالف مع انكلترا ضد روسيا، فالتوسع خارج أوروبا يفرض محاربة روسيا ضد انكلترا. وفي هذه الحالة لابد من تبديل المحالفات وذلك بالتخلي عن النمسا. ولكن برلين لم تفكر بالتحالف مع روسيا، ضد انكلترا ولا العكس بالعكس، لاعتقادها أن هذا سيؤدي إلي الحرب، ولتلافي النزاعات المسلحة لجأت إلي سياسة الإنتاج كطريقة مثلى لاستعمار العالم بطريقة سامية.

لقد كان باعتقاد ساستنا أن استعمار العالم اقتصادياً وسياسيا سيضع حداً لسياسة العنف، وما أن شعروا بعداء انكلترا الصريح حتى قرروا بناء أسطول لم يكن الغرض منه الهجوم على انكلترا وسحقها، بل كان الغرض منه الدفاع عن "السلم العالمي، وقد حرصت ألمانيا على أن يكون هذا الأسطول متواضعاً من حيث السلاح، وبذلك تؤكد رغبتها في السلام والمحافظة عليه.

كانت سياسة الفتح الاقتصادي السامي سياسة سخيفة لا تليق بدول عظمى. فقد بلغ الهوس ببعض المعتصمين لهذه السياسة حداً جعلهم يزعمون أن انكلترا سبقت ألمانيا في هذا الميدان وأصابت نجاحاً باهراً. حقاً إن بعض الناس يقرؤون التاريخ ولا يعرفون منه شيئاً.

ويواصل هتلر حديثه قائلاً:

لم تنشئ الإمبراطورية البريطانية بالاستعمار السامي، الوحشية التي اعتمدها الإنكليز كانت مضرب الأمثال. إن السر في السياسة الإنكليزية هو في استخدام القوة السياسية لتحقيق الفتوحات الاقتصادية، كما أنها تعرف كيف تحول نجاحها الاقتصادي إلى قوة سياسية. وإنه لمن السخف أن نعتقد أن انكلترا كانت لا تهرق دماء أبناءها في سبيل التوسع الاقتصادي. فقد كانت انكلترا تستخدم المرتزقة لكسب الحروب وبذل الدماء، ولكنها في نفس الوقت كانت تجود بدم أبناءها في الحالات التي لم يكن فيها بدا من التضحية بهم.

ولكنها في ألمانيا، كما نعتقد أن الرجل الإنكليزي رجل أعمال وتجارة، واسع الحيلة، بليد وجبان. ولم يخطر في بالنا أن إمبراطورية واسعة كالإمبراطورية البريطانية لا يمكن أن تكسب بالخداع واللين. أما الألمان القلائل الذين وقفوا ليحذروا مواطنيهم من قوة الانكليز كشعب مقاتل، فقد اعتبروهم انهزاميين ولم يأخذوا برأيهم.

ما زلت أذكر الدهشة التي كانت تستحوذ على رفاقي في جبهة الفلاندر، عندما جابهنا الانكليز في إحدى الملاحم القاسية، فقد أدركنا جميعاً أن هؤلاء الاسكتلنديين محاربون أقوياء. وإن الصحف والبلاغات كانت تخدعنا حين صورتهم لنا بصورة الجبناء.

إن تسرع ألمانيا بالتحالف مع النمسا قد قعد بها عن التوسع في أوروبا معتمدة علي صداقتها مع روسيا. وإن الاعتماد على دولة مهترئه مفككة كالنمسا للإقدام على التوسع هو ضرب من الجنون.

فقد كان اندلاع الحرب العالمية بسبب النمسا، من حسن حظ ألمانيا. فقد حالت الحرب بين آل هابسبورغ وبين التهرب من التزاماتها تجاه المحالفة المعقودة ولو كان الأمر على عكس ذلك لما عتمت فينا أن وجدت وسيلة لتتهرب من التزاماتها وتقف على الحياد. وما كان السلاف ليقبلوا بإرسال الجيش النمسوي ليحارب إكراماً لألمانيا التي تحمى العنصر الجرماني في النمسا.

لقد كان للنمسا أعداء كثيرون يطمعون باقتسامها، وبالتالي سيناصبوا ألمانيا العداء باعتبارها تقف حجر عثرة في سبيل مطامعهم. ومن أجل النمسا أبغض الإيطاليون. وقد كان بالإمكان التفاهم مع روسيا ما دام الألمان يريدون التوسع اقتصادياً، ولكن اليهود والماركسيين جعلوا الحرب محتمة، ولولا الحلف الثلاثي لما تمكن أعداء ألمانيا من حمل دول أوروبا الشرقية وروسيا وإيطاليا على خوض الحرب ضد ألمانيا، فقد كان أمل الطامعين هو اقتسام النمسا بعد تصفية حسابها. وزاد رغبتهم في دخول الحرب هو وجود تركيا في أعداد حلفاء ألمانيا باعتبار أن تركة السلطنة كانت مما يغزي ويسيل اللعاب.

إن الرساميل اليهودية كانت وراء هذه الإغراءات التي لوحت بها للطامعين، على أمل الوصول إلي هدفها وهو القضاء على ألمانيا التي لم تكن خاضعة للنفوذ اليهودي المالي والاقتصادي.

لنرجع إلي السياسة الاقتصادية لألمانيا خلال السنوات التي سبقت

نشوب الحرب. فقد كان النجاح إلي أصابته ألمانيا في ميادين التجارة باهراً لدرجة أن البعض ذهب في غروره للاعتقاد أن وجود الدولة مرهون باستمرار الازدهار الاقتصادي والتجاري، والدولة هي قبل كل شيء مؤسسة اقتصادية كبرى. عاماً أن استمرار الازدهار هو رهن بقيام دولة قوية تدعنه. إن الاقتصاد وسيلة من الوسائل الضرورية لتحقيق الفرض من وجود الدولة، ولكنه ليس سبب وجودها، فالدولة التي تحمل من الاقتصاد سبباً لوجودها لها ما لبقية الدول من مقومات البقاء.

إن في تاريخ ألمانيا أكثر من دليل على أن المستوى الاقتصادي لألمانيا كان ليرتفع بارتفاع وازدياد نفوذها السياسي في المجال الدولي.

إن العقل والإدارة والتضحية والمثل العليا هي القوى التي تنشي الدولة وتصونها. فالإنسان لا يقدم على التضحية بنفسه من أجل صفقة تجارية ولكنه يفعل من أجل فكرة أو مثل أعلى.

لقد حاربنا في الحرب العالمية من أجل لقمة الخبز، بينما حاربت انكلترا دفاعاً عن الحرية. وقد حاربت الانكليز حتى النهاية بقوة وإخلاص. أما نحن فقد استبسلنا في بداية الحرب ولم نلب ثان تخاذلنا وانهارت معنوياتنا حين عملنا أننا نحارب من أجل اللقمة.

إن الدولة تبقي وليدة غريزة حب البقاء، بقاء العرق، سواء كانت هذه الغريزة في ميدان البطولة أو ميدان الدسائس فإذا تجلت في الميدان الأول نشأت دولاً آرية يسودها العمل الجدي. أما إذا تجلت في الثاني فإنها تنشئ مستعمرات فضولية لليهود.

لقد أدركت خلال مشاهداتي في فينا وألمانيا نفسها أن الجمود المميت الذي سيطر علي أمتنا كان بسبب جرثومة الماركسية الرهيبة،

والسموم التي كان ينفشها اليهود أساتذة الماركسية وحمايتها.

وانكبت للمرة الثانية، على دراسة هذه العقيدة الهدامة على ضوء الإحداث السياسية الجديد. وقد اطلعت على المحاولات التي حاولها بعض الرجال العظام للحد من انتشار هذا الوباء العالمي الفتاك، وقد أعجبت بمحاولة بسمارك والتشريعات التي سنها والتي قطعت ذيل الأفمي ولكنها لم تقض على رأسها: فقد حارب بسمارك ضحايا الماركسية ولكنه لم يحارب الماركسيين بالذات. فقد حاول أن يقضي على الوباء بقتل المصاب وأغفل عن ناشر الجرثومة.

ومرة ثانية درست العلاقة بين الماركسية واليهودية، وتأكدت لي حقيقة اليهود ومراميهم في إشاعة الفوضى والخراب في العالم ليتمكن هذا الشعب المختار من استغلال الفوضى ويفرض مشيئته في كل مكان.

كنت انظر إلي ألمانيا حين كنت في فينا نظري إلي عملاق جبار، ولكن بعد انتقالي إلي ميونيخ تغيرت نظرتي وصرت أشك في مقدرة هذا العملاق على الصمود في وجه الأعاصير. وصرت انتقد سياسة ألمانيا الخارجية بشكل ظاهر وعلني وخاصة بما يتعلق بموقفها من خطر الماركسية الذي أخذ بالتفاقم. وقد أدهشني عدم الاكتراث من قبل المسئولين لهذا الخطر الهدام الذي يوجهه اليهود، ومما زاد في نقمتي أن فئة من المفكرين قاموا بحملة تخدير للحكام الذين شعروا بخطر الماركسية، زاعمين أن هذه العقيدة لن تعيش في ألمانيا لشعبنا لأن شعبنا قناعة طبيعية ضد هذا المرض الفتاك. وقد سها عن بالهم أن هذه العقلية المريضة قد أودت بحياة إمبراطورية ضخمة.

وأخذت على نفسي منذ عام 1913 مهمة تحذير الشعب من هذا

الخطر، وأوضحت أكثر من مرة أن مستقبل ألمانيا يتوقف عليه القضاء على الماركسية قبل انتشارها. وقد كان لهذا التحذير صداه المستحب عند المواطنين الذين هم الآن جنود الحركة القومية الاشتراكية.

وقد تأكد لي مع الأيام أن الأخطاء السياسية التي ارتكبها المسئولون الألمان منذ أواخر القرن الماضي حتى نشوب الحرب العالمية كان نتيجة الأخذ بنصائح عملاء الماركسية من يهود ومفكرين عديمي الإخلاص لوطنهم. فعندما أقامت ألمانيا اقتصادها على تلك الأسس الواهية كان اليهود أول المهللين لها، يقيناً منهم أن الاقتصاد الأعوج سيؤدي بألمانيا إلي الانهيار، فتقوم على أنقاضها الدولة التي يحامون بها. دولة تحكمها في الظاهر البروليتاريا وتخضع في نفس الوقت لسيطرة شرذمة من رجال المال اليهود.

وقد لاحظت في الصحف الاشتراكية الديمقراطية المقالات المسمومة والتي كان يحررها يهود جبناء يذبلون مقالاتهم المحشوة بالسموم بتواقيع مستعارة. وهذا لم يكن له وجود في النمسا.

الفصل الثاني

هل كان هتلر مخلوق الظروف والمصادفات؟

سؤال ردده المؤرخون وعلماء النفس والاجتماع وغيرهم.. هل كان ظهور هتلر علي مسرح الأحداث وليد كفاءته ونبوغه أم أن هتلر كان مخلوق الظروف والمصادفات.

كثيراً ما يكون النظر في حركة عالمية أو حرب عالمية، بمثابة المنظر في حياة رجل واحد هو الرجل الذي ابتعث تلك الحرب أو اقترنت باسمة تلك الحركة، كما هي الحال في اقتران اسم هتلر بالحرب العالمية الحاضرة.

وهنا الصعوبة الأولى!

فما هو المقياس الذي نرجع إليه في تقدير رجل من رجال الحوادث أو رجال التاريخ ؟

تختلف المقاييس هنا أشد اختلاف، ولكن ما من خلاق قط في أن المقياس الذي يعتمد عليه الذهن العامي أو يعتمد عليه جماهير الدهماء من الناس هو أبعد المقاييس قاطبة عن الصواب وعن الإنصاف.

لأنهم يعظمون الرجل بمقدار السيطرة التي في يديه، أو بمقدار الضجة التي يثيرها من حوله.

والخطأ ظاهر في كلا المقياسين.

إذ الوصول إلى السيطرة مما يتاح - في أيام القلاقل خاصة - لأناس

لا خطر لهم في سائر الأيام، وليست لهم قيمة إنسانية رفيعة إذا وزنوا بميزان الأخلاق والفضائل التي يعتز بها، "بنو الإنسان".

وقد وصل "باحي سقا" وهو ابن سقاء قاطع طريق إلى كرسي الإمارة في بلاد الأفغان، ووصل قاطع طريق آخر يجهل القراءة والكتابة إلى رئاسة الدولة في بلاد المكسيك وهو فرانسيسكو بانشو (1877 – 1923) الذي اشتهر باسم فيفافيلا وشغل العالم الجديد في أيامه عن كل بطل وكل كوكب من كواكب الشهرة السياسية أو الفنية.

وعلينا أن نذكر أن الكفاءة الضرورية للوصول إلى السيطرة لا تقاس بحجم الدولة التي يسيطر عليها الرجل؟ فالروسيا – مثلاً - عدتها وعدة البلاد الخاضعة لها زهاء مائة وثمانين مليونا من النفوس الآدمية، ولا يلزم مع هذا أن يكون ستالين أقدر من مصطفى كمال اتاتورك بضع عشرة مرة .... لأن الترك أقل عددا من الروس بهذا المقدار.

بل يتفق كثيراً أن يكون الوصول إلى السيطرة في البلاد الصغيرة أصعب من الموصول إليها في الدول الضخام، كما يتفق كثيراً أن تكون قيادة الزورق الصغير أصعب من قيادة السفن "الراسيات في البحر كالأعلام".

ومتى وصل الرجل إلى السيطرة في دولة كبيرة فما أسهل ما يشغل العالم ويثير الضجيج ويملأ الأسماع! وما أعسر التغلب عليه وإجلاءه عن مقعد الحكم ومرجع التصريف والتدبير!

إن الذي يحاربه يومئذ ليحارب الدولة بأسرها، وإنه ليحتاج إلى ثورة جائحة لا تندفع إليها الشعوب في كل لحظة، ولا تجازف بها إلا في حالة القنوط. وربما بلغت الشعوب حد القنوط بعد أن يكون حاكمها المسيطر عليها قد فارق الحياة.

فلا ضخامة الحوادث إذن ولا ضخامة الدولة ولا اتساع مدى السلطان بالمقياس الصحيح لكفاءات الرجال.

وإنما المقياس الصحيح أن نفصل بين فعل الرجل وفعل الظروف التي لا فضل لة في خلقها ولا يد له في توجيهها، وأن ننقله من ظروفه لنعرف ما هو مستطيع أن يعمل وهو بعيد عنها.

أو المقياس الصحيح هو أن نقيس ظل الرجل بعد نزوله من رأس القمة التي هو واقف عليها: فلعله لموقف على الأرض ولم يقف على رأس تلك القمة لما ألقى من الظل بعض ما يلقيه سائر الناس.

وما نعرف أحداً من الحاكمين بأمرهم في عصرنا هذا قد أفادته "الظروف" مثلما أفادت أدولف هتلر زعيم النازيين على التخصيص.

فهو بحق مخلوق "الظروف" والمصادفات؛ لو انتقل من بيئته أو من زمانه أو من جيلة لما تخيلت له شأناً كهذا الشأن الذي انتهى إليه.

هتلر مخلوق الظروف والمصادفات

هناك شبه إجماع من المؤرخين والسياسين علي أن هتلر مخلوق الظروف والمصادفات فلو رجعنا إلى موازين الدهماء لما كان مصطفى كمال اتاتورك شيئاً إلى جانب أدولف هتلر، قياساً إلى الفارق العظيم بين ما يقدر عليه حاكم الألمان وما يقدر عليه حاكم الترك في مجال السياسة العالمية.

لكن الواقع أن القياس معكوس، وأننا نجحف أبلغ الأجحاف إذ نسوي بين الزعيم التركي والزعيم الألماني فضلاً عن ترجيح هذا على ذاك؛ لأننا في هذه الحالة نسوي بين من يعوم ضد التيار ومن يحمله التيار، وننسى أن مصطفى كمال اتاتورك نجح والدنيا كلها عقبات وسدود في وجهة. وأن أدولف هتلر نجح والطرق كلها مفتوحة بين يديه.

فما من طائفة ولا حادثة وقعت في ألمانيا خلال الجيل الماضي إلا أفادت هتلر على عمد أو على غير عمد.

وما من شيء كان عائقاً له إلا كان في الوقت نفسه عائقاً لألوف من ذوي الجاه والسلطان يسعون لرفعه عن الطريق، ويستفيد هو من سعيهم بغير مجهود.

كان الألمان جميعاً يطلبون تبديل الحال التي كانوا عليها بعد الحرب العظمى. وكانوا في ذلك فريقين: فريقاً يريد تبديل الحال للعود إلى ألمانيا القديمة، ألمانيا التي تسيطر على الدنيا وتتأهب للغارة الكبرى مرة أخرى، وهم أصحاب المصانع والقادة والضباط، ولا سيما الصغار

منهم الذين ضاعت وظائفهم بضياع الجيش الألماني كما ضاعت عليهم أحلام المجد والخيلاء.

وفريقاً يريد تبديل الحال لبناء الدولة الألمانية على أساس جديد، وهم الفقراء والأوساط والعمال، ودعاة الحرية وأعداء العهد القديم.

وكلا هذين الفريقين كان يضرب بمعوله في أساس النظام القائم، ويفتح من وراء كل ضربة يضربها ثغرة في السد الذي كان يصد النازيين ويحمي عليهم مدارج الصعود. كان المحافظون من الأغنياء خانقين: لأنهم فقدوا ما كان لهم من الجاه في الدولة القديمة، وأصبحوا على خطر من الشيوعية والاشتراكية وسائر المذاهب الحمراء.

وكان الأحرار من أوساط الناس خانقين؛ لأن هبوط أسعار النقد ضيع ما ادخروه وضيع ما يكسبون من رزق ضئيل.

وكان العمال حانقين لأنهم لا يجدون عملاً وقد بلغ عاطلوهم في بعض السنوات سبعة ملايين. وكان المظنون - أو كان الواجب - أن يحارب الشيوعيون هتلر وأشياعه كما يحاربون ألد الخصوم. غير أنهم جروا على حماقتهم المعهودة في إيثار الديمقراطيين والاشتراكيين المعتدلين بالعداء قبل كل عداء؛ لأنهم يخشون من دعوتهم أن تنزع منهم جميع أنصارهم. ولا يخشون - كما اعتقدوا في ذلك الحين - أن يهجرهم أنصارهم ليلحقوا بالنازيين والمتشددين من أحزاب اليمين.

واتفق من غرائب المصادفات في الوقت الذي ظهر فيه هتلر أن رجحت كفة ستالين في الروسيا على كفة تروتسكي المبشر بتعميم الدعوة الحمراء في أنحاء العالم، فقررت حكومة "السوفييت" أن تنفض يدها من الشيوعيين في البلاد الخارجية فلا تمدهم بالمال والمعونة

ولا تساعدهم بالدسائس ونشر الدعوة، فما هي إلا أسابيع معدودات حتى نفدت أموال الشيوعيين الألمان، وعجزة صناديقهم عن إطعام العمال العاطلين، وعن بذل، الأجور والمرتبات للموكلين بشئون الحزب والداعين إلى نشر مبادئه حيث يقدرون لها الرواج والإقناع. فتحولوا ألوفاً ألوفاً إلى معسكرات النازيين، إلى المعسكرات التي كان ملوك الصناعة في تلك الآونة يترعون صناديقها بالإتاوات والإمداد، ويهيئون لها شراء المعدات والأجساد بالأطعمة والأزواد!

وأعجب من هذا أن تجيء المعونة بعد المعونة لهتلر وأشياعه من موظفي الدواوين وهم أيدي الحكومة وعيونها، والمفروض فيهم أنهم أنصارها وأعوانها على أعدائها. ولكنهم كانوا - إلا قليلاً - جنود العهد القديم وتلاميذ الاستبداد، فبذلوا لهتلر وأشياعه قصارى ما استطاعوا أن يبذلوا، وما هو بقليل.

فلما قضي القضاء على هتلر بالسجن خمس سنوات عام (1923) لأنه شهر السلاح في وجه الدولة وأقدم على العصيان، لم تمض عليه تسعة شهور في السجن حتى عُفي عنه خلافاً لأحكام القانون التي تحرم العفو عن كل مجرم عائد سُومح قبل ذلك في العقوبة ولم يتب عن مقارنة الإجرام، وكان هتلر قد حوكم وحكم عليه قبل ذلك بالحبس ثلاثة "أشهر موقوفة التنفيذ" فلم تحل هذه السابقة دون العفو عنه مرة أخرى بعد شهور قضاها فيما يشبه معيشة القصور، بل لم يقبل المحلفون توقيع الحكم إلا بعد أن أكد لهم رئيس المحكمة أن العفو صادر لا محالة، فلا ضرورة لإظهار القضاء بمظهر المخالف لنص القانون الصريح.

ولما تبين أن "الجنسية الألمانية" لا تشمله لأنه رعية الحكومة

النمسوية، احتالت وزارة برنسويك على الأمر بتعيينه في وظيفة "شرفية" تسمى وظيفة الاستشارة في تلك الحكومة ليصبح ألماني الجنس بحكم التوظيف؛ وفاقاً لدستور فيمار الذي يشمل الجنسية الألمانية كل أجنبي يشغل وظيفة في حكومات الولايات، أو حكومة الريخ الكبرى.

وبيدو من هذا وأشباهه مبلغ الإغضاء والإملاء الذي حف بهتلر وأشياعه وهم ينشرون دعوتهم ويهددون خصومهم ويستكثرون من أذنأبهم، آمنين مطمئنين لا يجازفون ولا ييئسون من المعونة عند الحاجة إليها : لأن دستور فيمار قد ألغى جكم الإعدام فلا خوف منه، ثم لا خوف من السجن الذي يعقبه العفو بعد قليل.

ثم أتمت الدسائس في حاشية المارشال (مند نبرج) ما بدأته الحوادث والأزمات، فانتقلت بهتلر من شغب الطريق إلى ديوان الاستشارة.

وكان المارشال الكبير قد وهن واستسلم، وثقلة عليه وطأة السنين، فأصبح أرجوحة تتردد بين رجلين من دهاه زمانه: أحدهما أمين سره القديم الجنرال (فون شليخر) ألذي قيل فيه إنه أحق بقيادة البحر "لبراعته في إرسال القذائف تحت الماء"، وثانيهما (فون باين) الذي كان يساكن الرئيس هندبرج في قصر واحد، وقيل فيه إن قدرته على خداع المحترسين منه العارفين بخداعه أكبر من قدرته على خداع الواثقين به المطمئنين إليه!

كلا الرجلين كان يريد أن يضرب منافسة ويقضى على نفوذه وأن يستخدم النازيين في مأربه؛ لأنه لم يكن يستطيع أن يستخدم الديمقراطيين والاشتراكيين وسائر أحزاب الوسط والشمال.

وكلاهما كان يريد السوء بالنازيين ويضمر لهم الغدر وأن يشطرهم شطرين بعد ارتقائهم مناصب الأحكام، ثم يضرب أحدهما بصاحبه متى

سنحت له سانحة قريبة، وكثيراً ما كانت تسنح في تلك الأيام.

لكنهما كانا مختلفين في الأسلوب وإن اتفقا في نية الغدر والوقيعة، فكان فون شليخر ينوي أن يرشح نفسه للاستشارة ويندب زعيماً من كبار زعماء النازيين لوكالة الاستشارة، ثم يتقدم إلى الريشستاج فيقسم النازيين عاجلاً أو آجلاً بين هتلر وبين الزعيم النازي الآخر الذي وقع الاختيار عليه وهو جريجور شتراسر منشئ حزب النازي في ألمانيا الشمالية)؛ فينحل الريشستاج ويعاد الانتخاب ويخرج النازيون فريقين ضعيفين يزيدهما هو ضعفاً بسلطان الحكومة الذي يقبض عليه بكلتا يديه، وهو مستشار الدولة.

وكان فون باين يريد أن يكرر ما حدث في إنجلترا من ترشيح المستر رمزي ماكدونالد لرئاسة الوزارة؛ رجاء أن يضعف حزب النازي كما ضعف حزب العمال في البلاد الإنجليزية، فاقترح على المارشال الهرم أن يدعو هتلر إلى تأليف الوزارة مع اثنين أو ثلاثة من أنصاره الذين يرضاهم المارشال، وقنع هو بوكالة الاستشارة معتقداً أنه يملك زمام الأمور بسيطرته على المارشال وتألبه مع سائر الوزراء.

ولما طال التنافس بين الخصمين فكر فون شليخر في الانتقاض وائتمر بالمارشال مع بعض القواد العسكريين وبعض رؤساء العمال الساخطين على النازيين وأحزاب اليمين. فاتفقوا على تدبير إضراب عام يجتمع فيه العمال وحامية بوتسدام ويزحفون عل برلين فيتخذون من ذلك ذريعة للحجر على الرئيس الشيخ وإعلان "حالة الطوارئ" والقبض على دفة الحكومة باسم الضرورة القصوى التي تقتضيها المصلحة الوطنية.

ونمى الخبر إلى فون باين الساهر على حركات خصمه، فأبلغه إلى المارشال وأقنعة بوجوب الإسراع إلى (هتلر) وإقامته على رأس الوزارة، ولم ينس خطته الأولى التي أراد بها أن يحتفظ بأعنة الأمور في يديه، فأشترط أن تكون له وكالة الاستشارة وأن يكتفي في مجلس الوزراء بعضوين اثنين من النازيين، وهما الدكتور ولهلم فريك والكابتن هرمان جورنج. وقد كان له ما أراد! إلا أن الحوادث قد خالفت ما قصد من تدبيره، فجرت الانتخابات الجديدة بإشراف المستشار هتلر على الطريقة النازية المعهودة، وصدرت المراسيم بحل جماعات الشيوعيين، واشتد المرض بالمارشال الهرم فأصبح لا يعي ما يقول ولا ما يقال بلسانه، ثم مات وتبوأ هتلر مكانة باسم زعيم الأمة ومستشار الدولة، وأفلتت الأعنة من يدي فون باين فانقاد لسائقيه. على أن الدسائس، من شليخر أو باين، لم تكن هي جماع البواعث التي أكرهت هندنبرج على قبول هتلر في رئاسة الوزارة، وعلى إبقائه فيها بعد ذلك إلى أن كان منه ما كان! فقد أكرهه على قبوله باعثان آخران، قد يصح أن يُقال إنهما باعثان شخصيان. أهم هذين الباعثين أن هندنبرج كان يحذر المغالين من المحافظين أحزاب اليمين؛ لأنه كان يعلم أنهم يكيدون للنظام القائم ويسعون إلى إعادة الملك سيرته الأول في سلالة هوهنزلرن، وكان هندنبرج - على نفوره الفطري من هدم نظام يقوم هو على رأسه - لا يحب في تلك الآونة أن يواجه العالم بالتحدي والمناجزة وما يتبعهما لا محالة من تضافر الدول على ألمانيا وذهاب كل أمل في تخفيف قيودها وإحسان الظن بمقاصدها. فإذا لم يكن بت من الخيار بين الملكيين أو الشيوعيين أو النازيين الذين لا يرحبون برجعة آل هوهنزلرن: فهؤلاء

النازيون أولى بالتجربة: ولا سيمة إذا تكفل بكبحهم زملاؤهم في الوزارة من أصدقاء الظاهر أعداء السريرة.

والباعث الثاني هو فضيحة المضياع الشرقية كما كانوا يسمونها في تلك الأيام، وخلاصتها أن الحكومة خسرت أموالاً كثيرة من خزانة الدولة بذلت جزافا لأناس من أصحاب الضياع الواسعة في بروسيا الشرقية معظمهم أصدقاء أو أقرباء أو جيران للرئيس، وتهامس بعض النواب بهذه الفضيحة ثم لغطوا بها وطلبوا التحقيق فيها، وثارت التواثر حولها لوفرة المفلوكين والمتطلعين إلى قليل المال يحرمونه وهم يسمون بالحكومة تكيله جزافاً لكبار الزراع وأصحاب الضِّياع.

فغضب الرئيس على شليخر لأنه لم يفلح في إسكات تلك الأصوات ومداواة تلك الفضيحة، وبدا له أن الحكم على طريقة التازيين بالقمع والإرهاب وقطع الألسنة وكمَّ الأفواه خليق أن يريحه من لغط اللاغطين، وزعم مَنْ زعموا أنه قد أخذ لنفسه بعض ما قيل إنه أعطاه الجيران والأصدقاء، وهو زعم ظالم تكرر على ألسنة الشيوعيين ولم يثبت قط بالقول الوثيق.

ويرى بعض المطلعين أن هندنبرج ما كان ليطلق أيدي النازيين في قمع الشيوعيين وحل أحزاب المعارضين لولا انزعاجه الدائم من فضيحة بروسيا الشرقية وأقاويل أحزاب الشمال.

فهذا وذاك وغير هذا وذاك من دسائس الحاشية وطوارئ الزمن، قد مهدت كلها الطريق لهتلر ووضعت السلم تحت قدمية حيث يريد وحيث لا يريد.

فإذا قلنا إن زعيما كمصطفى كمال أتاتورك قد هجم على التيار اللجِّي فشقه بالعزيمة التي تروضه والأيد الذي لا يباليه، فماذا صنع أدولف هتلر في تياره!

تيار ليس فيه عوامة النجاة، ولم يدفع موجة واحدة من أمواجه، بل ذهب مع الملاح إلى مدى وثبت من الساحل، ثم وثب إلى الساحل في أمان.

أفكاره وأفكار غيره

وكما حملت الحوادث هتلر إلى ذروة الحكم حملته كذلك الأفكار السياسية التي نشأت في قومه على عهده وقبل عهده بجيل أو جيلين؛ فلم يبتكر قط فكرة واحدة من تلك الأفكار التي شاعت بين الشعوب الجرمانية وكان لها شأن في توجيه هذه الشعوب وجهتها الأخيرة، ولم ترجع إليه صيغة واحدة من الصيغ التي دارت على الألسنة وكان لها شأن في إذكاء النخوة القومية وإقناع السواد. وما أسهل ما يقنع "عقل" السواد؟! إنه ليبحث عمَّن يقنعه، بل يبحث عمن يخدعه، ولا يهرب إلا ممَّن يفتحون عينية ويرشدونه إلى الحق الصراح.

فالجامعة الجرمانية التي تغنى بها هتلر قد ظهرت في موطنه خاصة وقبل مولده بنحو ثمانين سنة، ودعا إليها الفيلسوفان هردر وفيخته أوائل القرن التاسع عشر، فأطنبا ما أطنبا في مزايا الجنس الجرماني وفضلة على سائر الأجناس البشرية، وأنة هو دون غيره شعب الله المختار المهيأ بالفطرة لمناجاة الأرباب ومكاشفة الأسرار، وأن لغته دون غيرها هي لغة الحكمة والفلسفة والعلم بحقائق الأشياء، وأن حكومته دون غيرها هي الحكومة التي قدرتها عناية الله لقيادة الأمم قهراً أو بالإرشاد والإغراء، وما من كلمة تغنى بها هتلر في هذا المعنى إلا ومرجعها إلى محاضرات فيخته الأربع عشرة التي ألقاها (سنة 1807) ووضع بها - من الوجهة الفلسفية - أساس تلك الدعوى التي يدعيها الجرمان.

ثم ظهرت دعوة هر كلاس قبل الحرب الماضية وتجاوبت أصداؤها في صميم البلد الذي نشأ فيه هتلر ونعني به لنز من الأقاليم النمسوية.

واقترنت بهذه الدعوة دعوة مشابهة عُرفت باسم أوروبا الوسطى تارة وباسم الزحف على الشرق تارة أخرى وشرحت شرحاً وافياً في كتاب فردريش نومان الذي كان يزعم كما زعم هتلر من بعده أن التهام أوروبا الوسطى قد يتأتى بمجرد الإرهاب والاستعداد من غير حاجة إلى قتال.

أما قداسة الجنس الآري فقد بشر بها الكونت دي جوبينو الفرنسي في كتابة تفاوت الأجناس البشرية عند منتصف القرن التاسع عشر قبل أن يولد هتلر بنحو أربعين سنة، وتبعه الإنجليزي هو ستون ستيوارت شمبرلين الذي تجرمن وألف كتابة (أساس القرن التاسع عشر) مشيداً فيه بالعبقرية الجرمانية راداً فيه كل حضارة وكل عظمة إنسانية إلي ذلك الينبوع الذي لا ينبوع غيره - في رأيه - للحضارات والعبقريات.

والحركة النازية نفسها بجملتها وتفصيلها ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر على يد رجل يشبه هتلر من وجوه كثيرة وهو Vater Jahn الخطيب المتهوس الذي نظم في ألمانيا فرق القمصان الرمادية والأندية الرياضية، وبلغ من جنونه أنه أشار بإقامة السدود بين ألمانيا وفرنسا، وبغرس الآجام التي تملأها الضياغم والسباع على حدود الأمتين صيانة للدم الجرماني الطهور من التلوث بأوشاب الأمم الأجنبية! وكانت الدعوة "التيوتونية" على لسانه تقابل الدعوة الآرية على لسان هتلر، فكان يوصي أتباعه الشبان أن يتجسسوا على آبائهم في البيوت وزملائهم في المدارس ليردعوهم بالبطش والقسوة إذا خالفوهم في دين العصبية الجنسية وطالما صاح كما يصيح النازيون اليوم أن الشرف هو السلاح

وأن من لا سلاح له فلا شرف له Wehrlos ehrlos، وأن العنف أساس الخلق والكرامة ومناط الحكم والسياسة.

وعلى جهل هذا الرجل وفراغ عقلة لم تتورع جامعات المانيا أن تهدي إليه ألقاب الشرف العلمية والفلسفية، ولم يتورع الأدباء والشعراء أن يهدوا إليه الدواوين والمصنفات: تمجيداً له واعترافاً بسداد آرائه! مما يدل على خليقة مستقرة في دخيلة النفس الجرمانية أن تهتز لأمثال هذه الصيحة، وأن تلبي أمثال هذه الدعوة، ولا سيمة بعد الهزائم والأزمات.

ويقول فيلسوفهم ترتيشكه Treitschke في تعليل ذلك: "إن هذه الحركة العامية ذات جذور متأصلة في قرارة الخليقة الجرمانية: فإن قومنا طالما حنُّوا إلى معيشة الفطرة الأول، فكلما جأش في عروقهم الدم تبيغت نفوسهم بدفعة العنف الطاغية!"

كذلك عداوة اليهود لم يكن هتلر أول دعاتها والنافخين في نارها، بل كانت مذابح اليهود في أوروبا الوسطى وأوربا الشرقية أقدم من مولده بمئات السنين، وكثيراً ما اقترنت تلك المذابح بأياد الضنك والمجاعة وشح الأموال: لأنها أيام تثور فيها الحفائظ ويضطرب فيها الحكم وتؤمن عواقب العبث والاغتيال.

كذلك الصليب المعقوف "شارة النازية" لم يخترعه هتلر بل اقتبسه من الجنود الألمان الذين عادوا به "من فنلندة" بعد أن حاربوا فيها الجيش الأحمر، ولم يتغير منه إلا لونه الأزرق فقد سوَّده النازيون.

على أن حركة القمصان في ألمانيا الحديثة إن هي إلا نسخة مستعارة من حركة القمصان في إيطاليا الحديثة بإشاراتها وشاراتها، مع فارق واحد في تحيتها، وهو أن السلام الروماني في روما معقول. أما في

جرمانياً فهو حركة يد بغير مدلول.

ولم تكن الفلسفة النازية من مبتكرات العصر الحديث ولا سيما في حملتها على الديمقراطية ووصفها الحاكم الجدير بأمانة الولاية، وإنما هي حكاية أو محاكاة للحكم التيموقراطي الذي ذكره أفلاطون وقال إنه نظام يسند الدولة إلى من لهم عزم وحماسة ولا يسندها إلى ذوي الرأي أو ذوي السيادة وإنه يقوم على "الإرادة" ولا يقوم على الرغد الذي تتوخاه الحكومات الشعب أو على الرشاد الذي تتوخاه حكومات العليا والسروات.

وصفة الرجل "التيموقراطي" كما لخصها أفلاطون: "أن يكون غليظاً في معاملة العبيد خلافاً للرجل المهذب الذي يترَّفع عن هذا الخلق، وأن يخضع للسلطة ويحث القوة والمجادة، وألا يتذَّرع إلى طلب الحكم بالفصاحة وما إليها، بل يطلبه لأنه مقاتل تفوَّق في أعمال الفروسية وإجالة السلاح، وهو كذلك محب للرياضة والطراد".

وأعجب مما تقدم أن هتلر لم ينشئ الحزب الذي أصبح رئيساً له بعد ذلك، بل أنشأه دركسلر Drexler وبضعة من رفاقه، وأنة لم ينشئ فرقة واحدة من فرق الجيوش الأهلية التي راجت بعد الحرب الماضية لأحزاب اليمين وأحزاب اليسار، كفرقة القمصان البنية أو فرقة الحرس السوداء أو غيرهما من جيوش اليمين، بل أنشأهما إرنست روهم Er-nest Roehem وفرانز سلدت Franz Deldte وبعض الضباط القدماء.

وكان اسم الحزب الذي رأسه هتلر حزب العمال الألمانيين، فندب من قبل الحكومة للتجسس عليه كما قال في كتابه، ثم اقترح على أثر انضمامه إليه أن يسمى الحزب الاشتراكي الثوري: محاكاة للاشتراكيين الثوريين في روسيا الحمراء؛ فنفر زملاؤه من هذه التسمية ووقع اختيارهم

بعد البحث والمشاورة على اسم "الوطنيين الاشتراكيين" ليتوسلوا باسم "الوطنيين" إلى اجتذاب أنصار اليمين، وباسم الاشتراكيين إلى اجتذاب أنصار الشمال، وليصبح الحزب بهذا التسمية قابلاً لاستغراق الألمان جميعاً في يوم من الأيام.

فمن أي وجه نظرت إلى الرجل لم يسعك أن تحسبه زعيماً لألمانيا لأنه خلاق حوادث أو خلاق أفكار، ولم يسعك أن تحسبه زعيماً لأنه أقدر من فيها وأشرف مَنْ فيها. وغاية ما يسعك أن تقوله على التحقيق إنه تقلد زعامتها لأنه أقدر من غيره لظروفها، وفرق عظيم بين الأقدر والأنسب: لأن المرء قد يناسب الظروف لنقص فيه كما يناسبها لخصلة من خصال الكمال والاقتدار.

هتلر لا يخطئ

أشاعت الدعاية النازية بعد احتلال وادي الرين والنمسا أن زعيمهم لا يخطئ ولا يتردد، فإذا حان الموعد المقدور فلا يستأخر ساعة ولا يستقدم، كل شيء في أوانٍ وكل شي ء بحساب.

فلننظر الآن ما هو ذلك الحساب: هل هو حساب عويص بعيد عن التقدير أو هو داخل في تقدير من يريد:

كل ما حسبة هتلر "أولا" أنه يستطيع أن يهزم النمسا وأمثالها إذا أراد فتح بلادها، و "ثانياً"، أن الدول الأوروبية الكبرى لا تقدم على حرب عالمية في كل لحظة. فهل هذه معضلة وهل هذا حساب؟

من البديهيات أن ثمانين مليوناً يهزمون سبعة ملايين، ومن البديهيات كذلك أن دول العالم لا تهجم على الحرب العالمية في كل ليلة ونهار.

فأين هو الحساب ؟ وأين هي السياسة؟

إنما الحساب الصحيح أن يمضي هتلر في سياسته دون أن يوقظ خصومه ودون أن يلجئهم إلى هزيمة الحرب التي ترددوا فيها.

أما أن يضرب النمسا في سنة 1938 وتقع الحرب في سنة 1939 فليس بشيء يعجز عقول الساسة المدبِّرين، وليس هو بسياسة، وإنما هو فعل سلاح.

فإن كان قد فعل ما فعل وهو يعتقد أن الحرب لن تكون، وأن الدول لن تُقدم عليها، فذلك نقيض الواقع، وذلك أفشل الحساب.

وما من وزير في الدنيا يدخل في تقديره أن يحارب وأن يتورط في الحرب العالمية وألا يبالي عواقب هذه الورطة ثم يعيبه أن يفعل كما فعل هتلر في النمسا وبوهيميا وغيرها.

وأفشل الحاسبين يستطيع أن يفعل كما فعل هتلر إذا كان كل حسابه أن يؤخر الحرب سنة واحدة، ثم تأتي لا محالة؟

من الذي يعجز عن مثل هذا النجاح ؟

من الذي يعجز بثمانين مليوناً أن يهزم سبعة ملايين!

كل المسألة إذن هي: هل يؤدي هذا الهجوم إلى الحرب أو لا يؤدي إليها؟

وها هو ذا قد أدى إلى الحرب عياناً لا من باب الظن والترجيح، فأين هو الإعجاز في التقدير والتدبير؟

هذا هو العجز بعينه في عمل السياسة، وهذا هو سوء الحساب وليس هو بإتقان الحساب.

ولننظر مرة أخرى في تقديرات هتلر وأصحابه قبل الحرب لنرى هل هي مثال السداد والإتقان، أو هي خطل ومجازفة من وجهة النظر النازية

فضلاً عن وجهات النظر الأخرى؟

فلماذا لم يضرب دانزيج بدلاً من ضرب التشك قبل مؤتمر ميونيخ؟

م يكن لبولونيا ضمان من دفاع فرنسا وبريطانيا العظمى في تلك الآونة، ولم تكن على استعداد للقتال وحدها كما ظهر بعد ذلك في الحرب الحاضرة.

فإذا ضرب دانزيج واتفقت الدول على خطة مثل خطة ميونيخ فإنه لقابض إذن على زمام بولونيا وبلاد التشك وجاراتها جميعاً في مرافق التجارة والصناعة والاقتصاد؛ فلا تقوى إحداهن على رد كلمة ولا على رفض اقتراح.

ثم لماذا لم يقبل ما اقترحه الرئيس روزفلت وارتضاه ساسة الحلفاء من عقد المؤتمر الدولي الذي يفصل في جمع مسائل الخلاف؟

ألا يجوز أن تختلف الدول في ذلك المؤتمر فيواجهها مختلفات بدلاً من مواجهتها متفقات؟ ألا يجوز أن ينتزع من أنصار التسليح في الدول الديمقراطية حجتهم الكبرى التي أقاموها على رفضه التحكيم، فلا سبيل إلى معاملته إذن بغير التسليح؟ ألا يجوز أن يعذره الرأي العام في الدنيا بأسرها إذا لجأ إلى الحرب لأنه قد أُكره عليها إكراهاً بعد أن جرب وسائل الإقناع فلم يبلغ بها ما أراد؟

كل أولئك كان جائزاً، وكان خيراً مما اختار.

وكل ما هنالك من اعتراض على هذا الرأي أن إطالة الزمن في المؤتمرات ربما مكّنت الدول الديمقراطية من زيادة الاستعداد.

فماذا صنع هو؟ هل منع ذلك الاستعداد؟ وهل استفاد شيئاً من المبادرة بالحرب قبل تمامه؟

كلا، بل خسر أشياء كثيرة: خسر الوقت الذي كان يزداد فيه استعداداً بالتموين والتخزين، وخسر الفرصة التي كان يوقع فيها الخلاف بين أنصار التسليح والدعاة إلى نزع السلاح، فلا يجمعون كما أجمعوا - من جراء خطته الهوجاء - على ضرورة التسليح جهد المستطاع، وخسر البلاد التي اضطر إلى تركها لروسيا في أوروبا الشرقية وشواطئ البحر البلطي، وقد كان طامعاً فيها لا مراء.

وربما قيل إنه لا يبالي عواقب ذلك لأنه على يقين من خراب لروسيا بعد موت ستالين، أو بعد الثورة الداخلية التي يتوقعها كثيرون.

فإن قيل هذا فقد كان أحرى أن ينتظر ذلك اليوم فيستريح من الحرب الحاضرة ومن سوء السمعة التي جلبها على نفسه بصداقة الشيوعيين.

الحق أننا لا نعرف في الحاكمين بأمرهم رجلا أفشل من هتلر في هجومه كل مرة كان خطأ واحد يدفعه من ورائه إلى أخطاء.

ولقد كان ذلك دأبه قبل ولاية الحكم وبعد ولاية الحكم، وظل دأبه حتى مماته.

فقبل الحكم أخطأ الحساب حين ظن أن الفرصة سانحة لقهر خصومة يوم عيد العمال (مايو 1923) فاختلس السلاح من مخازن جيش الهجوم ليضرب به العمال المتظاهرين، ثم عاد إلى تسليمه مذعناً لتهديد الضابط لوسو Lossow معترفاً معه بما في هذه الحماقة من العجلة والمجازفة.

وأخطأ الحساب من نوفمبر في تلك السنة حين ظن أن الفرصة سانحة لقلب الحكومة، فجمع جنوده وأزمع أن يقتحم ديوان الدولة بميونيخ، وهو يعلل نفسه بولاء الحراس الحكوميين ويعتقد أنهم من

يطلقوا النار على المقتحمين ... ثم خاب ظنه فكان أول الهاربين عند انطلاق النار، ولبث بعد هذه المجازفة الأخرى عشر سنوات يستعيد ما أضاع من ثقة ومن أنصار.

وأما بعد الحكم فقد يكون في تفاصيل عملة خطأ وصواب، لكن الأساس الذي قام عليه العمل كله خطأ لا شك فيه، وهو اعتماده هنا كما اعتمد في ميونيخ على أن خصومة لا يطلقون النار فقد ظن أنه يراوغ ويراوغ إلى غير انتهاء، وأن الدول الديمقراطية تقبل التخدير بعد التخدير إلى غير يقظة، فلم يصدق حسابة هنا ولا هناك.

لماذا اختاروه ؟

وقبل أن نسأل: لماذا اختأروه؟ ينبغي أن نسأل: مَنْ الذي اختاره؟ وما معنى اختيار هم إياه؟

هل معناه أن ثمانين مليوناً من الألمان اجتمعوا فجمعوا أعواد رجالهم فرداً فرداً فلم يجدوا بينهم أحدا أصلح من هتلر للزعامة الألمانية؟

هل معناه أن مؤسسي حزب النازي كانوا يملكون السيطرة على الأمة الألمانية بأسرها فيختارون من يشاءون ثم لا يقدر أحد على أن يرفض لهم أمراً ولا يسعه إلا أن يفرغ للزعامة التي ندبوه لها وهو يجهل مصيره ومصيرها؟

هل معناه أن مؤسسي حزب النازي أصحاب ميزان لا يختل ولا يخطئ في وزن الرجال، فمن اختارره للزعامة وجب أن يكون أفضل قومة بغير جدال؟

كلا بالبداهة! لا هذا ولا هذا ولا ذاك.

فليس معنى اختياره ان الأمة الألمانية اختارته، أو أن المؤسسين لحزب النازي فرضوا على تلك الأمة، أو أنهم وزنوا الرجال جميعاً فلم

يخطئوا الميزان. وإنما معناه الواقع أن خمسة أو ستة من المشتغلين بالسياسة نَظروا في متناول أيديهم فوجدوا هتلر موافقاً لهم وموافقاً للشروط التي يطلبونها.

ومتى عرفنا تلك الشروط عرفنا قيمة ذلك الاختيار، وعرفنا أن معظمها "سلبي" يستلزم النفي أكثر من استلزامه الإثبات، أو يستلزم في الزعيم المطلوب تجرُّداً من صفات معلومة، ثم يأتي بعد ذلك دور المزايا التي ينبغي أن يتحلى بها ويرجح بها على رفقائه:

فالشرط الأول: ألا يكون من طبقة النبلاء والأسرياء: لأن نوبة السخط على هذه الطبقة قد بلغت أشدها بعد الحرب العظمى، فهرب أمراء الولايات وقامت في الحكومة جمهرة من الصُّناع والمتوسطين، وأصبحت كل حركة سياسية يتولاها زعيم من النبلاء والأثرياء متهمة بالرجعة إلى القديم المكروه.

وظل هذا الشعور غالباً على نفوس الألمان زمناً طويلاً بين أحزاب الشمال وأحزاب اليمين على السواء، فكتب الكابتن روهم صديق هتلر يقول: "لا ارتداد إلى العهد البائد. لا رجعة. لا معونة لنا تنتظر من أصحاب السعادات الداثرين، وإنما رجال عمل من جميع الطبقات، وشبان قبل شيء ..."

وهتلر كان فقيراً من طبقة أبناء الموظفين الصغار، وكان في ذلك الحين لا يكاد يعدو الثلاثين، وكان من صف الجند فوق رتبة الجندي بقليل.

والشرط الثاني: أن يكون خالياً من الروابط الاجتماعية والأواصر البيتية التي تقيده بنزعه من النزعات، أو تحول بينة وبين التفرُّغ لحياة المظاهرات وخطب الأرصفة والميادين.

وهتلر لم يكن يخسر شيئاً بالتفرغ لهذه "الصناعة" التي هي خير من البطالة والفراغ، ولم يكن ينقطع عن واجب بيتي أو واجب أبوي أو بنوي، لغربته وجفاء أهله وعجزه عن الزواج، فهو يربح كثيراً من صناعة السياسة ولا ينقد الكثير ولا القليل.

والشرط الثالث: أن مكون موافقاً للبيئة البافارية وهي بيئة محافظة قريبة إلى أحزاب اليمين؛ لأن البافاريين تابعون للكنيسة الكاثوليكية ونفوذ الكنيسة بينهم عظيم. وبلادهم أصلح من غيرها لنشوء الحركات المعادية لأحزاب الشمال. ثم هى بعيدة عن عاصمة الدولة الكبرى التي فيها سلطانها وهيلها وهيلمانها، فلا يسهل تهديد النظام القائم في برلين كما يسهل في ميونيخ.

وهتلر كان كاثوليكياً في نشأته وإن لم يكن من المتعبدين، وكان مجنداً في جيش بافاريا ورائدا من رواد ميونيخ التي كانت تعد في حينها عاصمة المصورين والموسيقيين، وقد كان هتلر كما نعلم يتعاطى حرفة التصوير.

والشرط الرابع: أن يكون "مهاوداً" لزملائه أو لا يكون من أصحاب "الشخصيات المخيفة المهيبة المرهوبة" التي يخشون اجتياحها وطغيانها.

وقد كان هذا الشرط متوافراً كل التوافر في هتلر أيام نشأة الحركة النازية، فيجب أن ننسى هتلر الذي يصول الآن بقوة الدولة وقوة الزعامة الى لا منازع لها ولا نجاة لمن يعصيها، ثم نذكر هتلر الذي كان قبل عشرين سنة محتاجاً إلى كل شيء من مطالب المعيشة ومطالب السياسة، وكان مشهوراً بالدهان والملق لمن فوقه ولمن يملكون أسباب نجاحة.

وليس معنى هذا أن هتلر محروم من العزيمة والإرادة، فهو في الحقيقة

صاحب عزيمة وصاحب إرادة، ولكنها من نوع غير ذلك النوع الكاسر الذي يروع المناس لأول نظرة. ولعل عزيمته أشبه ما تكون بعزيمة المرأة الدءوب الملحاح التي تصل بالدأب والإلحاح والعناد إلى ما تريد، فهي لا تصدم من يراها أول مرة كما يصدمه المردة القهارون من أصحاب "الشخصية" الغالبة، لعل الناظر يلحظ عليها التردد والجنوح إلى اللف والمراوغة، فيحسبها طوع يديه حين تحزب الأمور.

وقد أشار هتلر نفسه إلى شهرته بالتردد حين وقف في الريشستاج على أثر مذبحة ووهم ورفقائه لتسويغ ما فعله، فقال إن المتآمرين قد غرهم به ما زعموه من "عجزه عن البت السريع عجزاً لا يشفيه إلا أن يضعوه أمام الأمر الواقع".

وهذا ظن العشراء به، وقد تسنم الذروة التي إستوي عليها. فكيف بما كان عليه أيام الابتداء أيام الشك والترقب والافتقار إلى الأعوان.

إن تاريخ الزعامات السياسية لمحافل بأمثال هؤلاء الذين يختارهم زملاؤهم لأنهم أسلم جانباً وآمن شراً وأطوع قيادة، ثم تتبدل الأحوال دفعة واحدة يوم يستقرون فينقلبون ذهاباً على من حسبوهم نعاجاً لا تفتك ولا تخيف.

تلك خلاصة الشروط "السلبية" التي كانت ترشح الرجل لزعامة النازيين، وهي الشروط التي تستلزم صفات مفقودة وقلما تستلزم صفات موجودة.

أما الشروط التي تدخل في باب "المزايا" الموجودة فهي الخطابة والحماسة والذكاء والاهتمام بالسياسة والإلمام بالمعارف العامة، وكانت موفورة في هتلر لأنه خطيب جهوري الصوت شديد الإيمان بالعصبية

الجرمانية عظيم اللدد في الخصومة الحزبية، ذكي اللب مُلم بمبادئ الأحزاب المختلفة منذ صباه ونشأته في النمسا التي كانت كأنها "برج بابل" من الدعوات السياسية، تتعالى فيه الصيحات بين المحافظين أنصار البلاط والأسر العريقة، وبين الأحرار طلاب الاستقلال في الأقطار المختلفة التي كانت خاضعة لآل هابسبرج، وبين أشياع الكنيسة ومعارضيها، وبين الاشتراكيين على اختلاف المذاهب والألوان، وبين أعداء الساميين وأعضاء المحافل الماسونية والأندية السرية، فكان حسب الرجل الذكي أن يفتح أذنيه ويفقه ما يسمع ليجتمع له من المعارف العامة والحجج المتقابلة والدعايات المتناقضة ما يكفي لسلوك الطريق في حركات الجماهير.

وكان اجتماع هذه الشروط مع الشروط الأولى من أندر الأشياء، ولا سيما في متناول النازيين وهم مبتدئون مستضعفون لم يبلغوا بعد مبلغ الهيمنة على عقول السنوات ولا مبلغ الزلفي عند العلية وذوي الجاه والمال، فلما التقى هتلر بالأفراد القلائل الذين كان يعرفهم وكانوا يعرفونه لم يكن عجباً أن يرحبوا باختياره واجتماع ما اجتمع فيه من شروط الزعامة الحزبية.

ولم يكبر الحزب قليلاً حتى شعر رجالة أن زعيمهم في حاجة إلى كثير من التشذيب و "التنجير" كما يقول العامة، فأشار زميلة فيدر Feder بتعيين مرافق له من الضباط العسكريين يدربه على تنظيم أوقاته وتقسيم ساعاته، ونصحه آخرون بالإقامة في برلين فترة من الزمن لإصلاح لهجته الريفية بالمعاشرة والتردد على معاهد فن الإلقاء، وتقدم شيئا فشيئا وتوكل به (شاخت) معلماً يلقنه أصول الاقتصاد وانتقى له الدكتور

(والتر فنك) الذي خلف (شاخت) في مركزه بعد وصول هتلر إلى رئاسة الدولة. واتخذت مسألة تحضيراً جانباً فكاهياً يشبه تحضير الممثل لدوره المرسوم ... ولم يكن هذا مجازاً أو استعارة بل كان وصفاً حرفياً لما تعهدوه به من التدريب والتهذيب؛ فقد كان معلمة الأكبر في بداية الحركة رجلاً مشغولاً بالإخراج المسرحي والرواية التمثيلية، وهو الكاتب الألمعي البراق ديتريش إكارت Dietrich Eckart الذي كان أسمة آخر كلمة خطها هتلر في كتابه "كفاحي" على سبيل التحية والتمجيد، والذي أشتهر بالنزعة الآرية وبغض اليهود وإتقان الهجاء اللاذع فيما يكتب وينظم. وقد نزداد علماً بمعنى اختيار هتلر للزعامة إذا علمنا الشروط التي كان إكارت ينشدها في زعيمة وهي: "ألا يكون ضابطاً لأن الناس أعرضوا عن الضباط، وأفضل من ذاك صانع في كسوة جندي صغير، وليس من اللازم أن يكون ذا رأس كبير: لأن السياسة أسخف شغل في الدنيا، وكل بائعة من نساء السوق في ميونيخ تعي مقدار ما وعاه السادة في فيمار، ولخير أن يكون الزعيم غبياً مزهواً يحسن الرد على الجماعة الحُمر (الشيوعيين) ولا يجري من كل رجل كرسي ترتفع لضربه ... وتمام الوصف المنشود أن يكون أعزب غير ذي أسرة فتجتذب إلينا النساء".

ويقول الذين عارضوا أسلوب هتلر في كتابة وفي خطبة بأسلوب (إكارت) هذا إن هتلر قد اقتبس منه عبارات بحروفها وكلمات نموذجية من ألفاظه التي طالما رددها في، صحيفته ورسالاته، وإنه اقتدى به في الكتابة والخطابة، واحتذى حذوه في الرأي والطريقة.

على أن الدكتور جورج شوت Dr Georg Schott أقدم المثقفين معرفة بهتلر يقول في وصفة "إنه نقيض رجل الدماغ. إنما هو رجل

القلب، رجل الدم، مذياع الأحلام".

وللدكتور (شوت) هذا كان هتلر يقول: "ليس كل منا نحن جميعاً إلا يوحنا صغير ... إنني أترقب المسيح".

وطالما قال هتلر للقائد "لودندرف" إنه لا يريد الرئاسة، وحسبة أن يصبح نافخ البوق ... لأنه أحس أن على القائد الكبير أن يتبوأ مكان هندنبرج، وأنة هو حسبة أن يتبوأ مقعد المستشار. وقد استقال هتلر فعلاً من زعامة النازي بعد سجنه، فأزمع أن يصوم في السجن صيام ماكسويني ليسلك نفسه مع الشهداء، ولولا أن الحركة نامت في حينها نومه طويلة ولم يدعُ الأمر إلى انتخاب رئيس آخر لكان من الجائز أن تنطوي صفحة هتلر وهو مسجون.

فزعامة هتلر على النازيين: معناها أنه وافق المطلوب في حدود الطاقة، وأنة لما استقر في الزعامة لم يسهل إجلاؤه عنها، ووجب أن يرأس الوزارة حين وجب أن يدعي حزيه إلى الديوان.

وما لنا بعد هذا وذاك لا نختصر مسألة الزعامية الألمانية كلها بكلمات ؟ لقد تأتى للمدعو "هاوسر" Hausser في إبان تلك الفترة أن يظفر بستين ألف صوت في انتخاب رئيس الجمهورية، وأن يطبع صحيفة تبيع مائة ألف نسخة، وأن يكون له أشياع ومريدون يعدون بالألوف.

ومن هاوسر؟

هو رجل لا تدري أمجنون هو أم عاقل: ودجال هو أم درويش؟ فقد كان يسمي نفسه المهدي المنتظر، ورئيس الولايات المتحدة الأوروبية، وينادي بأنه هو الحق وهو السبيل وهو الحياة.

ومن يدري ؟ فلعله لو اتفقت له مصادفات كمصادفات هتلر، وكان

للدراويش نصيب من السياسة العصرية لفاز بلقب الفوهرر وسبق هتلر إليه : لأنه هو أيضا كان يدعيه ويطلب من هتلر مبايعته، وكم في الأيام من مضحكات!

وليس حتماً من أجل هذا أن يُعد هتلر فرداً كسائر الأفراد.

وإنما الذي نقصده أن ننبه المدهوشين المستعظمين حين يسألون: أجندي لم يرتق الى صفوف الضباط يرتقي آخر المطاف إلى ذلك المكان الرفيع؟

إذ ليس لهذا الاستعظام موضع صحيح؟ لأن الرتبة الصغيرة لم تكن هي العقبة التي لحان عليه تذليلها، بل كانت هي المزية التي زللت أمامة جميع العقبات، وهي الصخرة التي قام عليها جميع ذلك البناء.

من الأوهام الشائعة أن ألمانيا لم تتجح في ضم السار والرين والنمسا وبلاد السوديت، ولم تحطم ما حطمت من قيود معاهدة فرساي، إلا بفضل القوة القاهرة التي أضفاها عليها هتلر في مدة حكمة.

وهذا خلاف الواقع المؤيد بالأسانيد.

فإن هتلر قد احتل وادي السار بعد الاستفتاء المتفق عليه ولما يمض على إعلانه التجنيد الإجباري غير ثلاثة أشهر، ولم يكن خط سيجفريد مبنياً في ذلك الحين.

ومصطفى كمال اتاتورك لم ينفق جزءا من ألف من الملايين التي أنفقها هتلر على التسليح، واستطاع مع ذلك أن يفتح الآستانة فتحاً ثانياً وفيها جيوش الحلفاء، وأن يعيد إليها الحصون التي منعت إقامتها بعد هزيمة الحزب العظمى، وأن يلغي الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التي سبقت ألمانيا الحديثة ونشأت من أيام سليمان الكبير.

ولما أغار هتلر على النمسا كانت غارته هذه تضارب السياسة الإيطالية والسياسة الروسية كما كانت تضارب السياسة الفرنسية والسياسة الإنجليزية، ولم تكن دولة واحدة في أوروبا الشرقية أو أوروبا الوسطى تستريح إلى وقوع النمسا في قبضة السيادة النازية، فهل يقول عاقل إن هتلر قد نجح في غارته بقوة تفوق هؤلاء جميعاً في ميدان القتال؟

كلا، ليست المسألة إذن مسألة القوة والاستعداد، ولم ينجح مصطفى كمال ولا هتلر فيما صنعاه لأنهما أقوى من الدول التي كانت تأبى ما صنعاه، وإنما سر المسألة كله صعوبة الإقدام في حرب عالمية سواء كان المقدم عليها من الحكام الدستوريين أو من الحكام المستبدين.

فالذي صنعة هتلر إذن هو أنه غير هذه الحالة بسياسته الخرقاء، وجهل الصعب سهلاً على الدول في مدى ثلاث سنوات ... وما ثلاث سنوات في تواريخ الأمم وحوادث الدنيا؟

فهتلر لم يكن قوياً يوم أحجمت الدول عن حرية، ولم يكن ضعيفاً يوم نفضت عنها الإحجام ولم تجد بين يديها مناضد من الإقدام، بل كان أضعف ما كان وهي محجمة عنة، وكان أقوى ما كان وهي مُقدمة عليه.

فليست القوة إذن هي التي أكرهت الدول على تركة وشأنه يفعل في السار والرين والنمسا والسرديت ما يريد.

وإنما كانت هناك حالة إغضاء فغيرها هتلر بحالة المقاومة والعداء. فإن كان هذا ما أراده فقد نجح.

لكنة يكون في هذه الحالة أخرق من عرفت الدنيا من ساسة الأقوام: لأن أحداً من الساسة الراشدين لا يعمل بيديه ولا يبذل كل ما يملك لتأليب أعدائه عليه، ولو كان على يقين من الظفر الأخير، فكيف والظفر

مجهول ؟ وكيف وهو بعد تحقيقه لا يضمن لصاحبه النجاح فضلاً عن دوام النجاح ؟

كلا ! ليست سياسة هتلر هي التي أتاحت له أن يفعل ما يشاء، بل سياسة هتلر هي التي جمعت الخصوم على منعه، وأقنعت الأمم - قويها وضعيفها - أن كل مسلك مع هذا الرجل غير المقاومة والمصادمة لا يفيد.

وليس بصحيح أن ألمانيا انتظرت مكتوفة اليدين حتى أراحها هتلر من أثقال المغارم والقيود التي فرضتها المعاهدات.

فقد أعلنت الحكومة الألمانية في سنة 1921 أنها لا تدفع شيئا من المغارم والتعويضات، ثم جاء مؤتمر لوزان فأعفاها منها كل الإعفاء.

وقد تمت في ديسمبر سنة 1923 قواعد الاتفاق الخماسي على التسوية بين ألمانيا والولايات المتحدة وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا في شروط التسليح والضمان.

واستطاع المستشار هنريش بروننج Heinrich Bruning أن يتفق مع مندوبي إنجلترا والولايات المتحدة وإيطاليا عل إباحة توريد السلاح وتحصين الحدود وزيادة الجيش إلى ثلاثمائة ألف في وقت السلم، وإجازة تدريب الجنود المرابطين إلى جانب الجيش القائم، ومدَّ الخدمة العسكرية إل خمس سنوات. ولم تبق إلا موافقة السفير الفرنسي لإبرام الاتفاق. فما الذي حال دون إبرامه قبل استقالة بروننج من استشارة الرايخ؟

العجيب أن الذي عطل هذا الاتفاق هو (فون باين) وأصحابه الذين كانوا يعملون لإسقاط بروننج ودعوة هتلر إلى الوزارة! فإنهم اجتمعوا بسفير فرنسا وأبلغوه أن (بروننج) ذاهب لا محالة، فلا فائدة ترجى من تضييع تلك الهبات على وزير يوشك أن يستقيل، وأن "أناساً متطرفين"

يوشك أن ينهجوا في ألمانيا سياسة العداء والتحدي، فلا يحسن التعجيل بتلك الهبات قبل جلاء الحال.

وكأنما أحس هؤلاء الساسة أن نجاح برونتج يقضي على آمالهم ويفض الشعب عنهم ويجنح بألمانيا إلى طريق غير طريقهم، فأفسدوا عليه وعلى أمتهم الأمر، وأحبطوا عملة ليقنعوا الشعب بضرورة التحدي والعداء.

وصفوة القول أن استنزاف الثروات والجهود والتسليح والتهديد لم يكن لازماً لقضاء مطلب من المطالب النافعة، وأنة على فرض نفعه لم يكن مضمون العواقب مأمون المصير.

فليس من المحقق أن مصالح ألمانيا أو مصالح العالم تستلزم تلك الأعمال العنيفة التي لا يسلوها هتلر ورفقاؤه. ولكن من المحقق الذي لا شك فيه أن تلك الأعمال جميعاً توافق طبائع أناس مفطورين على العجرفة والقسوة والغدر وتمرُّد الذليل الذي يرضيه أن يهدأ ويتوعد، ولو لم تكن ثمة ضرورة للتهديد والوعيد.

وكل عمل من أعمال هتلر ورفقائه نستطيع أن نفهمه إذا فهمنا الحاجة إلى العجرفة والتسوق والغدر والتمرد وسائر تلك الصفات، فليس في عمل منها إذن قليل ولا كثير من الغموض.

لكننا لا نستطيع أن نفهمه إذا قيل إنه لازم للمصالح العالمية والمطالب القومية كائنة ما كانت؟ لأن لزومها مشكوك فيه، ونجاحها كذلك مشكوك فيه.

وإذا كان التفسير الجامع المانع للأعمال المتفرقة المتعددة هو التفسير الصحيح القريب إلى المعقول. ففيما تقدم بيان لحقيقة

البواعث الباطنة التي تستفز أولئك الناس إلى الجرائم التي يقترفونها ثم يزعمونها من مصالح العالم أو مصالح الألمان.

وإنك لتسأل: لماذا اعتدى هتلر على الضعفاء وقتل الخصوم والأصدقاء واختار الإرهاب والإرغام دون الإقناع والإرضاء: أنه فعل ذلك لأنه مجرم النفس، لم تجد عملاً من تلك الأعمال يناقض هذا السبب في بدايته أو منتهاه.

ولكنك واجدٌ مئات النقائض إذا قيل لك إنه قد فعل ما فعل لمجد ألمانيا أو لمجد الآريين، أو لأشباه هذه التَّعلاتً، ولا ينقي هذا أن أعماله ليست كلها جرائم وفظاعات، فإن المجرمين يعملون في حياتهم أشياء كثيرة غير الإجرام، ولا يتنفسون الإجرام شهيقاً وزفيراً في اليقظة والمنام.

هتلر وألمانيا ومعاهدة فرساي

لقد أكْثر الألمانيون عامة والنازيون خاصة من تعدد مساوئ معاهدة فرساي ومظالم مرساي وجرائر فرساي، حتى خيل إلى الناس أن هذه المعاهدة كان ينبغي أن تكتب لمصلحة المغلوب لا مصلحة الغالب، ولسلامة ألمانيا لا سلامة خصومها.

ولم يقتصر نقد فرساي على الألمان والنازيين، بل تعداهم إلى الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين، ومَنْ وقفوا في الحرب الماضية موقف الحيدة بين المعسكرين، وقد كان هؤلاء ممَّن يعتقدون حقاً أن معاهدات السلام اشتملت على جميع تلك المساوئ التي أحالوها عليها، أو ممَّن يعقدون حكوماتهم وينصحون بسياسة غير سياستها، فيحبون أن يلقوا على عواتقها تبعات الحوادث والمشكلات العالمية ويمنُّون الشعوب مستقبلاً خيراً من الماضي الذي يسألون عنه تلك الحكومات. هذا أو يكون المعارضون لمعاهدات السلام ممَّن يسخرون أقلامهم للنازيين وأشباه النازيين، ليساعدوهم على التغيير والتبديل وتحقيق المطالب والمقترحات. وليس وجود هؤلاء المأجورين بالغريب إذا ذكرنا الملايين التي كان النازيون وأمثالهم يبذِّرونها في جميع الأقطار.

ومعاهدة فرساي قد اشتملت ولا شك على أخطاء كثيرة وعيوب كبيرة، أكبرها فيما نعتقد خطأ المغارم والتعويضات التي فرضتها على الألمان، فإن هذه المغارم والتعويضات خطأ من الوجهة الاقتصادية

الفنية وإن كانت عدلا من وجهة الجزاء والحساب: لأن الألمان إذا حالوا أن يؤدوها نقدا لم يجدوا المال بغير تجارة خارجية، وإذا أغرقوا الأسواق الخارجية بمصنوعاتهم وبضائعهم كانت خسارة الظافرين من جراء هذه المنافسة أعظم من خسارتهم بفقد التعويضات، وإذا أرادوا أن يؤدوها عيناً وبضاعة كسد ما عند الظافرين من غير مماثلة وبضاعة مشابهة للبضاعة الألمانية.

ومثل هذا الخطأ وشيك أن يظهر، وقد ظهر. فابتدأ الظافرون بإصلاحه على طريقة داوس Dawes ثم على طريقة يونج Young، وكلتاهما ترمي إلى التقسيط والإعفاء والتأجيل، ثم عدلوا بتة عن المطالبة بالفروع والأصول واكتفوا بما أخذوه، وهو نحو الثمن من المطلوب مما أعانهم على تعمير الخرائب وتجديد العالم بضع سنوات، وانتهت هذه المسألة في مؤتمر لوزان (سنة 1932).

فمسألة التعويضات كانت خطأ ولم تكن ظلما ولا عنتا من الظافرين، إذ ليس بالمعقول أن يغرم هؤلاء الظافرون ما غرسوا من تكاليف الحرب ومن تخريب الأرض وتدمير المناجم ودور الصناعة، ثم يعمروا هذا الخراب بأموالهم وجهود أبنائهم، والألمان المهزومون ناجون في ديارهم لم تخرب لهم مدينة ولم يتعطل لهم مرفق أو صناعة ... ولو جاز هذا لكانت الهزيمة في الحروب خيراً من الانتصار.

كذلك أخطأت معاهدات السلام في تقسيم بعض البلاد وترسيم بعض الحدود، ولكنة لم يكن بالخطأ الذي لا يغتفر ولا بالخطأ الذي يسهل اجتنابه في مثل ذلك العمل الجسيم.

فقد كانت أمام المؤتمرين مسائل متراكمة لا تخلص من ناحية إلا

اشتبكت من نواح شتى: إن خلصت من ناحية اللغة والجنس اشتبكت من الناحية الجغرافية، وإن خلصت من هذه جميعاً اشتبكت من ناحية التجارة والثروة، وإن خلصت من هذه وتلك اشتبكت من ناحية الخطط الدفاعية والمواقع العسكرية، وإن خلصت من نواحي اللغة والجنس والتجارة والدفاع اشتبكت من ناحية النزاع بين الدول الكبرى على مناطق النفوذ أو على مرامي السياسة العالمية أو على الأحقاد التاريخية أو ما شاكل ذلك من العقد المؤربَّة التي لا تحصى فإذا أخطأت المعاهدات فهو خطأ مفهوم كان ليس في وسع أحد أن يدل الدنيا على صواب في موضعه يقنع جميع الشاكين وينصف جميع المظلومين ويبطل جميع المنازعات.

وقد رأينا أمثلة مما فرضه الألمان الغالبون على روسيا في معاهدة "برست ليتوفسك" وعلى رومانيا في معاهدة بوخارست وعلى المغلوبين الآخرين الذين لم يبرموا معهم صلحاً ولا سلاماً، فإذا الرحمة كل الرحمة فيما فرضته فرساي وأنفذه الحلفاء من الشروط، وإذا الألمان يقولون ويفعلون دائماً كما قال غليوم الثاني في مبدأ (الحرب) ويل للمغلوب!

ولو أننا نظرنا إلى فرساي من حيث الأثر الواقع في ألمانيا لوجدنا أن فرساي هذه كانت جُبراً للألمان من فرساي التي خرجوا منها منتصرين في حرب السبعين.

فقد كان قصارى ما بلغه الألمان في حرب السبعين أن خرجوا منها إمارات متفرقات على كل إمارة منها عرش وتاج وفي كل منها حكومة ودستور ... فأصبحوا بعد فرساي الحديثة دولة واحدة لا فوارق فيها بين الإمارات.

وقد لبث الألمان المنتصرون أربعاً وأربعين سنة حتى استعدوا للحرب، ولم يلبث الألمان بعد فرساي الحديثة عشرين سنة حتى أصبحوا على

أهبة القتال في سابقة لم تكن تملكها دولة منتصرة في الحرب.

سأل "الجنرال" جورنج سفير بريطانيا العظمى السير نيفل هندرسون عند ذهابه لأول مرة إلى نورمبرج (1937): مَنْ مِن الدول كان أعظم ربحاً في الحرب العظمى: فأجاب السفير: إنها إيطاليا لأنها ضمت إليها حدودها الجغرافية والعسكرية ثم الأمم الصقلبية بعد إيطاليا.

فقال جورنج: "كلا، بل هي ألمانيا؛ إنها لولا تلك الحرب ولولا الهزيمة فيها لكانت وحدتها ضرباً من المحال".

وهذه هي الحقيقة التي لا يجهلها زعماء النازيين، ولا ينبغي أن يجهلها أحد ممَنْ يعرضون بالنقد لمعاهدة فرساي.

على أننا نقارن بين فرساي الأولى وفرساي الثانية فيخطر لنا سؤالان لا فكاك منهما، وهما: لماذا انهزمت فرنسا في فرساي الأولى فأنتهت من الهزيمة إلى تحطيم الاستبداد وتعزيز الحرية والحكومة الديمقراطية ؟ ولماذا انهزمت ألمانيا في فرساي الثانية فانتهت إلى هدم الديمقراطية وتمكين صرح الاستبداد ؟

للأمر سر غير فرساي وكل ما انطوت عليه معاهدات السلام؟

للأمر سر مكشوف: هو طبيعة الاستبداد ومطامع المستبدين في البلاد الألمانية ولا سيما البلاد البروسية.

فقبل فرساي كانت المطالب التي تطلبها ألمانيا محققة بأجمعها، ولم يكن لمظالمم فرساي ولا لمعاهدة فرساي أثر.

كانت معها دانزيج، وكانت معها المستعمرات، وكانت معها شواطئ البحر البلطي، وكانت معها الألزاس واللورين، وكانت معها عواطف الشعوب التي انقلبت إلى الشك فيها بعد قيام الحركة النازية.

فماذا أعنى كل ذلك؟

لم يُغن شيئاً ولم يمنعها أن تنادي بالسيطرة العالمية، وأن تعمل لبسط هذه السيطرة على الأصدقاء والأعداء.

ففي سنة 1911 لم تكن هنالك مظلمة من مظالم فرساي ولا هزيمة كاذبة أو صحيحة، ولكن الجنرال فردريش فون برنهاردي Friedrich von Bernhardi ألف يومئذ كتاباً عن "ألمانيا والحرب القادمة" أوجب فيه الحرب على قومه وعقد منه فصلاً عنوانه "السيطرة العالمية أو السقوط".

وكان مكسميليان هاودن Harden كاتب صحيفة دي زكونفت Die Zukunft يقول قبل ذلك بسنة في صحيفته: "نحن خلقنا للحرب، فلنصنع الحرب صنعاً قبل فوات الأوان

وكان الدكتور كلاس رئيس العصبة الجرمانية يقول قبل الحرب الماضية بسنة: "إن قوة ألمانيا العسكرية تستخدم حيثما نتعرض نحن أو يتعرض جيراننا للمنافسة من ذوي النيات السيئة، وإن شعبنا الذي يُسرع في نموه يجب أن يقرع حقه في الوجود، وأن يبسط يده على أرض جديدة في أوروبا الشرقية الجنوبية على الخصوص".

وكان كارل بيترز Karl Peters مدير الاستعمار السابق يقول حول ذلك التاريخ: "ماذا كان بسمارك صانعاً لو كان معنا الآن ؟ لقد كان دائماً على استعداد للمغامرة بإضرام الحرب العالمية في سبيل تحقيق مراميه، ولا مناص لألمانيا من أن تكون على استعداد لمثل ذلك في، كل حين".

وكانت صحيفة الجامعة الألمانية دي بوست Die Post تنذر بريطانيا العظمى (في سنة 1912) أن تترك للألمان الحرية- المطلقة في

السياسة الأوروبية وتقرهم على كل تضخم لقوتهم في القارة - أي أوروبا - سواء نشأ هذا التضخم من محالفات مع دول أوروبا الوسطى أو من الإغارة على فرنسا، وألا تعارض مطامع ألمانيا الاقتصادية في البلقان أو آسيا الصغرى.

وكانت صيحة "من برلين إلى بغداد" تملأ الآذان قبل أن يتعلم هتلر معنى التوسع والامتداد.

وكان هتلر يحلم في صباه - كما قال في كتابة - بسطوة الجرمان وسيطرة الدولة الجرمانية دون أن يكون باعثة إلى ذلك غيظه المحتدم من فرساي ومظالمها الصحيحة أو المفتراة.

وثقافة الألمان فضلاً عن صحافتهم وأقوال ساستهم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، طافحة كلها بهذه النعرة التي لا ينكرها القوم ولا يسعهم أن ينكروها: القوة! الغطرسة ومعنى الغطرسة السيادة والعدوان؛ فهم ظلموا معاهدة فرساي ولم تظلمهم معاهدة فرساي، ولعل الحلفاء قد بالغوا في الثقة بألمانيا ولم يبالغوا في الحذر منها والتشديد عليها، فلو رفعوا عنها بعض الترفيه لعجل ذلك بالحرب ولم يؤجلها، ولحسبته ألمانيا غفلة من الظافرين ولم تحسبه لهم في سجل الحسنات.

ونستقصي الموضوع من جانبه الذي تمثله الدعوة النازية، فنفرض أن المطالب الألمانية لم تكن مطلوبة قبل معاهدة فرساي، وننظر إلى الذرائع التي كان يتذرع بها النازيون إلى تحقيق تلك المطالب، فهل هي ذرائع صادقة: وهل هي مما يؤخذ على ظاهره؟ أو يمكن أن يجاب والعالم مطمئن إلى عقباه ؟

أهم المطالب التي سبقت الحرب ما يسمونه فسحة العيش والمستعمرات القديمة، ثم دانزيج ومجازفا.

ويريدون بفسحة العيش أرض الزراعة "اللازمة" لمعيشة الألمانيين في القارة الأوروبية، وهي مسألة يقول هتلر في كتابة: إنها لا تحل بالمستعمرات ولا تعالج في الكامرون! ولا محيص فيها من النظر إلى التخوم الإأوروبية التي يقطنها الفلاح الألماني وقد ضأق به وطنه، وشح عليه قطنه، ووجب أن يتوسع أو يموت.

فهل تشكو ألمانيا كثرة السكان وازدحامهم؟ وهل حالها في ذلك أسوأ من أحوال الأمم الأوروبية الأخرى:

كل ما يصنعه النازيون يدل على أنهم يشكون قلة السكان ولا يشكون كثرتهم وأزدحامهم في، المدن ولا في الريف.

فهم يشجعون النسل ويبذلون معونة الزواج، ويقيدون الهجرة من بلادهم ويسعون في طلب الأيدي العاملة من إيطاليا والمجر وبوهيميا ومورافيا وبولونيا وغيرها، ويعلنون أن بروسيا الشرقية تتسع لمليونين من الألمان النازحين من الأقاليم البلطية بعد التسليم فيها للروسيين.

وقد نشر معهد العمل الألماني تقريره قبل الغارة على بوهيميا ومورافيا قال إنه: "على الرغم من وفرة العاطلين الذين وجدوا العمل في سنة 1938 بشق النفس، لا يزال نقص الأيدي العاملة شديداً، وإننا إذا قارنا النقص في أوائل سنة 1938 بخمسمائة ألف من الصناع والمستخدمين فهو على تقدير الوزير سيروب Syrup سنة 1940 لا يقل عن مليون".

وفي الوصية الأولى من الوصايا العشر التي نشروها في منتصف شهر

ديسمبر سنة 1924 وسموها وصايا غزوة الإنتاج جاء فيها: "أن ألمانيا فقيرة في مساحة الأرض ولكنها غنية بسكانها غنية بجميع الموارد التي تكفل لها إطعام أبنائها في هذه المساحة المحدودة، وإخراج الخامات الصناعية بمقادير عظيمة".

وإذا قارناً بين نسبة السكان على حسب المساحة والتعداد فمساحة ألمانيا هي 2689000 ألف ميل مربع ونسبة السكان فيها على هذا نحو 266 في الميل.

ومساحة بلجيكا 775 و11 ألف ميل مربع ونسبة السكان فيها 707 في الميل.

ومساحة فرنسا 659 و212 ألف ميل مربع ونسبة السكان فيها 197 في الميل.

ومساحة هولندة 698 و12 ألف ميل مربع ونسبة السكان فيها 274 في الميل.

ومساحة بريطانيا العظمي 98 ألف ميل مربع ونسبة السكان فيها 488 في الميل.

فألمانيا إذن أوسع مساحة من بلجيكا وهولندة وبريطانيا العظمى، ولو أضفنا إلي مساحة بلادهم مساحة مستعمراتهم لما تغير وجه المسالة بهذه الإضافة؛ لأن أبناء هذه الأمم القاطنين بالمستعمرات بضعة ألوف لا تقدم ولا تؤخر في الحساب. وقد أثبتت الإحصاءات عن سنة 1937 أن القادمين إلى تلك الدول أكثر من النازحين عنها ما عدا هولندة وإيطاليا. ولم يكن المهاجرون الألمان في جميع المستعمرات الألمانية يتجاوزون عشرين ألفا على أكبر تقدير؛ أي نحو العدد الذي

كان يعيش في باريس أو لندن من الألمان.

فالصيحة بما يسمونه "فسحة العيش" إن هي إلا صيحة مصطنعة تخفي وراءها بواطن مكتومة غير ظواهرها المكشوفة.

وحقيقة الأمر هي أن النازيين يريدون زيادة السكان ليتمكنوا من فتح الأرض وانتزاعها من أبنائها، ولا يحتاجون إلى الأرض كما يزعمون لأنهم يشكون ازدحام السكان.

أو كما قال هتلر: "إننا الآن نعد ثمانين مليوناً من الجرمان في القارة الأوروبية، ولكن صواب سياستنا الخارجية هذه لا يتقرر ولا يثبت حتى نصبح في مدى قرن واحد مائتين وخمسين مليوناً يقيمون في هذه القارة ولا يقيمون فيها كأنهم الأرقاء في خدمة العالم ...".

وكأنما مشكلة "الفسحة" المزعومة هي في أدمغة هؤلاء الناس: كيف نعتدي؟ وكيف نبلغ العدد الذي يتيح لنا الاعتداء: وليست هي مشكلة الزحام أو التعاون بين الأمم على تذليل العقبات وفض المشكلات.

وسبب الاعتداء حاضر على كل حال ... ومن الضروري أن تموت اليوم كل أمة يطمع النازيون في أرضها: لأنهم ينتظرون بعد مائة عام من يصلون إلى الدنيا من مواليد الغيب المجهولين!. وهم بالقياس إلى ما كان عليه آباؤهم قبل مائة عام لن يزيدوا عند حلول الأجل المقدور على مائة مليون.

ولو كان النازيون صادقين في شكوى الزحام لمكاناً قبيحاً بهم أن يعتبروا قتل جيرانهم حقاً مشروعاً لا يعارضهم فيه معارض، وأن يعتبروه الحق الوحيد الذي يحق للعالم أن يلتفت إليه، أو الحل الوحيد الذي لا ينكرون ولا ينكر العالم في غيره. فكيف والصيحة كما رأينا كاذبة؟ وكيف

وهم لا يشعرون بالضّيق من كثرة السكان بل يشعرون بالضيق من قلتهم واحتياجهم إلى المزيد ؟

المستعمرات

أما المستعمرات فتراد للأغراض التالية وهي: تصريف السكان، أو تصريف السلع والمصنوعات، أو جلب الخامات، أو المآرب العسكرية والخطط الحربية.

فأما تصريف السكان فقد رأينا قلة غناء المستعمرات جميعاً فيه، ولا سيما المستعمرات الألمانية القديمة التي لم يكن منها ما يصلح لسكنى البيض غير أفريقية الجنوبية الغربية.

فكل مَنْ رحل إلى المستعمرات الألمانية من أهل ألمانيا لم يتجاوزوا عشرين ألفاً يسكن مثلهم في عاصمتي فرنسا وإنجلترا.

وليست الولايات المتحدة ولا الأقاليم الجنوبية من أمريكا مستعمرات نازية أو مستعمرات لدولة أوروبية، ولكنها قد اتسعت لعدة ملايين من الألمانيين يعيشون فيها على حال لا يستبدلون بها المعيشة في أحسن المستعمرات.

وأما تصريف السلع والمصنوعات فلا يعقل عاقل أن الهمج الأفريقيين يستنفذون من السلع والمصنوعات ما يساوى نفقات يوم واحد من الحروب الحديثة.

وأما الخامات فليس منها في المستعمرات التي كانت تطالب بها ألمانيا غير قليل من المطاط والنحاس ونزر من الأطعمة ومادة الغذاء. وقد دلت الإحصاءات الألمانية نفسها على أن الحد الأقصى الذي بلغته الموارد من المستعمرات إلى ألمانيا لم يتجاوز نصفاً في المائة من جملة وارداتها.

ولنضرب المثل بمستعمرة واحدة لتوضيح هذه الحقائق المحصورة بالأرقام، أو لتوضيح دخائل النيات التي يخفيها النازيون وراء دعوى المطالبة بالمستعمرات.

فمستعمرة الكامرون كان يسكنها مائتان وواحد وثمانون من البيض الأوروبيين: منهم مائة وستة وسبعون ألمانيا، وواحد وستون بريطانياً معظمهم موظفون، وأربعة وأربعون من أجناس أخرى معظمهم قسس ومبشرون.

وقد عرضت مزارع الكامرون للمبيع عام (1925) فاشتراها الألمان الذين كانوا يعيشون في المستعمرة قبل الحرب. وأوشكت أن تنحصر في أيديهم تجارتها صادرة وواردة كما جاء في إحصاء سنة 1937.

فأصدر الألمان ما قيمته 419946 جنيهاً إنجليزياً من جملة صادرات تساوي 526554 جنيهاً. ولم تزد قيمة الصادرات إلى الجزر البريطانية عن 32700 جنيه. واستورد الألمان من بلادهم ما قيمته 156771 جنيهاً من جملة واردات تساوي 328842 جنيهاً. ولم تزد الواردات من الجزر البريطانية عن 39210 جنيهات.

ولا ننس أن خامات المستعمرات جميعاً قلما تبلغ جزءاً من ثلاثين جزءاً من خامات البلاد الحرة، وإن أمماً كثيرة أصغر من أن تكره منافساً أو تقتحم سوقاً في العالم وليس لها مستعمرات كالسويد والنرويج وسويسره، وإن الولايات المتحدة لا تملك كندا ولكنها مع هذا تصدر إليها ثلاثة أضعاف الصادرات الإنجليزية، وإن رءوس الأموال البريطانية في الأرجنتين أكبر من نظائرها في جميع البلاد المتابعة لبريطانيا العظمى.

فالساسة المتوجسون من خفايا النيات التي يواريها النازيون في أطواء مسألة المستعمرات كانوا معذورون إذا أيقنوا أن الفرض المطلوب

إذن هو العدوان العسكري والترصد للحروب والغارات.

وحسب القارئ أن يلقي نظرة على مواقع المستعمرات الألمانية القديمة ومواقع حلفائها ليعلم ما يهدد العالم من أخطارها؛ فليس أسهل من إيصاد مسالك المحيط الأطلسي والمحيط الهندي والبحر الأحمر على من يملك مكامن الغواصات والألغام في تلك المستعمرات، أو يملك مراكز الطيران على جميع الشواطئ الأفريقية، وبعض الشواطئ في المحيط الهادي وما يليه.

وليس أسهل من تهديد القارة الأفريقية برقتها سواء في منابع النيل أو في جوف الصحراء إذا أعيدت هذه المستعمرات إلى الأيدي النازية، وثبت للقبائل الأفريقية التي تفهم المحسوسات ولا تشغل بالها بما عداها أن النازيين هم الغالبون وأنهم يأخذون كل ما يريدون.

عندئذ لا يأمن أحد في أفريقية أو في العالم بأسره تهديد النازيين. ومَنْ الذي يقول إن النازيين لا يهددون وهم قادرون على التهديد! الذي يقول ذلك لا يؤتمن على مصائر شعوب.

ومن العبث أن نضيع الوقت في تفنيد ما يزعم النازيون إذ يقولون إنهم يطالبون بالمستعمرات لأنهم يأنفون أن تُعزى إليهم جريمة الحرب وأن تضيع مستعمراتهم عقوبة لهم على تلك الجريمة، كان النازيين يخجلون من الحرب وهم يتعبدون بها ويؤلهونها ويقدّسونها في جميع ما يكتبون، كان هتلر ينسى هذه القصة يوم كتب "كفاحه" وقال فيه إن المخاطرة في سبيل المستعمرات من أسخف الحماقات، أو كان فتح النمسا وهي بلاد أوروبية لا يعدل في هذا المعنى سيطرة ألمانيا على المجاهل الأفريقية، أو كأن استيلاء اليابان على بعض المستعمرات

الألمانية لا يضيرها كما تضيرها المستعمرات التي في أيدي الأوروبيين (الآريين أو أشباه الآريين!)

فهذه تعِّلات تُقال ولا يصدق أحد أن الساسة يقصدونها حقاً حين يغزرون بها جماهير الشعوب، أو أنهم يجازفون بخراب العالم من أجلها ويصرون على هذه المجازفة سنيناً بعد سنين، ولو صدقوا في ذلك لكانت فى وصمتهم بالصدق فيه أشد واقبح من كل وصمة يفتريها عليهم ألد الأعداء.

دانزيج

أما مسألة دانزيج - وهي سبب الحرب المباشر إذا أخذنا بأقوال اللسان - فكل ما يذكره النازيون أنها كانت ألمانية ويجب أن تعود إلى حكومتها الأولى. ثم ينسون ما عدا ذلك من الدعاوى والمصالح والتواريخ القريبة والبعيدة.

ينسون مثلاً أنها لبثت من منتصف القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر مدينة حرة في ظل السيادة البولونية، وأنها ضُمَّتْ إلى بروسيا بعد هزيمة نابليون الأول على خلاف مشيئة أهلهما، وأن حياة بولونيا تتوقف على دانزيج ولكن حياة ألمانيا لا تتوقف عليها ولو عُزلت عنها كل العزلة، وهي حقيقة عرفها الساسة الألمان من قديم الزمن وعبر عنها ملك بروسيا فردريك الثاني أحسن تعبير حين قال: "إن القابض على مصب نهر الفستولا لهو أقوى في بولونيا من الملك البولوني الجالس على عرش فرسوفيا".

ولم تكن سيطرة ألمانيا على دانزيج ضعيفة في نظامها الذي قررته المعاهدات بعد الحرب: فقد كان الأمر فيها لمجلس الشيوخ وللحكومة المسئولة أمامه ومعظم أعضائهما المانيون، ولم يكن لبولونيا من الأمر

فيها إلا القسط الكافي لضمان صادراتها ووارداتها وبريدها، ثم لا ولاية لها عليها، بل الولاية لعصبة الأمم التي تندب حاكم المدينة وترجع إليه في العلم بأحوالها،

ولم يحدث قط أن تعرَّضت بولونيا للمواصلات الألمانية في المجاز البولوني المشهور إلا لمراقبة المهربات التي قد تحمل إلى بلادها، ولم يطلب النازيون استفتاء الشعب في ذلك المجاز لمعرفة رأيه فيمَنْ يحكمه إلا على شريطة أن يحكموه سنة ثم يجري الاستفتاء المطلوب: ومعنى ذلك أنهم يحتاجون إلى سنة في الحكم النازي المعهود ليضمنوا جلاء من في المجاز من البولونيين واستدعاء من يخضعهم من المنازيين... ثم لا يضمنون هذه النتيجة إلا أن يكون الحكم في أيديهم ساعة الاستفتاء، وأن يكون كل مقيم في المجاز عارفاً ما سيصيبه إذا اختار بولونيا، وهو يرى بعينه أن اختياره إياها لا يفيد.

فليست "دانزيج" هي بيت القصيد.

إنما بيت المقصيد هو خنق بولونيا ومن يجاورها من أمم أوروبا الوسطى، فلا تجد تلك البلاد منفذاً لتجارتها في غير الأرض الألمانية من الشمال أو الجنوب: ففي الشمال دانزيج وفي الجنوب النمسا، ولن يدخل إلى تلك البلاد أو يخرج منها شيء إلا بإذن النازيين!

ومتى استُعبدت أوروبا الوسطى للنازيين هذا الاستعباد فمصير أوروبا الشرقية وما وراءها معروف، ومصير الخطط النازية كذلك معروف، فهي خطط تجتمع في خطة واحدة، وهي استعباد كل من يبتلى لهم بجوار، أو يقف لهم في طريق.

وعلى الرغم من هذا جميعه لم تكن الحرب ضرورة قاسرة ولا ضرورة

غير قاسرة: لأن أنصار السلام من ساسة الأمم في أوروبا وأمريكا تعبوا وهم يقترحون حلول المفاوضة والتوفيق، فقيل لهم إن الحل الوحيد هو قبول ما يريده النازيون ولو كان في قبوله الفناء.

ولمن شاء أن يأخذ المطالب النازية على ظاهرها، أو يأخذها على باطنها الذي قلما يستره حجاب.

فهي على ظاهرها لا تُلجئ إلي الحرب ولا يكون المقدم على الحرب من أجلها إلا مجرماً يجازف بسلام أمته وسلام العالم لغير ضرورة.

وهي على باطنها سعي حثيث للسيطرة على العالم وتهديد من فيه من الأقوياء والضعفاء على السواء. فهل لا بد من هذه السيطرة؟

وهل الحرب طريقها التي لا محيد عنها ؟

هل هي طريق السيطرة على العالم حتى لو انتهت بألانتصار:

نفرض أن السيطرة على العالم غاية لا محيص منها فهل الحرب وسيلة لا مناص منها ؟ وهل هي وسيلة مضمونة ؟

وماذا لو فشلت الحرب؟ وماذا لو امتدت وطالت ولم تفشل ؟ أكل هذا لا يدخل في الحساب ثم يقال إن السياسي الذي يهجم على هذا كله يحسب ولا يخطئ الحساب؟

إن الرجل الذي لا يعرف له سياسة غير هذه السياسة لا يعرف أن يسوس؛ لأن الأمم إنما تحتاج إلى السياسة لاحتياجها إلى اجتناب هذه الشروع، أما إذا كانت لا تحتاج إلى اجتنابها فما أغناها عن السياسة والسواس!

وإذا كانت سياسة هتلر قد اضطرته إلى ورود هذا المورد الوبيل فبئس ما فعل، وساء نصيبه من السياسة.

أما إذا كان مختاراً يملك الحرب والسلم ثم لا يبالي أن يخوض الحرب ويعرض عن السلم فالمصيبة أعظم، المصيبة خطل وإجرام وهوس مجتمعات.

خلة ألمانية سبب نجاح هتلر

ذكرنا طرفاً من الأسباب التي هيأت النجاح لهتلر وجماعة النازيين في الأمة الألمانية، فنضيف الآن أن هذه الأسباب على كثرتها وقوتها لا تكفي لبلوغه النجاح الذي بلغه لولا السبب الأكبر الشامل المحيط بها جميعاً، ونعني به خلة راسخة في الأمة الألمانية تفتح آذانها وأذهانها لقبول الدعوات التي من قبيل الدعوة الهتلرية.

ففي اعتقادنا أن هتلر لم يكن لينجح ذلك النجاح في تطويع أمته لو كانت هذه الأمة غير الألمانيين: لأن الأمة الألمانية العظيمة بمن نبغ فيها من فطاحل الأدباء والشعراء والفلاسفة والعلماء والمخترعين ليست بالأمة العظيمة في كل شيء، بل لعلها مصابة بقصور شديد سلمتْ منه أمم دونها في عدد النوابغ الأفذاذ، وهو قصورها في التربية السياسية وضعف إيمانها بالحرية.

ولا يخفى أن التربية السياسية تحتاج إلى شيء غير نبوغ الأفذاذ وإنجاب العباقرة: لأنها مسألة مرانة متسلسلة في بنية الشعب بجميع طبقاته وعناصره، ينتقل فيها خطوة بعد خطوة ودرجة بعد درجة، بالتدريب العملي والحوادث الفعالة في تركيبة وتأليفه؛ فلا تبلغ منه التربية السياسية مبلغ العادة إلا إذا تعودها، ولا يجيء التعوُّد بالأقوال والعظات، وإن وجد القائلون والواعظون، فكيف وهم لا يوجدون؟

ويرجع قصور الألمان في تربيتهم السياسية إلى أصول تاريخية

بعضها قديم وبعضها حديث أو قريب من العصر الحديث.

ففي العصور الغابرة كانوا قبائل غازية لا تعرف الاستقرار وآداب العمار، وإذا لجأت إلى الاستقرار فإنما تستقر بالتناوب سنة للقتال وسنة للرعي والزراعة؛ فيقاتل في هذه السنة مَنْ كانوا يزرعون ويرعون في السنة السابقة، ثم يذهب الزارعون والرعاة إلى القتال ولم يطل عهدهم بالسلم بضعة شهور. وقد وصفهم يوليوس قيصر في حالتهم تلك فقال: "إنهم لا يبالون الزراعة لأنهم يعيشون أكثر مما يعيشون على اللبن والجبن واللحوم، وليس لرجل منهم أرض يملكها ولا حدود تفصل ما بينة وبين غيره ...." وقال: "إنهم يحسبون من شرف الدولة أن تفتقر الديار من حولها دليلاً عندهم على الشجاعة التي تقصي جيرانهم فلا يجسرون على الاقتراب منهم ..." "وإن اللصوصية لا عيب فيها إذا حدثت بعيداً عن ديارهم، بل ربما حسبوها نافعة لتدريب الناشئة ومنع الإخلاد إلى الكسل والراحة".

ووصفهم المؤرخ تاسيتوس فقال: "إنهم إذا هدءوا واستراحوا تطوع كثير من نبلائهم للقتال في صفوف القبائل التي تشن غارة من الغارات، وإنهم لا يقدرون بغير العدوان والحرب أن يقودوا أتباعهم وحاشيتهم الكثيرة، ويعتمد هؤلاء الأتباع على كرم رؤسائهم فيما يركبون من خيل أو يشهرون من رماح، ولا ينالون أجرا غير مآدب الطعام الغليظ وإن لم يكن بالقليل: فالحرب والغنيمة فخر أولئك الرؤساء، وليس من السهل أن تقنعهم بالحرث وانتظار الغلة كما تقنعهم بالهجوم والمبارزة، بل من دلائل الوهن عندهم أن تطلب بعرق الجبين ما أنت قادر على أخذه بالدم المراق ..." ووصفهم المؤرخ جان فرواسات Forissart في أواخر القرن

الرابع عشر فقال: "إنهم شعب جشع يجنح أبداً إلى العنف والتهديد والاعتداء، لا رحمة عندهم إذا غلبوا، ومعاملتهم لأسراهم سيئة قاسية".

وهذه خلة كانت شائعة في كثير من الأمم وهي على حالة البداوة والهمجية، بيد أن الألمان قد انتقلوا منها إلى حالة تشبهها ولم ينتقلوا إلى حالة الحكم المسئول والشورى الدستورية كما انتقل بعض الأمم الأخرى رحلة بعد رحلة، فخرجوا من همجية البداوة إلى نظام الإقطاع الذي لا يعرف علاقة بين الحاكم والمحكوم غير علاقة الآمر بالمأمور، ولا يعرف علاقة بين الولاية والولاية غير علاقة القاهر بالمقهور، أو علاقة الحرب والتربص والانتقام.

وكانت ولاياتهم تتعدَّد وتتكاثر كلما نشبت الحروب وانقطعت الوشائج والأرحام، فزادت في نهاية القرون الوسطى على ثلاثمائة ولاية لا تضع السلاح يوماً خيفة جيرانها وأبناء جنسها أو خيفة الجيوش الجارفة التي كانت تشق أوروبا من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلي الشرق أو من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلي الشمال.

فإن موقع الألمان في الرقعة الأرضية من قارة أوروبا تركهم عرضة لكل مُغير وجعلهم متوثّبين أبداً للإغارة على من حولهم من الغافلين أو المستضعفين، فعاشوا في ساحة حرب لا رأي فيها للرعية إلا كرأي الجندي المطيع، ولا عهد فيها بين ولاية وولاية إلا كعهد المغلوب للغالب أو الغالب للمغلوب.

وظلوا على هذه الحالة إلى ما قبل حرب السبعين، فلم تنقص ولاياتهم عن مائة وسبعين في أيام الثورة الفرنسية، ثم انتظموا في علاقة تشبه الوحدة بالقياس إلى ما كانوا عليه من التفرق والصراع، ولكنهم لسوء

حظهم وقعوا في زعامة هي شر الزعامات، فسلموا زمام الدولة لإمارة لم تكن لها مزية على سائر الإمارات غير وفرة العدد ووفرة السلاح، وهي بروسيا آخر القبائل الجرمانية حضارة وأقلها نصيباً من الأدب والمروءة.

فسارت بهم على سنتها وباعدت ما بينهم وبين "التطور" في سبيل الشورى ومعاملات السلم والمودة، وتركتهم في سياستهم لا يعقلون إلا "وجهة نظر واحدة" هي وجهة النظر التي يأمر بها السيد المطاع، ولا يعرفون حق المعارضة لفرد من أفراد الرعية لأن المعارضة عنده عصيان، ولا لدولة من الدول الأجنبية لأن المعارضة لها عداء وقتال.

ولبثوا كذلك إلى ما بعد الحرب التي خرجوا منها دولة واحدة قليلة الفواصل والحدود. فلم تنقض عليهم عشر سنوات حتى انكفئوا إلى نظام المعسكر الحربي وفنون الغارة والاغتيال.

وازن بين تربية كهذه لا محل فيها لرأي الأمة في سياسة داخلية أو خارجية ولا أدب لمَنْ يتربى عليها غير الطاعة أو العدوان، وبين التربية السياسية التي فرضتها على خصوم الألمان مواقع الجغرافية ووقائع التاريخ.

فالإنجليز مثلاً أبناء جزيرة مستقرة قريرة.

فهم لهذا آمنون، وهم لهذا تجار؛ ومن هنا بطل فيهم طغيان العسكرية ونشأت فيهم خلائق الشورى والتفاهم والاخذ والعطاء.

وهم أقوياء ولكنهم يبيعون ويشترون، فلا مناص لهم من السمعة ومن الثقة ومن الإرضاء؛ إذ التاجر لن تنسيه قوته أن يرضي عميله وشريكة، ولن يستغني - وإن استغنى - عن التفاهم والقبول.

وقل ما شئت عن أسرار الحرب وأسباب الحوادث على تناقض الروايات والتعليلات، فمما لا شك فيه أن تربية الألمان القديمة هي

التي جعلتهم يأنفون من مفاوضة الأمم الصغيرة، ويستكبرون أن يجلسوا مع بولونيا أو مع غيرها إلى مائدة واحدة لفض المشكلات وتبادل الآراء: لأنهم ينظرون إلى المفاوضة نظرة العسكري الذي لا يعرف المفاوضة إلا لإملاء الشروط أو الخضوع لمن يمليها. ومما لا شك فيه أن تربية الإنجليز القديمة هي التي جعلتهم يفاوضون الكبير والصغير، وعوَّدتهم أن يروا لمفاوضهم حق الشاري على البائع وحق البائع على الشاري في مجال الأخذ والعطاء.

تلك الخلة الألمانية معلومة لكبار الأدباء الألمان سواء منهم الآريون وغير الآريين، فأديبهم الكبير "جيتى" يقول:

إن أمام أبناء وطننا بضعة قرون أخرى تتصرم قبل أن يترقوْا إلى منزلة من الحضارة تجعل الناس يقولون إنهم كانوا برابرة منذ عهد بعيد.

وشيلر زميل جيتى يقول: "أيها الجرمان، عزيز عليكم أن تصبحوا أمة، فكونوا رجالاً فذلك ميسور". هذه هي الظروف التي ساعدت هتلر علي تصرفاته.

(وهيني) أشعر شعرائهم الغنائيين يقول: "يوم يتبدد رمز المسيحية الوديع يفور مرة أخرى جنون الغزاة الأقدمين الذي يطنب في التغني به شعراء الشمال، وتهب الأرباب الصخرية من مراقدها في الآكام المهجورة نافضة عن أهدابها غبار ألف عام، ويهب معها إله الرعد والبرق ثور يحمل مطرقته الهائلة ليهوي بها على محاريب الإله المسيحي؛ يومئذ تسمع جهنم من الضوضاء لم يسمع لها مثيل قط في تاريخ العالم كلة، ويومئذ تعلم أن الرعد الجرماني قد تمادى إلى مداه، وأن الصيحة يومئذ لتسقطن النسر ميتاً في علاه، ولتسمعنها الأسود الناكصة في أقصى

الآجام الأفريقية فتختبئ في كهوفها، ولتشهدن ألمانيا في ذلك الموعد مشهداً تحسب الثورة الفرنسية عنده موقف غزل وغرام، وليتطلعن العالم كأنه على سلالم الصراع لينظر إلى مشهد هذا العراك الجنوني في ساحة ألمانيا ...".

قالها هيني قبل مائة سنة فصدقته الأيام، ولو قالها اليوم لقالوا نبوءة شاعر كذاب من سلالة إسرائيل!

ونيتشه نبي القوة عندهم يقول: "الجرمان كالنساء، لا يُسبر غورهم لأنهم بلا غور ... وهذا كل ما هناك، فلا يقال عنهم إنهم ضحل لهذا السبب عينة. أمَّا ما يسمى العمق في ألمانيا فهو في لبابه نقص في إخلاص المرء لنفسه، أو هو بمثابة أمة تأبى أن تقف من طبيعتها موقف الوضوح والصراحة، ألا يحسن أن نضع كلمة الجرمانية رمزاً متفقاً عليه للدلالة على هذه الآفة النفسية؟"

وطالما ألم (جيتى) ألماً شديداً للنظر في أمور هذه الأمة التي تتقن التفاصيل وتنسى الشمول والتي "يبدو فيها أفراد أجلاء وتبدو هي أمة زرية".

إلا أن الاختلاف الذي لاحظه لا يعَّد من الشذوذ ولا الخروج على القياس المعقول؛ لأن البربرية وقوة العقل والطبع لا يتناقضان، فيجوز أن ينشأ الأفراد المقتدرون في غمرة البداوة كما ينشأون في أوج الحضارة، وأن تعلو الصفات الفردية وتهبط الصفات القومية. أما النقيضان المستغربان فهما أن تصمد الأمة على حكم الاستبداد، وأن تتقدم في أطوار التربية السياسية وخلائق الحرية التي تواتيها في تصريف تبعات الحكم ومشاركاته، وهذا هو جانب القصور في تربية الألمان وهو ما ساعد هتلر علي النجاح.

ومن المشاهدات التي لا تُستغرب أن الألمان على كثرة ما أفادوا العالم في أبواب العلم والفن والصناعة لم يفيدوه شيئاً في باب العلم السياسي والأصول الدستورية: فلا هم في أطوارهم الشعبية تقدموا وراء القيادة العسكرية وأنظمة الميدان، ولا هم في كتابات فقهائهم ودارسيهم ساهموا بقسه قيم من التفكير، وغاية ما ساهموا به أنهم قاسوا الدولة وأقاموها على أساس "القوة الحاصلة" وجعلوا مخالفتها أشبه بالكفر والشيطنة منها بالجريمة التي يعاقبها القانون.

فالدولة عند فيلسوفهم الكبير هيجل هي مساك الحق وخلاصة التاريخ وصورة المشيئة الإلهية ... وما شاكل ذلك من نعوت تلحق الدولة بعالم المغيب في عرف المتصوفة.

والقانون عند فقهائهم هو "سر العنصر" أو لباب الروح القومي وليس هو بالعدل المطلق الذي يعم جميع الأقوام ولو في المبدأ والقاعدة: فبينما كانت الدول تعلن في الحرب أن محاكم الغنائم فيها تطبق قانون الأمم وشريعة المنطق الإنساني، كانت ألمانيا تعلن أنها لا تطبق إلا الشريعة الألمانية التي تستمدها من الدولة الألمانية، وبينما كانت الشعوب المختلفة تبني اعتزالها لعصبة الأمم على أسباب المصلحة أو على خشية الإخفاق والاصطدام بالوقائع المنظورة، لأن الألمان يخلطون بذلك سبباً فلسفياً يقوم على فكرة العنصر والقوم، فلا عدل في اجتماع عصبة الأمم لأنها مجموعة أجناس المشرق والمغرب وسلالات البيض والصفر والسمر والسود، وإنما العدل أن تقوم على جنس واحد أو أجناس متقاربات، وأن تعترف بالتفاوت بين السادة والمسودين والأقوياء والضعفاء ... أي أن تبطل معنى العدل فتجعله اعترافاً بجواز الظلم لمن

يقدر عليه وتحريمه على مَنْ يعجز عنه ليس إلا. وما أبعد الفرق بين قولك إن الظلم هو العدل والإنصاف وقولك إن العدل مطلوب محبوب ولكنة متعذَّر التحقيق، ولا بد من رياضة الطباع عليه.

وهذا التفاوت بين أقدار الشعوب يسري على الرعايا الألمان فينقسمون إلى آريين وغير آريين وينقسم الآريون إلى عريقين في الآرية يحملون جواز العراقة Gross Ahnenass ومحدَّثين في الآرية لا يثبتون من النسب فيها أكثر من جد واحد ولا يحملون إلا جواز المحدثين Ahnenspiegel وهو لا يسمح لهم بالانتظام في الحزب ولا في جماعاته المختارة.

وكان أناس يخالون أن حذلقة الألمان في تفضيل أنفسهم على العالمين قد بلغت قصاراها خلال الفترة التالية لعهد بسمارك وحرب السبعين، فإذا بالنازيين يدَّخرون من هذا المعنى ما لم يكن يخطر على بال.

فليس التفاوت بادياً باقياً بين القوم الجرمان وسائر الأقوام الآدمية وكفى ... كلا، بل هناك تفاوُت بين حيوان آري وحيوان أجنبي وبين فاكهة عريقة وفاكهة هجينة، وبين بذور رفيعة تنبت في تربة الشمال وبذور خسيسة تنبت في تربة الجنوب، كما يقول الجنرال لدندورف أن الأرنب ليس بحيوان آري، وحسبك سبباً جُبنة الأليم، أنه مهاجر يحظى بحفاوة الضيف. أما الحيوان الذي لا شبهة في ملامحه الجرمانية فهو الأسد، وهو من أجل ذلك ألماني في دار غربة.

بل التفاوت بين السلالة الآرية والسلالات الأخرى تفاوت في تركيب الجسد ووظائف الأعضاء وخصائص العترة البشرية.

"فغير الآريين لهم أسنان وفكوك عليا تشبه في ضيقها ومنظرها خراطيم الحيوان، وحركة الفكين بين أهل الشمال تسمح بمضغ الطعام

والفم مقفل على خلاف الأجناس الأخرى التي تسمع لمضغها أصوات كأصوات العجماوات. وللفم الشمالي فضائل شتى يمتاز بها كامتياز اللون الأحمر بإثارة الشعور؛ فإن لونه المتوهج القاني يغري بالقبلات، وفم الشماليين من أجل هذا مركّب صالح في تركيبة للتقبيل. أما غير الشماليين فهم عراض الشفاه غلاظها ينمون بذلك وبفتحات المنخرين على الشهوة وعلى التعبير الهازئ وعدى حركة الارتشاف التي تنبئ بالانغماس في المتعة الراضية، وهم يفرطون في التحدُّث بمساعدة الأيدي والأرجل مما لا يرى في حديث أهل الشمال الذين يتكلمون أحياناً وأيديهم في الجيوب. ولن تبصر في غير المرأة الشمالية ذلك النهد الكاعب المكين المستدير الذي يبرز للنظر حين تلقي بذراعيها إلى الجنبين. وخلاصة القول إن غير الشماليين ينزلون في مرتبة بين طبقة الإنسان الشمالي وطبقة الحيوان من فصيلة فوق فصائل القردة العليا؛ فليسوا هم بأناس يقابلون الصفات الحيوانية بالصفات الإنسانية، ولكنهم حلقة وسطى في الطريق يسموا شبه بشر ... وإذا سأل سائل: ما بال غير الشماليين وهم أقرب رحماً إلى القردة يتناسلون من الشماليين ولا يتناسلون من القردة؟ فالجواب أن الدليل لم يقم بعد على أنهم وفصائل القردة لا يتناسلون".

وليس المهم أن يؤمن النازيون بهذا الهراء إيمان اليقين، بل المهم أنهم يعملون به عمل المؤمنين. ولا ندري أيهما أقبح بالمرء: أن يصدق هراءً كهذا فهو مسلوب التمييز في شئون الأقوام ومسائل السياسة، أو أن يدَّعيه ولا يصدق به فهو خادع محتال.

أمة تروج فيها هذه الدعوات حيثما ظهرت ليس بعجيب أن يعلوها

أمثال هتلر وجوبلز وهيس وجورينج متى أيدتهم المصادفات واندفع بهم تيار الحوادث والأزمات، وليس بعجب أن تكذب تلك الأمة علي عقولها وهي تكذب على أعينها فتصدق أن هؤلاء صفوة الآردين وهم عل نقيض الشمائل التي يزعمونها لأبناء الشمال. فالرجل الشمالي في زعمهم "أصهب رائع المنظر فارع الطول بين الرجولة رشيق وسيم ..." وهتلر أنثوي جنوبي السحنة لا روعة لمرآه، وجوبلز أعرج دميم ممسوخ الموجه والقامة، وهيس أسمر من مواليد الإسكندرية، وجورينح ضخم بدين جدته فرنسية ... ولكنهم يهتفون للالمان بما يعجبهم فهم مصدقون ولو كذبتهم العيون!

ومع ذلك لقد قال بعض الكتاب الاورربيين أن هتلر "صنع المعجزة" وأعاد إلى الألمان الثقة بأنفسهم وقد شارفوا على الذلَّة والانحلال.

فهل جاء هتلر قومه برسالة الثقة بالنفس أو رسالة الاستخفاف بالآخرين؟

إن الواثق بنفسه لا يلغي حقوقه في الحرية ولا بيني حياته على التسليم والإذعان ولا يصيح على الأبراج والشواهق أنه واثق وأنه يقسم إنه لواثق!

كلا، إنما يفعل ذلك مَنْ لا ثقة له بنفسه ولا قدرة له على تمييز رأيه، وليس الاعتداء على الآخرين من صفات الواثقين، ولكنة من صفات من لا يعرفون الحقوق ولا يدرون معنى الحرمات.

وهتلر قد علَّم شبان قومه خلائق معلومة لا صعوبة في تعليمها، بل الصعوبة في أقتلاعها وتبديلها لأنها من نوازع الهمجية وخلائق القطعان.

قال لهم البسوا الكساوى والشارات التي تحبونها، واخرجوا في الشوارع

صفوف صفوف تزعقون وتتوثدون، وأضربوا اليهود وأضربوا الشيوعيين واضربوا الديمقراطيين واضربوا النازيين المخالفين ... اضربوا اضربوا اضربوا ولكم المجد والفخار وعلى فرائسكم المسبة والعار.

ولقد عاش أبناء آدم مائة قرن يعاقبون مَنْ يضرب ويقيدون يديه ويعيبونه بالشر والرذيلة، ولا يزال الضرب مغرياً يهون فيه العقاب والتأنيب.

فإذا جاء هتلر وجعله شرفاً يبوء المعتدي بفخره ويبوء المعتدى عليه بوصمته ونكره فأين هي المعجزة وأين هي الخليقة الكريمة التي تكتسب بالمشقة والرياضة وهداية الزعماء؟

هذا اندفاع مع التيار وليس وقوفاً في وجه التيار، وتلك هي النكسة والانحدار وليست هي الوثبة والاقتدار، وما في هذه الزعامة الرخيصة مسحة من العظمة ولا لمحة من الابتكار.

ألغوا وجودهم من ناحية وألغوا وجود الآخرين من ناحية أخرى!

كبحوا حريتهم العالية على الأحرار ثم أشبعوا نفوسهم المكبوحة بشهوة العدوان على حرية الناس. فكانوا خاسرين في الصفقتين، غادرين بحرماتهم وحرمات مَنْ يعتدون عليهم. وبئس التعليم إن كان هذا الصنيع في حاجة إلى تعليم.

إنما المعجزة أن تعلِّم المرء الكرامة فلا يهدر حقوقه ولا يهدر حقوق غيره، وإنما الرجل الكريم هو مَنْ "يسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينة كما يسوءه أن يتعرض هو لتلك الغضاضة، ويعاف الذل حيث كان ولو لم يمسسه في كبريائه، وذلك هو الفرق بين الكرامة المحمودة والغطرسة الذميمة؛ فإن الغطرسة الذميمة هي التي تستريح إلى إذلال الآخرين ولا تغار عل كرامة إنسان، وهي التي لا تميز بين الكبرياء بحق

والكبرياء بباطل، ولا تلوم الناس لأنهم اعتدوا عليها مبطلين بل تلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى صواب؛ ولهذا يستخذي المتغطرس حين تصدمه القوة من سواه، ولا يزداد الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسها مَنْ يتطاول عليه".

وهكذا "معجزات" هتلر في شتى مراميها لا تستمد قوتها من رفيع الصفات بل تستمدها من وضيع الغرائز والشهوات، ولا تعتمد على الاقتحام بل تعتمد على الإتباع والانسياق، ولا تروعك بالبطولة كما تروعك بالمداورة والاستغلال، ولا تروض الظروف بل تركبها وهي مريضة، ولا يرتفع بواحدة منها إلى مرتبة النوادر الأعلين بل يظل حيث كان في زمرة الأواسط وأبناء المصادفات وهكذا كان هتلر.

هتلر والشيزوفرينيا

هل كان هتلر حقاً مصاباً كما يقولون بالشيزرفرينيا ؟!

لقد صرفنا معظم الكلام في بيان «الظروف» التي هيأت لهتلر ما تهيأ له من النجاح في قومه؛ لنعزل بين أعماله وضجتها الخارجية، ونعلم ما هو حقه وما هو حق الحوادث، ونوازن بين ما هو من فضل الكفاءة وما هو من فضل المكان الذي ارتفع إليه، ونخلص من ثمة إلى سبر أغواره وأغوار أعماله فنسلكه في مسلكه الصحيح ونقيمه حيث ينبغي أن يقوم.

وسنصرف الكلام هنا إلي دراسة طبائعه وأخلاقه وبواعث تفكيره وهواه، فيكون سؤالنا: لماذا اختار هذا الطريق ؟ وكيف تمهد له هذا الطريق ؟

في هذا العصر الذي شاع فيه علم النفس واتصل فيه طب العقول وطب الأجسام يندر أن يشتهر إنسان بما يثير النفوس دون أن توضع نفسه هو موضع الفحص الطبي والدراسة العقلية، ليتبين الباحثون دلالة أعماله ويتعرفوا نصيبها من المصحة والاستقامة أو نصيبهأ من المرض والشذوذ .

وهتلر في رأي بعض الأطباء مصاب بآفة نفسية يسمونها "شيزوفرينيا" أو ما يُعبر عنه في العرف الدارج بازدواج الشخصية، وهي آفة تنشأ من الوراثة القديمة والحديثة ومن فرط النشاط في الغدة الدرقية على نحو يغلب في النساء المريضات، وإليه يرجع اهتياج الشعور عندهن وطغيان الحس على أفكارهن.

وقد لوحظ على هتلر كثير من عوارض هذه الأنوثة المريضة لأنه

يبكي ويمرح حين يشاء، ويغضب ويصخب لأتفه الأشياء، ويثير شعور سامعيه أبداً ثم لا يزودهم يوماً بزاد من الفكر المتُبع والرَّوية الهادئة في غير سخط واهتياج، ويشبه المرأة في تركيب جسمه لضيق كتفه وضخامة رِدفية، وقلة العضل في تكوين أعضائه مع عنايته بتصفيف شعره وتنميق أظافره، وندرة ما يبدر عليه من دلائل الرجولة في اتصاله بالجنس اللطيف، وكثرة ما يعهد من كيده وولعه بالإيقاع وإثارة الشحناء بين المحيطين به على نحو ما تصنع المرأة المتبوعة بين المحيطين بها، وهذا إلى صبره الطويل على كل ألم في سبيل الظهور والزينة والمتعة بالتفاف الأنظار، كوقوفه خمس ساعات ممدود الذراع أمام المواكب التي تحَّييه وتومئ إليه، وهو نوع من الصبر يعهد كثيراً في النساء ولا يعهد في الرجال.

وصاحب الشخصية المزدوجة يتناقض في تفكيره وشعوره كأنها تصدر أفكاره وأحاسيسه من مصدرين أو من شخصين مختلفين؛ فهو حيناً سديد الرأي وحينا شديد الخطل، وهو تارة وديعٌ لينٌ وتارة شرس عنيد، وساعةً يحجم ويتردد وساعة أخرى يهجم ويتعسف، وقد يعالج الأمر علاج الحالم المؤمن ثم لا يلبث أن يعالجها علاج المتشكك الذي لا يقنع بغير الواقع الملموس.

ونشرت مجلة المبضع الطبية Lancet بحثا عن الهستريا النفسية عددً فيه المكاتب عوارضها وعلامات هذه العوارض في نفس هتلر وأعماله، فقال إن المريض المصاب بالهستيريا ذكي متعدد الشواغل وإن كان لا يتعمق في واحدة منها، مولع بالأسرار لبقٌ في التسلل إلى مكامن الأهواء، قادر على تجديد الصور في خيالة وحدسه وربط الشتيت

من الأفكار بروابط غريبة وسطحية لا تنفذ إلى اللباب، وإنه مستعد بالفطرة للتغاضي عما لا يوافقه ولا يرضي لباناته، وإنه جامح النفس في حبه وبغضه، متقلب في أطواره وميوله، تدور خواطره كلها على محور واحد هو نفسه وما يتقزّز به حسه، ويفتأ من أجل هذا متشوقاً إلى الثناء متعلقاً بدواعي الغرور. مفهوماً بما يلفت الأنظار ويخلب الأفكار، وتساعده على ذلك قدرة على الإيحاء إلى من حوله والإيماء الباطني إلى صحبة، فيحظى بينهم حظوة قلقا ينالها من غزُوا من قدرة الإيحاء والإيماء، وتتعطل فيه مراكز الحس فيصاب بضرب من البلادة ويكل أحياناً عن الإحساس بالجوع والتعب والسهاد، وهو ما يلوح للناس في هيئة الجلد والدُّءوب والثبات.

ويشفع الكاتب كل صفة من هذه الصفات بما يدل عليها من كلام هتلر أو من عاداته المعروفة وحركاته المشهورة، فيحكم عليه بالمرض الهستيري وزيغ التكوين.

أما الطبيب الذي امتحن هتلر في السجن - وهو الدكتور برنشتينر Brinstriner - فقد نفى عنه المرض العقلي وبوادر الجنون وقال: "إن النظر في حالته النفسية وطريقة سلوكه أظهر لنا أنه لم يصب بضرر من جرَّاء نشأته وتعليمه وحياته الأولى، وأن الانقلاب الذي حاوله في الثامن من شهر نوفمبر سنة 1923 وطالما قيل إنه حماقة وجفون قد يسهل رده إلى إخلال العقل واضطراب ميزان التفكير. ولكنك إذا سمعت من هتلر نفسه بواعث الانقلاب وتعليلاته انتهيت إلى الجرم بأنه كان مالكا زمام رأيه أثناء تلك الحركة من بدايتي إلى انتهائي، وأنه لا محل فيها لاختلال التفكير مع احتمال النقص والخطأ في الباعث والتعليل ..."

وعلى خلاف هذا الرأي الدكتور ماكس فون جروبر Max von Grob-er الأستاذ، بجامعة ميونيخ: فإنه يقول إن تعبير وجهة لا يدل على رجل يملك زمام شعوره، بل فيه دلالة على اضطراب واهتياج وهذا هو هتلر.

وللطب العقلي مدرسة أخرى غير مدرسة المباضع والعقاقير ومستشفى المجاذيب على طراز البيمارستان القديم، وحي مدرسة التحليل النفساني على مذهب فرويد ومذاهب تلاميذه الذين اقتبسوا منه أساس المفكرة وإن ناقشوه في أجزائها أو اختطوا لأنفسهم بعد ذلك خطة جديدة.

فلهذه المدرسة أيضاً كلمتها بل كلماتها في مزاج هتلر وتركيب عقلة وسريرة أخلاقه.

فمنهم من يقول إنه رجل مكبوت الغرائز الجنسية لعلّة في تكوينه يدل عليها أنه لم يتزوج ولم تعرف له صلة مألوفة بالنساء ؟ فهو من ثمة يرى في حب السطوة والقسوة منطلقاً لغرائزه المكبوتة ينفّس به عن ذلك الكبت الأليم.

ومنهم مَنْ يقول إنه كان طفلاً مدللاً ألف التدليل من أُمّه والشدة من أبية، فنشأ مضطرب الأهواء، يغلب عليه التدليل حيناً فلا يطيق المعارضة ولا يزال ينتظر من الدنية التعليق والمرافقة كأنها مطالبة بإسباع نهمته من هذه العادة، ويغلب عليه الامتعاض تارة أخرى فيحب التمرد والانتقاض والثأر لنفسه مما أصابه في طفولته وصباه.

ومنهم مَنْ يقول هذا وذاك ويزيد عليه أن محنة الفقر والتشرد في، الشباب الباكر قطعت ما بينة وبن الناس من رحمة ومحبة وعودته سوء الظن وضعف الثقة بالمودة والوفاء، فأصبح غير صالح لمبادلة الأفراد

عطفاً بعطف وإخاء بإخاء، وانحصرت علاقاته ببني الإنسان في صورة الجماهير والجماعات: فإما أن يحيا في الحركات السياسية التي تقوم على الجماهير والجماعات وإلا فليست له حماة: وإما أن يستيئس في طلب الحركة السياسية وإلا فليس في بيئته الفردية متسع للعطف والشعور، وكل ما تتسع له تلك البيئة الفردية بمعزل عن السياسة فإنما هو والخيبة والنضوب.

ومنهم مَنْ يرجع إلى الوراثة من والدية، ومن جهة أبية خاصة: لأنه كان رجلاً مزواجاً تموت له الزوجة فلا تتقضي أشهر حتى ينساها ويبني بغيرها. وكانت أم هتلر ثالثة زوجاته بُني بها وهي في نحو السابعة عشرة وهو في، نحو الأربعين، وولدت هتلر وهي في التاسعة والعشرين وهو في الثانية والخمسين. وقد مات بضربة فالج، وقيل إنه مات وهو يتعاطى الخمر في حانة.

ويلاحظ هؤلاء النفسانيون أن هتلر - على إفاضته في بعض أخبار صباه - يقتضب الكلام اقتضابا عن أبية وأهله، ولا يبدو عليه الارتياح إلى هذه السيرة فيما يكتبه أو يتحدث به لتابعيه وخاصة رفقائه؛ ففي الأمر لا شك سرٌّ مجهول غير ما هو معلوم ممَّا تقدم، وفية الكفاية للدلالة على انحراف المسفات الموروثة.

ويربط بعضهم بين هذا السر المجهول في نشأة هتلر وبين تكرار الكلام في كتابة عن الأمراض السرية و "سوط عذابها" المُنصب على أبناء زمانه، ويتساءلون ولا سبيل عندهم إلى اليقين: ألا يجوز أن يكون اختلال الغريزة الجنسية واهتياج الدماغ عند هتلر متصلين بسر من تلك الأسرار؟

هذه الدراسات النفسانية والطبية كثيرة مستفيضة في جميع اللغات

الأوروبية لا ضرورة لحصرها ولا للاستشهاد بأكثر من النماذج التي استشهدنا بها للإلمام بما يقال في سبيلها.

ولسنا نريد أن نُعوِّل عليها وحدها دون التعويل على ما يزكيها من الوقائع الواضحة التي لا تحوجنا إلى مشرحة الطبيب أو معجم المصطلحات الفنية.

ففي اعتقادنا أن ما قدمته الأوصاف العلمية في دراسات النفوس هي تلك الأوصاف التي تستغني عن المصطلحات وعن لغة المعامل والمشرحات؛ لأن الأخلاق الإنسانية لم توضع في مجمع علمي ولم تتقرر بعد الكشف الطبي على من وضعوها في الأجيال الغابرة والأجيال الحاضرة. فقد كان في ملايين الملايين الذين وضعوها أناس يجوزون امتحان الأطباء وأناس لا يجوزونه ولا يحسبون من الأقوياء ولا الأصحاء. وإنما وضعت أخلاق بني الإنسان بتجاوب الشعور وتجاوب الأحقاب والأعقاب، فملاكها ولا شك هو النفس العاطفة القادرة على مجاوبة من حولها وما حولها مجاوبة متصلة مستقيمة فيما تؤديه وفيما تتلقاه.

فإذا امتحن الأطباء رجلاً فلم يجدوا عيباً في وظائف جسده ولا في مجس أعصابه وعضلاته ثم ظهر أن هذا الرجل يحس بالغضب ولا يحس بالرضا، أو يشعر بما يؤلمه ولا يشعر بما يؤلم غيره، أو يقدر على إدراك عاطفة ويعجز عن إدراك عاطفة مثلها، فالوصف الصادق لهذا الرجل أنه ناقص وإن قال الأطباء إنه لا نقص فيه.

ثم هو ناقص وإن لم ينجح عن نقصا ضرر، كما نحكم بالنقص على الجهاز الكهربائي الذي يسمعنا الأحاديث في وقت ولا يسمعنا في وقت آخر، ولو لم تكن هنالك فائدة من السماع أو ضرر من عدم السماع.

فملاك الأخلاق الصالحة نفس صالحة للشعور قادرة عل التلقي والأداء، وقد تنفعنا البحوث الطبية في التعليل والتفسير إذا عرض لنا ما يحوجنا إلى تعليل وتفسير، أما إذا كانت الأخلاق الماثلة أمامنا غنية عن تعليلها وتفسيرها فهي إذن مفهومة مدروسة بغير حاجة إلى معمل أو امتحان.

وسنتوخى هذه السُّنة دون غيرها في دراسة نفس هتلر وتقويم عملة وكلامه، نتوخاها لوزن الرجل لا لترجمة حياته: فإن وقائع التراجع تتشابه وتتكرر في ألوف السِّير، وتتشابه وتتكرر في سيرة الرجل الواحد، ولا تميزه إلا طائفة محدودة من وقائعه وأقواله.

التربية والنشأة وأثرها في سلوكيات هتلر

كان أبو هتلر ثمرة "غير شرعية"، من بنت فلاحة ورجل مجهول. وكان يحمل اسم أمه شيكلجروبر Schicklgrubrt إلي أن بلغ الأربعين من عمره، فقيَّد في السادس من شهر يناير (سنة 1824) باسم الرجل الذي ظُن أنه أبوه وهو جوهدن جورج هيدلر، وقد صُحف هذا الاسم على الألسنة فأصبح هتلر كما ينطق الآن.

وتزوج والده بثالثة نسائه "كلارا" أم هتلر وهو في نحو الأربعين وهي لم تتجاوز بضع عشرة سنة كما تقدم، وكانت خادمة لزوجته الأولى ثم فرَّت إلى "فيينا" وهي صبية صغيرة، وعادة إلى موطنها بعد فترة مجهولة الأخبار، فخطبها أبوه.

وتربية هتلر من مولده إلى شبابه تربية صالحة لتفسير حياة رجل جامع النزعات متناقض الأحوال؛ لأنها لم تجرَّ على استواء واحد بين تدليل الأم وصرامة الأب، وهي صرامة كانت تشتد وتعنُف كلما لمح من ابنة رغبة في احتراف التصوير والعيث في معيشة الإباق والتشرُّد، وهو

يعده لوظائف الحكومة ويرشحه لمستقبل رتيب.

وكانت أمه أصغر كثيرا من أبية كما تقدم، ولكنها على صغر سنها كانت متوعكة شاكية كما قال هتلر في كتابة، ولم تكن قوية العزيمة لأنها كانت تضعف عن تأديب ولدها والاشتداد عليه، وقد ماتت في نحو السابعة والأربعين، وهي سن لا تدل الوفاة فيها على صحة وافية.

ولم يكن أبوه متين البنية ولا كان قدوة في الوفاء وضبط النفس وبراءة النشأة، بل كان عرضة لنوبات الفالج تعتريه من حين إلى حين، وكان سريع الزواج بعد وفاة زوجاته، وكانت ولادته كما تقدم في غير مهد الزفاف المشروع.

فهل ورث هتلر ما يورث من هذين المزاجين؟ لقد كانت أمه تقول له في طفولته إنه مريع القمر Mondsuchting وهي كلمة تقارب كلمة «المجذوب».

والذين عاشروه مجمعون على نزقة وسرعة بكائه وكثرة هياجه وتقلب أطواره، ويقول روشننج Rauschning رئيس مجلس الشيوخ السابق في دانزيج إنه يتخبط ويتشنج ويستيقظ من نومه وهو صائح مذعور كأنما يهرب من أعداء، والشائع عنه أنه كان لا ينام ليلة بغير دواء مرقد إلا إذا كان مبيتة في برختسجادن حيث يهدأ بعض الهدوء فإذا أضيف إلى الأثر الوراثي في الجسد انه نشأ وهو يعلم مولد أبية في غير مهد الزواج: لم يكن من شأن ذلك أن يعزز فيه ضوابط الأخلاق أو يدعم فيه الثقة بنزاهة الآداب.

ومات أبوه وهو يناهز الثانية عشرة فأصبح عالة على أمه الأرملة بضع سنوات، ينتظم في الدراسة فترة وينقطع عنها فترات، وسرعان ما أصيب في معيشة الطواف والتشرد بمرض صدري أعفاه من الدرس ومن التجنيد، فتحقق له بغيته من ترك الدراسة واجتناب الامتحان.

وحاول أن يلتحق بمدرسة الفنون في عاصمة النمسا فلم يقبله الأساتذة لأنهم لم يلمحوا في صوره مسحة من ملكة الصور الصناع.

وكثيراً ما ظلمت مدارس الفن نابغاً في صباه ثم أنصفته الدنيا وعُرفِ قدره بعد حين، إلا أننا لا نعتقد أن أساتذة فيينا ظلموا هتلر حين ردوا صوره ويئسوا من فلاحة؛ إذ ليس أدل على صواب رأيهم من إعراضه الباكر عن الفن واستغراقه في السياسة، وهو ما لم يحدث قطّ في تاريخ فنان عظيم مفطور على الخلق والإبداع في عالم الفنون.

فلما ردته مدرسة فيينا قنع بالنقش والتخطيط وبدا له في بعض هواجسه أنه على مثال "مايكل أنجلو" بناءً ومثال وليس بمصور لوحات وناقش ألوان، وساوره من المرارة والضغن ما يلحق بالغرور المصدوم، فامتلأت جوانحه بالسخط والإنكار.

ثم ماتت أمه وهو في نحو الثامنة عشرة عاجز عن كسب رزقه بسعيه واحتياله. فأوى إلى بيوت الصدقة ومد يده بالسؤال، واجتهد في جمع قوته بنسخ الصور ونقش تذاكر البريد، فلم يظفر من هذه الصناعة بطائل، ولجأ أحياناً إلى جرف الثلج في الشتاء وحمل الحجارة في العمارات، وهو الرجل الذي كان يعتقد أنه خليفة مايكل أنجلو على هندسة البناء.

وتقضت شبيبته وليس فيها أثر من رحم القرابة أو أنس الصداقة، فمض عليه في الحرب العظمى أربع سنوات لم يكتب رسالة ولم ترد إليه رسالة، ولاحظ زملاؤه أنه كان يرقب توزيع الرسائل والهدايا بشيء من الحرد والتمرير، فيأبي أن يأكل معهم من أزوادهم حرداً وتمريراً في الحقيقة لا أنفة وعزة؛ لأنه لم يأنف أن يأكل خبز الصدقة وأن يبسط اليد بالسؤال.

وكانت علاقته بالنساء ولا تزال محفوفة بالغرابة والغموض، فلم يتزوج

ولم يعاشر معاشرة الرجال. وقيل إنه لا يزيد على لمس زنود الحسان والجلوس إلى جانبهن، وإنه لا يتعلق بعاطفة من قبيل الألفة والمحبة.

والحادث الوحيد الذي يذكر في ترجمته من قبيل المحبة الغرامية قد يزيد الغرابة والغموض ولا يجلوهما، ونعني به حادث انتحار الآنسة جريت روبال Grete Raubal بنت أخته التي كانت تعيش معه في مسكنة. فكيفما كانت العلاقة بينهما فليس شغف الرجل ببنت أخته وانتهاء هذا الشغف بالانتحار ممَّا ينفي الزيغ والنشوز، بل هما خليقان أن يثبتاهما أيما إثبات.

وجملة ما يُفهم من هذه الأحوال أنها أحوال رجل زائغ الطبيعة ناضب العاطفة، منقطع الصلة "الشخصية" بينة وبين أبناء جنسه، مستعد للبغضاء وليس بمستعد للمودة والوفاء.

كتب هتلر إلى صديقة وزميلة (روهم) في ذكرى الثورة النازية الأولى خطاباً يقول فيه: "يهز نفسي في هذه الذكرى الأولى - يا عزيزي إرنست روهم - أن أشكر لك خدماتك التي لا تفنى للحركة الوطنية الاشتراكية والأمة الجرمانية جمعاء، وأن أؤكد لك مبلغ حمدي للعناية الإلهية التي أتاحت لي أن أدعو رجلاً مثلك صديقي وزميلي".

وبعد أشهر قليلة قتل هتلر هذا الصديق والزميل ومئات من رجالة شر قتلة، ووصمة بكل رذيلة من الرذائل التي كان يعلمها ويعتذر عنها بين أصحابه، ولا تمنعه أن يفخر بالصداقة والزمالة للعزيز إرنست روهم، ولم يتقدم هتلر بوثيقة واحدة تُستوِّغ تلك المجزرة الجائحة فيما بين يوم وليلة، مع استيلائه على أزِمَّة البحث والتحقيق ي البلاد الألمانية بأسرها.

وكان هتلر يقول عن القائد فون بلومبرج إنه هو الصديق "الذي لو تركني لقذفت بنفسي من النافذة" ثم ترك هوفون بلومبرج لسبب يدعو

إلى التساؤل الكثير، وهو أنه تزوج من فتاة قيل عنها إنها سهلة الأخلاق تعمل في خدمة هيملر رئيس الجواسيس المشهور.

وموضع التساؤل الكثير هو أن هتلر وجوربج حضرا الزفاف بل كانا شاهديه الوحيدين. فهل يعلم هيملر بحقيقة الفتاة ولا يخبر رئيسة قبل الزفاف وهو الرجل الذي يتتبع خطواته ويتأثر حركاته في ذهابه وإيابه؟ وهل يغتفر هتلر هذه الزلة لرئيس الجواسيس ولا يغتفرها للزوج المخدوع؟ وهل كان القضاء على مستقبل بلومبرج هو حل المسألة الوحيد ؟

أياً كان ذنب رهم وبلومبرج وعشرات الأصدقاء الذين انقلب عليهم هتلر مثل هذا الانقلاب فهناك أمثلة أمامنا على هوان الصداقة عند الرجل، وليس هناك مثل واحد على صداقة واحدة بينة وبين إنسان من الناس غير صداقة المتآمرين المشتركين في مكيدة واحدة.

ولم تؤثر في سيرته من طفولته إلى أيامه هذه مأثرة واحدة من مآثر اللطف والنبل وكرم السجية، وليس في كلامه ولا عملة إلا العداء و "التعاون" على الانتقام والإيذاء. ولم يعهد فيه قط أنه غلب فظهر منه العفو والرحمة بمغلوبيه من الأفراد والأمم، وكل ما في نشأته الأولى يدل على أن خلق الغدر فيه ليس بغريب.

روى بعضهم أنه كان يحب الكلاب والعصافير والأطفال، ويحمل صورة أمه حيث سار. والكلاب التي شوهدت معه أكثرها كلاب حراسة، فهي أخرى أن تدل على حبه لنفسه وحذره من أبناء جنسه.

وحبس العصافير قد يدل على كل شيء إلا العطف عليها؛ لأن ألم المخلوق الذي ركب أن له جناحين لذرع القضاء وهو محبوس في شبرين، أمر لا يحتاج إلى خيال كبير.

على أنه لا حب الكلاب والعصافير، ولا حب الأطفال والحنين إلى ذكرى الأم، بالعلامة على العطف السليم ما لم يقترن بقرائن النبل ومكارم الخلق وفضائل السماحة.

فكثير من "الهستيريين" يألفون الحيوان ويتعهدونه بالتربية، ما نفع وما ضر وما كرّم وما خبث، حتى الأفاعي والثعابين. ولا يعُوَّل لهم فيما وراء ذلك على مودة وشعور وثيق.

فإن لم تكن ألفة الحيوان مقرونة بشواهد الرحمة حيث وجبت الرحمة فهي دليل على فقر الشعور لا على وفرته وغناه ونبل مغزاه؛ لأنها دليل العجز عن كسب المودة بمجهود عظيم. فلماذا غابت أدلة البر كلها ولم يبق لها من دليل في نفس هتلر إلا البر بذكرى أمة؟ وإلا ما يقال من مودته للطفل والكلب والعصفور وهي الخلائق التي يشتري مودتها ولا تكلفة من جانبه مودة إنسانية كبيرة؟ سبب واحد يفسر ذلك أوضح تفسير وأصدق تفسير، وهو أن المودة الإنسانية في نفسه ضعيفة، وأنه لم يكسب إلا مودة الأم التي تحب ابنها لغير فضيلة فيه، ومودة الأطفال والعصافير والكلاب التي تمنح مودتها بغير جهد عظيم.

فالتعلُّق بالأم وبالطفل وبالعصفور وبالحيوان الأليف علامة نبل النفس وغزارة العاطفة إذا كانت علامة من وعلامات كثيرة، أي إذا عمَّت شواهدها وفاضت ينابيعها حيثما جرى مجراها. أما إذا انحصر الأمر في هذه العلامة الواحدة فهو على نقيض ذلك دليل الأنانية وشح النفس والمساومة الرخيصة على كسب العطف والولاء بأرخص الأثمان، فضلاً عمَّا يكون له من الطبيعة الهستيرية التي لا تستغرب منها أشباه هذه البدوات.

أين العدو الذي عفا عنه هتلر ؟ أين الصديق الذي يدَّخر له بقية من الخير بعد انقلابه عليه؟ أين الأمة التي غلبها فأظهر لها دخيلة من دخائل نفسه غير القسوة والغطرسة والتنكيل؟ أين هو الشاهد الواحد الذي يرينا أنه يقسو مضطراً ا ولا يبحث عن القسوة حيثما أتيحت له للذَّته وجنوحه إليها؟

إذا رأينا هذا ورأينا معه ألفتة للعصافير والكلاب فهنا عاطفة سليمة وهنا شعور نبيل. أما إذا بحثنا عن العاطفة وعن الشعور فلم نرَ لهما أثراً في غير العصافير والكلاب.

فتلك هي وساوس الهستيريا وعوارض الأنانية ونقص التركيب؟

هل كان هتلر شجاعاً حقاً ؟!

هل كان هتلر شجاعاً حقا كما كان يحاول دائما أن يثبت ذلك من خلال خطاباته الملتهبة التي تظهره بمظهر الشجاع؟

كان يلبس هتلر نوطاً واحداً على صدره، هو نوط الصليب الحديدي "الذي يقول بعضهم إنه من الطبقة الأولى، ويقول الآخرون إنه من الطبقة الثانية".

ويروي أتباعه أنه استحقَّه بعمل من أعمال الشجاعة النادرة في الحرب العظمى، وهو أنه هبط مع زميل له على اثني عشر جندياً فرنسياً في خندق قريب من الخطوط الألمانية، فساقهم إلى الأسر جميعاً بسلاح واحد، وهو الرامية التي يحملها الجنود.

والرواية لم تثبت قط في سجل من سجلات الحرب الألمانية، ولا نخالها قابلة للإثبات، فهي أقرب إلى الهزل منها إلى الجد الرصين.

ومما يلفت النظر في أمر هذا النوط الذي كان يعتز به هتلر أنه لم يذكره قط في كتابة الذي ذكر فيه ما هو أهون وأصغر من هذا الشرف البارز، وأنه لم يترقَّ قط إلي رتب الضباط مع افتقار الجيش الألماني إلى الضباط المترقِّين من صفوف الجند المتعلمين في مراحل الحرب الأخيرة.

وقد وقع الاختيار على هتلر للمراسلة في مكتب الفرقة المتطوعة فلم يكن من الذين يحضرون حرب الخنادق في الملاحم. وثبت أن الإصابة التي انتقل من جرائها إلى المستشفى قبيل انتهاء الحرب كانت أهون

كثيراً من الأخطار التي تعرض لها غيره؛ لأنها كانت إصابة بالغازات المُدمعة إنها الحقيقة المدونة في كتب التاريخ.

ولو أنه أصيب بأقوى من هذه الغازات لما سلم نظره ولا زالت آثاره كل الزوال.

وربما كان في قصص هتلر عن الحرب العظمى أكاذيب كثيرة لا أكذوبة واحدة أو أكذوبتان؛ فإنه يكذب في الأمور التي لا خطر لها، كقوله مثلاً إنهم كانوا يتغنون في الفرقة المتطوعة أثناء معركة الأيبر بنشيد "ألمانيا. ألمانيا فوق الجميع"؛ مجاراة لمن كتبوا عن الحرب من بعيد، وقد حقق الدكتور فريد ولين سولدر Fridolin Sollerer مؤرخ الفرقة أنها كانت تتغنى بنشيد آخر عنوانه الحراسة على الرين Die Wacht am Rhine.

ويذكر هتلر غير ذلك من الأحاديث التي تحيط بها شكوك ولا تقل عن هذه الشكوك! وكان هتلر يقول دائما ويؤكد على أن الحرب العظمى شيء بعيد، والحديث عنها عرضة للنسيان والمناقضة والادعاء، وفي تاريخ هتلر واقعة مؤيدة في المحاكم والسجلات بشهادة الشهود والحاضرين، وهي واقعة ميونيخ التي حاول بها إسقاط الحكومة ثم صدمته طلقات النار من حراسها فلاذ بالفرار.

قال شهود العيان في تلك الواقعة إن لدندورف وجورنج صمداً لطلقات النار، فأُسر لدندورف وجُرح جورنج ثم نجا بنفسه إل ما وراء الحدود. أما هتلر فسرعان ما سمع الطلقة الأولى حتى طرح نفسه على الأرض فجأة بغير احتراس، فانخلعت كتفه لشدة الوقعة وتقرر ذلك في الكشف الطبي الذي أُجري عند اعتقاله، وكأنما كان يحسب حساب الفرار قبل

الهجوم فأوصى سيارة أن تلحق به وركبها وحده دون أن ينتظر إنقاذ أحد من زملائه في تلك المخاطرة.

وقد كان قرار هتلر حقيقة لا تقبل الجدل ولا الاعتذار، فلما أكثر خصومة تعييره وتبكيته خطر له بعد بضع سنوات أن يدفع عنه مسبتها ويقطع جريرتها، فصعد يوماً على منبر الخطابة وإلي جانبه غلام ناشئ قدَّمه إلى السامعين وقص عليهم أسطوره له لا تقبل التصديق: خلاصتها أنه كان قد وجد الغلام في الطريق - وكان طفلاً يوم هجمة ميونيخ - فأشفق أن تصيبه النار وحملة مهرولاً لينقذه من الموت، ونسي هتلر أنه كان مخلوع الكتف في ذلك اليوم، وأن العظام المخلوعة لا تطيق اللمس الرقيق فضلاً عن حمل الأطفال والعدو بهم عده أمتار، ونسي أن قصه الغلام كانت مجهولة كل الجهل لا يشير إليها أحد من المدافعين منه في الفترة بين يوم الهجوم ويوم الخطاب!

وقصارى القول أن شجاعة هتلر لم تثب قط ثبوت اليقين، ولم نعرف لها مزيداً من مسلكه الطويل في قيادة الأمة الألمانية، وهو يحيط نفسه بالحراس والجواسيس ويوشك أن يتحصن من أقرب المُقَّربين، مما لم يعهد له نظير في سراديب أجبن القياصرة والخوافين إنها حقيقة هتلر الذي أرعب الجيوش والأمم.

مبلغ صدقة

.. ودعنا نبحث في مبحث آخر وهو صدقه.. هل كان هتلر صادقاً؟

وللعلم بمبلغ الصدق في خلق الرجال السياسيين لا يصح أن نسأل: هل كذبوا أو لم يكذبوا ؟ فإن الرجل السياسي قد يكذب وطبعة صادق، وقد يلجأ إلى الكذب حين يلجأ إليه وهو مغصوب كما يفعل الإنسان وهو

يتجرَّع الدواء العلقمي، لضرورة من ضرورات الداء.

وإنما يكون السؤال: ماذا يكلفه الكذب ؟ هل يكذب وهو مستريح أو يكذب وهو مكره متبرم ؟ وهل يسترسل في كذبة أو يقتصد فيه اقتصاداً على قدر المصلحة الموقوتة ؟ وهل يتجاوز الحد في اختلافه أو يكتفي بكتمان الحقيقة وتلوينها بغير لونها ؟

فالسياسة كالحرب خدعة، وليس كل كلام يقوله السياسيون صادقاً جدَّ الصدق في حرفة ومعناه. فيجب ألا تحكم على السياسي حين يكذب كلامه، بل الواجب أن تحكم عليه بحالته وهو يكذب، فإن هذه الحالة لهي التي تبين لنا هل هو رجل صادق يشذ في كذبة أو هو رجل كاذب يطرد في، قياس عاداته حين يختلق ما يختلق من الأكاذيب والأراجيف.

فإذا رجعنا إلى هذا القياس مع هتلر فكيف نجده في كذبة ؟ إنه لم يكذب فقط بل كان كذبه كما متجرع المرء الدواء الكريه، ولم يكتف قط من الكذب بمقدار معقول، ولكنة يكذب كمن يتجرع من شراب لذيذ يعب منه عباً ويخشى أن تنزع كأسه من يديه!

فانظر مثلاً إلى قوله عن الروسيا: "إن دولة واحده فقط هي الدولة التي أشمئزُّ من الاتصال بها على الإطلاق. تلك الدولة هي روسيا الشيوعية". 13 سبتمبر سنة 1937.

أو قوله عنها: "سنمضي عهود المسالمة مع جميع أمم العالم ما عوملنا معاملة الإنصاف. إلا في الشرق فلن ندخل في عهود من هذا القبيل؛ إذ إن الجرمان لن يدافعوا عن البلاشفة، ولن يخطوا خطوة واحدة في مثل هذا الكفاح. ولخير لي أن أشنُق نفسي من أن أطأ بقدمي هذا الطريق ألوبيل" مايو 1935.

وانظر إلى قوله عن المعاهدات: "إن ألمانيا لن تسلك سبيلاً غير السبيل التي رسمتها المعاهدات، وستبحث الحكومة الألمانية جميع المسائل الاقتصادية والسياسية في نطاق المعاهدات وعلى حسب مقتضاها ... وليس في الألمان من يفكر في غزو أمة من الأمم" 27 مايو سنة 1933 .

وانظر إلى قوله: "إنَّ زعم الزاعمين أن الرايخ الألماني يدبر الخطط لإكراه الحكومة النمسوية لهو زعيم سخيف لا برهان عليه ... وإني لأدفع بكل قوة ذلك الادَّعاء الذي تدعيه الحكومة النمسوية عن تدبير غارة أو شروع في غارة على بلادها. وما فتيء الرايخ الألماني على استعداد لبسط يد المودَّة والتفاهم الصحيح فيما يكفل حرية الألمان النمسويين، وهو على أتم استعداد - وقد انتهت مسألة ميثاق لوكارنو حرفاً ومعنى غير قانع برعايته من حيث المعنى وكفى! 13 يناير 1934 .

وانظر إلى قوله: "إن عهد المفاجآت قد انتهى اليوم. "أو إلى قوله عُقيب ضم السوديت أن ألمانيا لا تطلب بعد الآن أرضاً في القارة الأوروبية!

أو انظر إلى عشرات من أمثال هذه التصريحات التي لا يقتصد فيها أقل اقتصاد ولا معنى بها إلا نقيض معناها، كعهوده لأصحابه وعهوده لجاراته من أمثال الدنمرك وبلجيكا وهولندة وغيرها، فهل هي كلام رجل يكذب مُكرهاً مقتصداً أو هي كلام رجل يكذب بغير حساب ولا يبالي أن ينقض فعلة أقوى توكيداته وأقسامه؟

وليس هذا شأنه في وعوده "الخارجية" وحدها، بل هو شأنه في جميع الوعود والتوكيدات.

فقد أكَّد لمدير الشرطة ووزير الداخلية في ميونيخ أنه لا يعمد إلى

انقلاب ما عاش، فلم تمض أيام حتى عمد إل انقلابه المشهور.

وأكَّد للرئيس هندنبرج أنه يؤيد الوزارة القائمة بعد الانتخاب ونقض توكيده في اليوم التالي لظهور النتيجة الانتخابية.

وأكد للأمة الألمانية أنه في غنى عن تكرير مذابح برتلماوس اكتفاءً بأحكام القضاء، ثم أدار الذبح في أنصاره وخصومة بغير تحقيق ولا محاكمة ولا إعلان أسباب.

ولا موجب في الواقع لإحصاء أكاذيبه وتسجيل نقائضه بعد أن أعلن بلسانه شريعة الكذب في إنجيل دعوته حين قال: "إن الألماني لا يدرك عل الإطلاق أن الأمة لا بد أن تُخدَع وتُضلَّل للظفر بإخلاص الدهماء ..." أو حين قال: "إن من دواعي تصديق الأكذوبة مبلغ ضخامتها، فإن الدهماء في سذاجتهم ليقعون فريسةً للأكذوبة الكبيرة قبل الأكذوبة الصغيرة".

ولقد نفى المذيعون الألمان روايات روشننج التي نقلها عن هتلر ونسوا أن الرجل لم يقل إلا بعض ما تقوله أفعال الزعيم وأحاديثه وعاداته في نقض وعوده. فمن هذا الذي نتله روشننج أن هتلر قال له بعد توكيد من توكيداته المشهورة: "إنني على استعداد لتوقيع كل اتفاق وضمان كل خدَّ وتأمين كل من شاء بميثاق من المواثيق؛ فإن التخرج من استغلال هذه الأمور لهو فكرة بلهاء ..."

فهل كذب روشننج في الرواية ؟ ليكن؛ فهو مع هذا لم يزد مثقال ذرة على ما علم الناس من أفعال هتلر وعاداته التي يعلنها للملأ في بلاده وغير بلاده، ولا يفضي بها سرًا لصفوة الزملاء وراء الجدران.

فهو رجل يستمرئ الكذب غير مقتصد فيه وغير مبالٍ بعقباه، وليس الكذب عنده جرعة دواء مكروه، ولكنة شراب سائغ يعب فيه ظمآن.

غرابة الأطوار

يراد الإنسان على بعض الأشياء.

ويريد هو بعض الأشياء.

والأشياء التي يراد عليها ويُساق إليها ليست هي التي تكشف لنا دخيلة نفسه وحقيقة أطواره؛ لأنها صادرة من غيره.

وإنما تتكشف لنا دخائله وأطواره من الأشياء التي يريدها هو حسب مشيئته ووفق مناه، وبخاصة ما ظهر منها في معيشته البيتية التي يخلو فيها لنفسه ويتصرف فيها بوحي هواه.

وهنا تبدو غرابة هتلر في كل شيء: في مسكنة ومطعمة وفرجته وسلواه. فيبدو لنا عقل نصفه في النور ونصفه في الظلام، أو نصفه في صحوة الواقع ونصفه في غياهب الأحلام والأوهام. إنسان يهرب! إنسان يلوذ بالفرار؛ ومن ثم يبدو لنا أيضاً أنه فيما يرتمي إليه من ضجة السياسة ومواكب الجيوش ومظاهر السطوة إنما هو إنسان هارب، لائذ بالفرار.

قال السفير الفرنسي في برلين - مسيو فرانسوا بونسيه - من خطاب كتبة إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ العشرين من أكتوبر (1938):

لما طلب المستشار الألماني في السابع عشر من أكتوبر أن أذهب إليه بأسرع ما أستطيع، وضع رهن مشيئتي طيارة من طياراته الخصوصية، فركبتها في اليوم التالي إلى برختسجادن يصحبني الكابتن ستهلن، ووصلت إليها حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، ومنها أخذتني سيارة لم تذهب بي إلى (أوبر سالزبرج) حيث يسكن الفوهرر، بل ذهبت بي إلى مكان عجيب يحب أن يقضى فيه أيامه عندما يروق الهواء.

والمكان يلوح على البعد كأنه مرصد فلكي أو صومعة صغيرة

مخطوطة فوق أعلى القمم هناك على ارتفاع ستة آلاف قدم، وتلقف الطريق إليها مسافة تسعة أميال مقدودة في الصخور، تشهد الجرأة في نحتها بمهارة مهندسها كما تشهد بمجهود الذين فرغوا من هذا العمل الضخم في مدى سنوات ثلاث.

وتنتهي الطريق أمام سرداب يفضي إلى الجبل، ويؤدي في طرفة الآخر إلى مصعد عريض مصفح بالنحاس يرتقي رأساً إلى ثلاثمائة وثلاثين قدماً حيث يقيم المستشار. وهنا نبلغ من الأعجوبة غايتها القصوى! فيرى الزائر أمامه بناء ضخماً متيناً يشتمل على رواق رومانية، وعلى بهو مستدير تحيط به النوافذ والمطلات ويبرز فيه موقد كبير تشتعل فيه الأحطاب الضخام، وأمامه مائدة يحدق بها نحو ثلاثين كرسياً، وتنفتح على الجوانب أبواب حجرات شتى مؤثثة بالمقاعد المريحة الوثيرة.

ويطل الزائر من كل جانب كما يطل من الطيارة المحلقة على مشهد متلاحق، وتتراءى له على البعد - وراء منظر كأنه المدرج الرحيب بلدة سالزبرج والقرى التي تحف بها، يشرف فوقها على مدى البصر أفق من القمم والشواهق والمروج وكأنها تتشبث بالسفوح.

وفي الجيرة الملاصقة بالمكان حائط ينبثق أمام العين انبثاقا مفاجئا يخيل إليك أنه قائم في الفضاء بغير عمد ولا أساس.

وكل أولئك يبهرك وهو مغمور في شفق الخريف كأنه شيء آبدٌ مفخَّم. فيعجب الناظر ويتساءل: أفي يقظة هو أم في منام! ويود لو يدري هل ذاك كان حصن (مونسلفات) الذي كان يأوي إليه فرسان الآنية المقدسة ؟ أو هو صومعة جديدة في جبل (آثوس) تخبئ ناسكاً يتهجد ويسترسل في التفكير والعبادة ؟ أو هو قصر (أنتينيا) يرتفع في قلب

الجبال الأطلسية! أو هو تجسيد لبعض تلك الرسوم المفارقة التي كان (فكتور هوجو) يخطط بها هوامش روايته عن حكام الجرمان ؟ أو هو خيال مليونير لا يدري ما يصنع بأمواله ؟ أو مباءة عصابة يركنون إليها ويجمعون فيها الذخائر والكنوز! هل هو خاطر عقل سليم أو هو خاطر إنسان معذب بجنون العظمة وهواجس الشوق إلى التفرد والسيادة ؟ أم هو ليس إلا خاطر إنسان ملكته المخاوف والظنون!

على أن هناك مسألة واحدة لا يُغضى عنها ولا تقل عن المسائل الأخريات قيمة عند من يدرسون هتلر من الوجهة النفسية، وهي أن مداخل البيت وخباياه ومنافذه كلها تحميها الجنود والمدافع الرشاشة.

قال السفير:

واستقبلني المستشار بحفاوة ومودة، وكان يبدو متعباً شاحب السحنة، ولكنة لم يكن في يوم من أيامه الهادئة، ولعله كان في فترة هدوء واسترخاء، فأخذني تواً إلى إحدى نوافذ البهو الكبير، وأراني المنظر واستراح لما شاهده عليَّ من سمات الإعجاب التي لم أحاول إخفاءها، وتبادلنا بعض التحيات والمجاملات، ثم جيء بالشاي في إحدى الحجرات القريبة، وبدأ الحديث على أثر خروج الخدم وإغلاق الأبواب بيننا نحن الثلاثة، وأعني بالثالث (هرفون روبنتروب) الذي لم يشترك في الحديث إلا في مناسبات قليلة لم يكن يزيد فيها على توكيد ملاحظات الفوهرر.

وكان أدولف هتلر مستاء من ذيوع الاتفاق في ميونيخ ؟ فقد كان يعتقد أن اجتماع الأربعة الذي أزال شبح الحرب وشيك أن يفتتح عهداً من عهود المسالمة والعلاقات المتحسنة بين الأمم، ولكنة لا يستطيع أن

يرى شيئاً من ذلك قد حدث ...

إن غيوم الأزمة لم تنقشع، ويوشك إن لم تتحسن الأمور أن تغدو شراً مما كانت في مدى فترة قصيرة؛ لأن بريطانيا العظمى يصل صليلها بالإنذار والدعوة إلى السلاح، وتلك مناسبة انتهزها الفوهرر للانطلاق في حملة من الحملات الكلامية المعهودة في خطبة شنّها على تلك الدولة وعلى أثرتها وإيمانها الصبياني بتفوقها ورجحان حقوقها على حقوق غيرها. ثم سكنت جائشة الفوهرر بعد قليل ...

هذه البدوات التي وصفها السفير الفرنسي ليس فيها مبالغة ولا اختراع؛ لأن عش الفوهرر معروف مشهود مكرر الوصف في أقوال الكتاب، لا خفاء به ولا مثيل له بين مساكن العقلاء. وقد بلغت تكاليف بنائه وتأثيثه وتعبيد طرقة الملايين من أرزاق شعب يشكون باسمة الضنك والفاقة، فهو وليد التفكير المتسلسل الدائم وليس بالنزوة التي لا تلبث أن تطرأ حتى تزول.

ومثل هذا المولع بالإغراب في المسكن والاستكانة إلى المناظر المسحورة لا يُعهد في غير مَنْ أدمنوا المخدرات أو شوهدت عليهم أعراض المختل نفسياً.

ففي تاريخ بافاريا كان هناك ملك من هذا القبيل كان يزين الأشجار بالمصابيح المستورة ويحف الغرف بالسراديب المسحورة. ثم طبق عليه الجنون فمات في إحدى نوباته وقيل إنهم قتلوه.

وفي تواريخ الملوك الهمجيين أو أنصاف الهمجيين "قلعة" كهذه القلعة الهتلرية بناها الملك الزنجي خريستوف الذي استقل زمناً في أوائل القرن التاسع عشر بالسيطرة المطلقة على جانب من جزيرة "سان دومينيجو"؛

فقد عنَّ له أن ينفرد بقصر لا نظير له في قصور الملوك، فأمر ببناء قلعته المشهورة على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم، ولبث المهندسون يعملون فيها خمس عشرة سنة، ورفعوا جدرانها من ثمانين إلى مائة وثلاثين قدماً وعرضوها من عشرين إلى ثلاثين، وأحاطوها بثلاثمائة وخمسة وستين مدفعاً على عدد أيام السنة: كل يوم مدفع لا يتكرر في سائر الأيام: ثم شُل هذا الطاغية فأيقن بزوال ملكه واقتراب يوم هلاكه، فأعد لنفسه قذيفة من الذهب أطلقها على صدره من مسدسه يوم هجم الثوار عليه.

يا للقدر من ساخر قدير! فهذه القدوة الصالحة لزعيم (الآريين) وصفوة الجنس الأشقر زنجي أسود منتكس الخليقة، وليته زنجي سليم!

ولا شك أن النزعات "المسحورة" التي من قبيل نزعات هتلر لا تنشأ بين يوم وليلة ؟ فهي داء قديم قد لازمة في شبابه وكمن في طويَّة نفسه وامتزج بأفكاره وآماله. وقد روى (هانيش) زميله في صباه وشريكه في بيع تذاكر البريد: إن هتلر شهد يوماً وهو في الحادية والعشرين شريطاً من الصور المتحركة عنوانه "النفق" يخطب فيه رجل يلقي خطبته في نفق ويصبح بعد ذلك زعيماً لبلاده، فالتهب هتلر شوقاً إلى محاكاة ذلك الزعيم وخطر له أنه يفتتح زعامته بفاتحة فخمة لو تسنى له أن ينشئها بخطبة يلقيها في نفق من الأنفاق. وتحدث بهذه الأمنية الساحرة إلى زملائه فضحكوا منه وأثقلوا عليه المزاح.

وهناك كانت قصور تُبنى ثم تُهدم في برلين، وشوارع تُوسع جوانبها على الرغم من جدة المباني التي تشرف عليها، ثم لا يكون لتوسيعها من سبب إلا أن تصبح أوسع من مثيلاتها في أوروبا وأمريكا، ومكاتب يُباهون بجلب الخشب لها من ثماني عشرة مملكة، ومظاهر شتى من

مظاهر الروعة لا يضنون بالمال عليها، وكلها فيما نظن وليدة الطبع المنتكس وترجمة ذلك "الخطاب في النفق" الذي لا يزال يُترجم في عالم السياسة كما تُرجم في عالم البناء.

نعم لا يزال يترجم في عالم السياسة ليوقع العالم في مجاهيل لا حدَّ لها من جراء هوسة غالبة.

وإلا فما هو "صرح الدولة الجرمانية التي تسود العالم بأسره" إن لم يكن نسخة في عالم السياسة من قصور ألف ليلة أو من صومعة الجبل التي وصفها السفير؟

إنه لصرح يهرب به العقل المصروع من عالم الصواب والرشاد إلى عالم الجنون والبذخ والتهاويل.

إنه ناطحة سحاب أو مخبأ في سرداب، أو حجاب لا يستر ما وراءه من التبلبل والاضطراب.

وشأن هتلر في الطعام كشأنه في السكن من الولع بالغريب والجري على سُنَّة الإخراج المسرحي، والتعاظم بأمثال الإشاعات التي تُشاع عن كواكب الصور المتحركة فيما يأكلون ولا يأكلون، وفيما يلبسون ويخلعون.

تارة يقال إنه صائم عن اللحوم، وتارة يقال إنه لا يستنزل الوحي إلا بأصناف الجوز والبذور، ويوماً يقال إنه ترخَّص فأباح نفسه البيض وحساء الدجاج، ويوم ينقضي على هذا فيقال إنه عاد فحرم على نفسه ما أباح. وهكذا دأبه في التبغ والجعة وسائر المرطبات.

إخراج مسرحي لا أكثر ولا أقل.

فإن كان وراء الإخراج المسرحي حقيقة فهي شيء تافه لا غرابة فيه ولا موجب فيه لكل هذه الأقاويل.

رجل يصاب في صدره فتيًا فيدرج على كراهة التدخين، ورجل لا ينام أحياناً من أثر الهستيريا والإجهاد فيهجر القهوة حيناً، ويشربها حيناً لأنها لن تضيره مع السهاد.

ورجل يرث بنية الفالج والنوبات ويقضي السنوات وهو لا يدرك الوجبة الواحدة في اليوم أو الأيام المتوالية، فيعتريه عسر الهضم ويتقلب في اختيار المأكولات، ويعيى بكأس من الشراب الشديد.

وكل هذا مألوف لا غرابة فيه، ولكن كيف يتفق هتلر والمألوف؟ وكيف يخيل إلى الناس أن هتلر يأكل كسائر الناس:

إذن تنقلب المألوفات فإذا هي رياضة ونسك واتصال بعالم الغيب وترفع عن ضعف الآدميين أبناء الفناء.

وإذا أنالته البساطة ما تنيله الفخفخة من التهويل واللغط والاستغراب فلا ضير إذن من البساطة المسرحية على شريطة أن تكون شيئا يطاق: كسوة تُخلع ثم تلبس بعد ساعات، وليست كوخاً يسكنه ما عاش.

وإن الناس إذ يشهدون هتلر في كساء بسيط ليقولون: انظروا وانظروا وأعجبوا أعجبوا... أكثر ممَّا يقولون انظروا أو أعجبوا لهتلر في الطيالس والفراء.

ولهذا تأخذ البساطة نصيبها من مظاهر هتلر، ويكون فيها بالفخفخة والإغراب مما يكون في الحلل والحدي المسوَّمات.

ونظرة خفية إلى نقائض النفس الإنسانية تُرينا أن بساطة هتلر في الكساء وغرابة هتلر في البناء هما عنوانان لصفة واحدة، أو هما فرعان لجذع واحد: هو الغرور والادعاء.

فهتلر البسيط في كسائه لا يَتَشَبَه بعلية النبلاء في لبأسهم الفاخر

لأنه يعلم أنهم يترفعون عنه ويعتزون عليه بالحسب والعراقة فيتحداهم ويأبى أن يعترف لهم بأنه نسي أصلة وانساق لأصولهم، أو بأنه دونهم في القدر لأنه يتشبه بهم ويود لو نشأ على غرارهم.

ولكنة لا يصنع هذا الصنيع في بناء الصوامع والقصور، فلماذا يتفخَّم هنا ويتبسط هناك؟ ولماذا يختلف فعلة في كسائه من فعلة في مأواه؟

لأنه خليفة "ميكل أنجلو" في عبقرية النحت والعمارة: فالناس لا يقولون إذا رأوه في الصرح المشيد: "ذاك هو المحدث الذي يتشبه بالمعرقين!" بل يقولون: "ذاك هو الفن العبقري! وتلك هي القريحة النادرة التي تتجسم للعيان بإعجاز بارئها القدير!"

وكلاهما غرور، وكلاهما ادَّعاء!

فالرجل ناشز في تبسُّطه، هارب من الواقع فيما يدعيه ولا يدعيه، متعلق بالقصور المسحورة والأبراج الخرافية سواء بني في عالم السياسة أو بني في عالم المعمار.

كفاءته الذهنية

هل كان هتلر عبقريا أو مبدعاً أو متفوقاً ذهنيا على أقرانه والمشهور عن زعماء السياسة أنهم لا يعلمون كل ما يُنسب إليهم، ولا يكتبون كل ما يكتب بأسمائهم، وهتلر ليس بالاستثناء من هذه القاعدة.

ففي برلين مكتب برئاسة سبير أستاذ العمارة "ينفِّذ" ما يوحي به الزعيم من الخواطر والرسوم في إقامة المعاهد وفتح الطرق والميادين.

وقد يختلف المختلفون فيما هو لهتلر وما هو لمكتب التنفيذ من تلك الخواطر والرسوم. فكثيراً ما يكون الفضل كله للمكتب في ابتداع الرسم

وإنجازه ثم يقال إنه من عمل الزعيم أو الرئيس، وكثيراً ما يعرب الزعيم أو الرئيس عن رغبته بكلمة واحدة ثم تأتي التفصيلات بعد ذلك على يد أعوانه، وهو لا يدري بها إلا عند إنجازها والاحتفال بإبرازها.

هذه أمور شائعة لا يجهلها المطَّلعون عليها في الدواوين، إلا أن الحقيقة الراسخة من وراء كل جدل وكل مراء هي أن الفنان الموهوب لن يترك فنه ليعقد مصيره بالسياسة وغيرها من المطالب كائناً ما كان نصيبه منها؛ لأن الهبة الفنية كالوظيفة العضوية التي لا تقبل الإهمال، ولا تزال في إلحاحها عن صاحبها كالهيام القلبي في إلحاحه على العاشق الممتلئ بالحياة، فلا هو يغفل عنها ولا هي تمهله إلى زمن طويل.

وهذه الحقيقة وحدها - بنجوة عن جميع الأوقاويل وجميع الأسانيد - هي الحكم الحاسم في كفاءة هتلر الفنية، أو فيما يدعيه من مواهب التصوير والبناء. فهي لن تعدو الطبقة الوسطى بحالٍ، ولن تتجاوز نصاب التذوُّق الشائع بين مصطنعي النقد والموازنة في الفنون، حتى لو أسندنا إليه جميع الرسوم التي تحمل اسمه في متحف العمارة بمدينة ميونيخ.

ومن خصائص هتلر أنك لا تجد فيه صفة واحدة "خالصة" للعظمة وصحو العقل والطبيعة؛ فكل صفاته النفسية والفنية ملتبسات بين الاضطراب والسلامة وبين الهبوط والرجحان.

مثال ذلك أنه يعجب بالموسيقي الكبير "فاجنر".

وفاجنر هو الموسيقي الذي يُعجب به المجانين والعقلاء؛ فقد كان راعية الأكبر الملك لدفيج البافاري مخبولاً مات في خبله، وتتفق الآراء بعد ذلك على أن فاجنر هو موسيقي المردة "والشخصيات" المنتفخة التي تقرب من التشوّيه ومن المسخ الكريه، يسمعه العاقل فيعجب

لحسن تمثيله هذه "الشخصيات" العجيبة وحسن تعبيره عنها بالأصداء والألحان، ويسمعه المجنون فيلمس من سريرته موضع التشويه والانحراف، ويرى نفسه مفهوماً على نحو من الأنحاء.

وهتلر ينكر "موسيقى الجار بند" وما شابهها من فنون النحت والتصوير الحديث التي كان يتزعمها يعقوب إبشتين Jacob Epstien.

ولكنة يذكر كل شيء حسن أو قبيح مصدره من الزنوج كتلك الموسيقى، أو كفن النحت والتصوير الذي تزعَّمه إبشتين وإخوانه في الطريقة؛ فإن إبشتين له عند هتلر سيئتان لا سيئة واحدة؛ لأنه إسرائيلي فهذه هي السيئة الأولى، ولأن تماثيله قريبة في طريقتها من طريقة الأصنام الإفريقية؛ فهذه هل السيئة الثانية.

وقد أبى هتلر أن يصافح الأوائل من الزنوج الحائزون على الألقاب الرياضية العالمية وهم ضيوف بلاده، فإذا كانت ألعابهم لا ترضيه وهي العاب الرياضيين في جميع الأمم البيضاء أو السمراء فهل ترضيه موسيقاهم وهي شيء يجوز أن يختص بالزنوج دون سائر الشعوب؟

وعلي هذا النمط يصحو ذهن هتلر مقسَّم بين العَوِج والاستقامة، وبين العلة والعافية، فلن يفهم أبداً على وجه الصحة وحدها في حال من الأحوال.

وما يقال عن التصوير والموسيقى يُقال من باب أولى عن الكتابة والتأليف؛ فإن أحداً من أتباع هتلر لا يدَّعي له ملكة الكتابة الموهوبة، ولا يثني على أسلوبه ثناءه على أسلوب بارع أو جميل، وإن حسبوا كتابة "كفاحي" إنجيلاً للنازيين.

والشائع – حتى في أمر هذا الكتاب – أن تفكيره مستمد من الجنرال

كارل هوشوفر Karl Haushofer صاحب مذهب السياسة الجغرافية أو "سياسة الجغرافية" التي تعد من مبتكراته، والتي يتولى إدارة معهدها الأعلى بمدينة ميونيخ Geopolitics.

وإن هسHess كاتب هتلر الخاص قد اشترك في تأليف كتابة وتنقيحه، وأصبحت له حصة فيه يُعطاها كل عام. وقيل إنها لا تقل عن خمسه آلاف جنيه.

لكن الطابع الهتلري مع هذا موجود متكرِّر فيما ينسب إلى هتلر من خطب أو رسائل أو أحاديث.

فليس هو عالة على أعوانه ومساعديه، وليست اللهجة الغالبة في كتاباته لهجتهم، بل لهجته هو التي تتكرر على وتيرتها المعهودة، في كل خطبة وكل رسالة وكل حديث.

وفي اعتقادنا أن الرجل لا يخلو من عبقرية، وهبةٍ ذهنية وهو اعتقاد الكثيرون لكننا يجب أن نحترس في فهم معنى العبقرية هنا لنفهم منها ما نريد في هذا السياق.

فعند جمهرة الناس أن العبقرية هي أعلى مراتب الذهن وأرفع طبقات التفكير. وهذا خطأ وهو ما لم يكن موجوداً في هتلر على الإطلاق.

فإنما العبقرية حالة تصاحب كثيراً من المراتب الذهنية، وتشاهد في كثير من الصناعات: فهناك الفيلسوف العبقري والنجار العبقري، وهناك القائد العبقري والخادم العبقري، وهناك عبقرية الإصلاح وعبقرية الإجرام، وهناك عبقريات لا نهاية لها في أرفع الصفات وفي أوضع الصفات، كأنما هي حالة الاتّقاد التي تشترك فيها جميع الأجسام على

درجات مختلفة من الحرارة.

ولا يلزم أن تكون الفكرة العبقرية "أحسن"، فكرة من قبيلها، بل كل ما يلزم أن تكون الصبغة العبقرية بادية علمها.

وهذه الصبغة ممَّا يصعب تعيينه وتوضيحه، ولكننا نُقرِّبها بعض التقريب ونوضِّح ما نعنيه بها جهد المستطاع.

فالعبقريه أقرب إلى الغريزة والبداهة منها إلى التفكير المسبب والقياس المدروس.

ولها خاصية الحماسة والتوهج والرغبة، فلا يباشرها الإنسان وهو كارهٌ أو طامع في الجزاء، بل يباشرها كأنه مقبل على رياضة شائقة ومتاع محبوب.

والعبقرية تضلل مَنْ يراقبها أشد التضليل؛ لأنها تفاجئه بالمتناقضات وما هي في باطن الأمر بالمناقضات، إذا نحن نظرنا إلى بواعثها ولم ننظر إلى عوارضها وأشكالها. فالعبقرية شخصية.

والعبقرية طلاقة من القيود.

كل عمل يعمله العبقري فهو مسحة من لوازمه الشخصية لا محالة، فهو من ثم مُطَّرد على قياس.

وكل عمل يعمله العبقري فهو خارج فيه على القيود، ثائر على القواعد والمصطلحات: فهو من ثم لا يفتأ مخالفاً للمتوقع والمألوف.

وها هنا التناقض الظاهر.

ونخطو وراء هذا التناقض الظاهر فنرى "مفتاح الشخصية" الذي يفسر لنا كل نقيضة ويعلل لنا كل مستعص على التعليل.

مثال ذلك غريزة الهجرة في الطيور، وقد قلنا إن العبقرية أقرب إلى الغريزة منها إلى التفكير.

فالهجرة لها - ولا ريب - غاية واحدة هي طلب الغذاء والسلامة من برد الشتاء، وبوحي هذه الغاية يهتدي الطير إلى الأوقات والمسافات هداية لا تجاريها في الدقة أرصاد الملاحين وآلات الفلكيين.

لكنها مع هذه الدقة سبب الغرق والهلاك لألوف الألوف من أسراب الطير، التي ما تحركت إلا ابتغاء السلامة والغذاء.

ومثال آخر غريزة التناسل ودوام الاتصال بين الجنسين.

فلماذا يستأثر الرجل بالمرأة؟

طلباً للذرية لا مراء.

وماذا يصنع الرجل الذي يرى ابناً له يخونه في زوجة؟

إنه يقتله أو يهم بقتله!

وهنا التناقض الظاهر؛ فهو يقتل ذرية حاصلة إذ هو يطلب الذرية المجهولة المشكوك فيها.

ولكنك مع ذلك تفهم معنى هذه الغيرة واستقامتها مع الطبيعة، وترى ما وراء التناقض الظاهر من القياس المستقيم.

وهكذا تناقض العبقرية، إنما هو تناقض في الظاهر، واستواء عند الرجوع إلى أسرار الشخصية الخفية.

وهذه هي خصائص العبقرية التي حاولنا تقريبها وتوضيحها منعاً لخطأ المخطئين إذ يفهمون أن العبقرية هي أرفع مراتب العقول، وأن الفكرة العبقرية هي "أحسن" ما تجود به الأفكار.

كلا! ليست العبقرية بأرفع مراتب العقل ولا هي بأحسن ضروب التفكير.

ولكنها "حالة" على الوصف الذي قدمناه توجد في الذروة كما توجد في، الحضيض، وتنتظر في الترياق كما تنتظر في السم الرعاف.

وعبقرية هتلر هي عبقريته في، إدراك الجماهير ومراوغات السياسة، فما يفهمه في هذا الباب هو شيء بمعزل عن الاطلاع، وعن الخبرة المألوفة، وعن الدرس والتعليم، وهو شيء أقرب إلى تفاعل المواد وتبادل الأثر في الأجسام؛ فمن الجماهير يعلم ما تريده الجماهير، وفي وثبة الساعة يفعل ما تدفعه إليه وثبة الساعة. وبينما هو مهتد في المسافات الطويلة بهداية كهداية الطير المهاجر بلا خريطة ولا إبرة مغناطيسية ولا دليل، إذا هو يفرق كما يفرق الطير في اللجية التي يراها بعينيه ولا يقوى على اجتنابها.

ويدعونا إلى اعتقاد العبقرية السياسية أو العبقرية الشعبية في هتلر أن سياسته لها طابع، وأنها تتسم بحماسة الرياضة ولا تتسم بقيود الشغل وحدود النظام، وأنة يهجم هجوماً يخيل إليك أنه بالغ به الغاية المنشودة، ولعله هو العقبة المهلكة التي تنكل به أشأم النكول عن تلك الغاية.

وفي تفكير العبقري أبداً حساب "حسبة مجهولة" كالحسبة التي يرمز لها الرياضيون بحرف "س" ويرمز لها جماعة التطور بالحلقة المفقودة.

هناك أبداً حسبة تتقطع فيها سلسلة التفكير ولا تنتظم إلى النهاية، أو نهايتها القصوى هي "إن قلبي يحدثني بهذا" وكفى.

وهتلر عندما يذكر "العناية الإلهية" كأنها لا تريد إلا ما يريد ينم على غرور عظيم، ولكنة لا ينم على الغرور وحده بذلك، ولا يختار في، الحقيقة ما يقول.

إذ "العناية الإلهية" في عرفة هي الكلمة التي يسد بها فراغ تلك الحسبة المجهولة أو الحلقة المفقودة.

يسأل نفسه: لماذا أريد هذا ؟ أو لماذا لم يتم ما أريد؟ ثم يعييه الجواب الصريح.

يعييه الجواب لأن هناك أسباباً يجهلها ولا يستطيع تنظيم حلقاتها إلى نهايتها، فكلمة "العناية الإلهية" تسعفه إذن في سد هذا الفراغ.

وقد يقال إن هتلر مغرور حين يتخيل أنه سينجح في الحرب لأنه يريد ذلك والعناية الإلهية لا تريد إلا ما يريد.

ولكن هتلر يقول أيضاً في كتابة إن العناية الإلهية قيضت له أن يفهم في شبابه لماذا فشلت أحزاب نمسوية ونجحت أحزاب أخرى، وأنها علمته أن حركات الجماهير لا تتم بغير اشتراك الجماهير، وأن الانقلاب القومي لا يضطلع به الأقلية دون السواد ... فأي لغز من الألغاز في هذه البداهة التي ظن هتلر أن العناية الإلهية تسوقها إليه؟

كل ما هنالك أنها الحلقة الناقصة في سلسلة الأفكار المسببة، يملأها بما يرضي غروره ولا يدعوه إلى اعتراف بالجهل أو بالضعف عن النفاذ إلى كنية حوادث اليوم، وقضايا التاريخ.

وكلمة "العناية الإلهية" هي اللحام الذي يربط به هتلر ما تفكك من تفكيره ومقدماته، فمن قرأ كتابة أو تتبع خطبة فلن يرى أمامه بناء كاملاً متناسقاً إلا إذا صدق دعواه أن العناية الإلهية تريد كل ما يريد.

أما إذا شك في هذه الدعوى فليس أمامه بناء قائم. وإنما هو ركام فوق ركام.

هتلر الخطيب المفوه

في كل شهرة خطابية منافذ للمبالغة والإطناب لا بد منها في كل زمان، وفي زماننا الحاضر خاصة.

ومنافذ المبالغة والإطناب هذه تأتي من مصادر متعددة، بعضها بريء وبعضها متهم، ومنها المقصود المدَبَّر، ومنها الذي يحدث على غير قصد وتدبير.

فأول مصادر المبالغة والإطناب جمهور السامعين، وهم كدأب الجماهير يحبون أن يتأثروا وأن يخلقوا لأنفسهم دواعي الحماسة والمغالاة، وأن ينوِّموا أذهانهم تنويماً يسهِّل لهم أن يعتقدوا ما يحبون اعتقاده، وأن ينساقوا في موجة من الشعور لا تطيق الحدود، ولا تقف دون الإعجاب الكامل: لأن الموقوف عند حد من الحدود المعقولة يفسد الحماسة، وليس إفساد الحماسة ممَّا تطيقه الجماهير.

وهي – أي الجماهير – طبقات في هذه الخليقة: ترتفع أو تهبط، وتعتدل أو تجمح مع الشطط، على حسب موقفها من الخطيب وموضوع الخطابة.

فإذا كان موضوع الخطابة نعرة قومية أو شهوة عدائية يشترك فيها الخطيب والسامعون، فالجمهور في هذه العالة على استعداد للحماسة والإطناب بغير مقدرة كبيرة في الخطيب.

وإذا كان السامعون مرءوسين لذلك الخطيب أو أتباعا متشيعين لحزبه، يكرهون الغض منه لأنهم يحسبونه غضا منهم، ويحبون إكباره

لأن كبره منسوب إليهم؛ فهم إذن أكثر استعدادا للحماسة والإطناب.

وإذا كانوا فوق هذا صغاراً ناشئين يفورون بحرارة السن الباكرة، فأحرى بهم وهم جماعات وجماهير أن يستسلموا لما يسمعون، وألا يجشموا الخطيب معجزة الإبداع، ليستجيش بها قلوباً هي من قبل ذلك لا تهدأ من الجيشان.

فأدنى الجماهير إلى التسليم هو جمهور صبية ناشئين يصغون إلى زعيم يفخرون به فخر العصبية، ويسمعون منه صيحة الكبرياء الوطنية ... وهذا هو جمهور هتلر في جميع المواقف، إلا القليل الذي لا يذكر.

وقد شهد الناس في مصر مجامع يحتشد لها السامعون زرافات زرافات من جميع الطرائف والأسنان، ليسمعوا كلاما يعلمونه ويحفظونه، من خطيب لا يعجب السامع بصوته ولا بإيمائه: بغية الاجتماع في الواقع لا بغية الاستماع.

ثم تتكرر الدعوة ويتكرر الإقبال ويتكرر التصفيق الذي لا باعث له إلا الرغبة في شيء يثير الشعور ويافع السامة و "يبرر" للجمهور وجوده وسعيه وانتظاره، ويريحه من الحكم على "وجوده" بالفناء. والفناء كريه إلى كل موجود، جمهوراً كان أو غير جمهور!

وفي وسعنا أن نشهد كل يوم حشداً من الناس يبذلون من مالهم ليستمعوا إلى ممثّل مضحك مشهور في دور من الأدوار. فما هو إلا أن يلفظ الكلمة الأولى هتي ينفجر السامعون بالضحك والقهقهة، وربما سأل أحدهم جاره: ماذا قال؟ بعد أن يكون قد ضحك مع الضاحكين!

فالمصدر الأول: للمبالغة والإطناب في شهرة الخطباء هو أبرأ المصادر وأخلاها من الغش وفساد الذمة، وهو دفاع الجمهور عن وجوده حيث انتظم له وجود.

والمصدر الثاني: وسط بين البراءة والاتهام، وبين الاندفاع والتدبير، وهو مصدر الرواة وكتاب الأخبار.

فإن الصحيفة الإخبارية لتتعمد التهويل والإغراق في وصف حادثة هيِّنة لا تستحق الالتفات إليها؛ لأنها تريد من القراء أن يلتفتوا، وتعيش من التفاتهم إلى ما تكتب، لا من تعويدهم أن يُهملوا الأخبار التي تستحق الإهمال.

والكاتب ألذي يسافر ألف ميل لينقل خطبة يلقيها أحد الزعماء في يوم مشهود مرتقب المصير من المغرب أو المشرق قد يفقد وظيفته إذا قنع بما دون الإعجاز في وصف ما سمع وما رأى، وما لبث الناس ينتظرونه ويتكهنون به متشوقين متلهفين:!

وقد تتفق الرواية الأمينة في الصحيفة الرصينة فيقرأها المسئول ويعرض عنها طالب المناظر والعناوين ممن ينظرون إلى مسرح السياسة كما ينظرون إلى مسرح التمثيل، وهم جمهرة القراء في كل مكان، فيتواتر النبأ المبالغ فيه وينقطع النبأ الذي يحرص على الصدق، وينتهي الأمر برواج الكذب والتلفيق، وبالشك في الصدق والأمانة.

فمبالغة السامعين ومبالغة الرواة ملازمتان لكل شهرة سياسية في كل زمان ولا سيما زماننا الحاضر:؛ زمان النشر والإذاعة، وزمان التشوُّف إلى الجدة والغرابة ودفع الملل والسآمة.

ويأتي بعد مبالغة السامعين ومبالغة الرواة مصدر آخر من مصادر التهويل في الشهرة الخطابية قائم على النية السيئة والخطة المرسومة، ونعني به مصدر الدعوة المسخرة والأقوال المأجورة، وهو سلاح يعتمد عليه النازيون خاصة فوق إعتمادهم على سلاح الميدان.

وجميع هذه المبالغات قد بلغت في تعظيم شهرة الزعيم النازي (هتلر) أقصى ما يتاح لشهرة أن تبلغ على الإطلاق؛ فاهتمام النازيين بالدعوة المسخرة قد جاوز كل اهتمام، وجمهورهم أقرب الجماهير إلى التسليم والاستسلام، وحملة الأقلام ما فيئوا عدة أعوام يتنافسون في إشباع نهمة القراء بين جميع الأقوام.

فمن الطبيعي إذن أن تكون حقيقة هتلر الخطابية أقل كثيرا من شهرته التي أذاعها الدعاة والصحفيون والسامعون من أتباعه ومريديه، وأن يدخل في حساب شهرته كثير من المبالغة والاختراع و "الإخراج".

ونحن في عصر نسمع فيه الخطباء ونراهم على بعد، ونحكم على المتكلم في برلين أو موسكو أو واشنطون حكم راء وسامع.

وقد رأينا هتلر وسمعناه.

فهو ولا شك خطيب مبين، ولكن لا شك كذلك أنه ليس من ملوك الكلام في عصرنا الحاضر، وأنة لا يعد من طبقة الخطباء الذين يخاطبون كل جمهور ويتكلمون في كل قضية ويروِّضون عصي الأسماع، ولا نخالة يُحسن القول بضع لحظات في موضوع غير الموضوع الذي ظل يقلبه عشرين سنة، أو بين أناس غير الذين يوافقونه في الجملة، ولا يخالفونه.

فليس هو في إفاضة (بريان)، ولا في بادرة (لويد جورج)، ولا في مهابة (سعد زغلول).

ولكنة أقرب إلى الممثل الذي كرَّر دوره حتى حفظة ووعاه ووقع فريسة له فلا يقدر على تبديله.

تخيله مثلاً غير غاضب، أو غير متكلم في مظالم المانيا المزعومة، أو غير مطمئن إلى آذان سامعيه.

وتخيله واقفاً في لندن أو في موسكو أو في القاهرة يفاجئ السامعين على غير معرفة باسمة، ولا عهد بموضوع كلامه.

إنه إذن ضائع لا محالة.

وعيبه الأكبر أنه لا يقنع ولا يقيم الدليل، وأنة ما خرج قط على عادة واحدة تتردد في جميع مواقفه وموضوعاته، وهي إثارة الحفائظ وإضرام الكراهية ومواجهة السامعين من جانب الشعور المتفق عليه بينة وبينهم ... وفيم اجتهاده في إقناع مَنْ هو قانع؟ وإيمان مَنْ هو مؤمن بغير برهان؟

ومرجع هذه العادة عنده إلى علل كثيرة؛ بعضها أصيل عالق بطبعه، وبعضها حديث طارئ عليه من حوادث حياته وعصره.

فالحديث الطارئ عليه هو هذا الذي ذكرناه، وهو أنه تعود في أيامه الأخيرة على الأقل أن يخاطب أناساً لا يحاسبونه ولا يجسرون على حسابه، ولعلهم لا يريدون أن يحاسبوا لاتفاق الشعور بينهم وبينه.

والأصيل العالق بطبعه أنه فقير في العاطفة الشخصية، غني في العاطفة الشعبية، أي العاطفة التي تربط بين الفرد والجماهير.

والعاطفة الشخصية هي التي تربي عادة المساجلة والمحادثة، ومواجهة العقل للعقل، والنفس للنفس، والإصغاء في موضع الإصغاء، والإثبات بالحجة الصادعة في موضع الإثبات.

فالرجل المفطور على عاطفة يساجل بها العواطف، وفكرة يقابل بها الأفكار، يقول ويسمع، و يستميل الفرد بالوسائل التي يستمال بها الأفراد، مرة بالإيحاء ومرة بالدليل ومرة بالشرح المفهوم، وفي كل مرة يتبادل الثقة والاعتراف بحق المناقشة والاعتراض.

أما الرجل الذي نضبت نفسه من جانب العاطفة الفردية، والذي ليس عنده ما يتبادل به مودة بمودة أو فهماً يفهم أو خاطراً بخاطر، والذي انقطعت جميع الوشائج بينة وبين إخوانه من أبناء آدم إلا الوشيجة التي تكون بين الواحد والألوف أو بين الداعية والجمهور؛ فذلك رجل محدود القدرة على التحدث والتفاهم وعلى الإصغاء والإقناع، محتوم عليه أن يجد جمهوراً يستمع له. ويكتفي منه بالاستماع، أو أن يتخيل نفسه قائماً بين جمهور وإن كان في مجلسه أفراد قليلون.

لهذا اشتهر هتلر بالمتدفق في أحاديث السياسة ساعة بعد ساعة دون أن يقف أو يتمهل أو يسأم التكرار. فإن لم يتدفق في أحاديث السياسة فهو بين حكاية نادرة أو إعادة ملحة مطروقة، أو سرد تاريخ قديم، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فليس في مجلسه إلا السكرة والوجوم.

فهتلر الفردُ "معدوم".

أما هتلر الموجود فهو البرق الذي ينفخ في الجماهير أو يردد صدى الجماهير.

وانظر إلى صوره وهو في مواقف التفاهم والتحادث تر أمامك صوراً فاترة باهتة تنطق بالتكلُّف ونقص الحياة وتبعث في نفس ناظرها الريبة والنفور.

أما الصور التي يحيا فيها وتلبسه الحركة والشدة فهي الصور التي ينقطع فيها التفاهم ويثور فيها الغضب وتتأجَّج فيها البغضاء.

وماذا ترى في هذه الصور؟

إن الخطباء الحماسيين جميعاً ليغضبون، وإنهم جميعاً ليحركون الغضب في الجماهير.

إلا أن الفرق بين غضب وغضب لفرق عظيم، وإن الاختلاف بين حماسة وحماسة ليفرق الاختلاف بين القوة والمرض، وبين الجلال والهوان.

رأينا سعد زغلول وهو غاضب في خطبة فرأينا غضبا كأنه السيف يصول به الفارس، ويعرف كيف يصول.

ورأينا هتلر وهو غاضب في خطبة فماذا رأينا؟ رأينا غضبا كأنه الدُّمَّل المفتوح ينفس عن ضغينة كامنة كأنها القيح المحبوس، فهو فرصة للألم والتلذذ بالألم في وقت واحد، وهو علاج للتنفيس عن داء، وليس بالسيف في أيدي الأقوياء.

هو نوبة مصروع وليس بوثبة صارع.

وهو منظر تزورُّ منه العيون، وليس بمنظر تودُّ العيون أن تمتلئ منه.

وهو رقصة الهمجي في حومة الدَّم أمام أوثان النقمة والتشفي، وليس برقصة الفارس في حومة البرجاس.

وقد وإذا نظرنا إلى صوراً عدة لهتلر وهو يخطب، أو وهو يغضب؛ فأية صورة من تلك الصور يا ترى يستطيع القارئ أن يكتب تحتها مثلا: "هذه صورة هتلر يزأر أو يزمجر؟"

إن هذا الكلام ليكتب تحت صور كثيرة لمصطفى كمال أتاتورك أو لسعد زغلول، ولكن هتلر - على عنايته بصوره واتخاذه رساماً خاصاً يتبعه في جميع المحافل ويوزع في أقطار العالم ألوف الصور بل عشرات الألوف منها – لا توجد له صورة واحدة تُخيِّل إلى الناظر هيئة الأسد المزمجر أو الأسد الغاضب، وكلها بلا استثناء ممَّا يصح أن يكتب القارئ تحته: "هتلر يعوي" أو هتلر "يلطم" ... ولا جناح عليه.

ومن المعقول أن رجلاً كهذا يحب حلقات الخطابة التي يتزين فيها لشياطين غروره وحقده كما تتزين المرأة المجنونة لشياطين الزوار، ويستريح فيها للهياج والتهييج كما تستريح تلك المرأة لصرعة الرقص

وجلَبة الطبل ورؤية الذبائح وهي تتخبط في الدماء.

ومن المعقول جداً أن يكره مواقف المفاوضة والتفاهم لأنها تطلعه على عجزه وتكشف له عن خواء طبقه، وتخرجه منها وهو في رأي نفسه أقل ممن حوله ... إلا أن يلجأ إلى التهديد بالحرب كما يفعل في معظم أحاديثه؛ فهو إذن في موقف الإملاء وليس في موقف المفاوضة والإقناع.

وقد سُجلت كلماته في المفاوضات التي دارت بينة وبين سفراء الدول ورؤساء الحكومات، فإذا هي عبرة العبر وأضحوكة الأضاحيك: لا يكون فيها إلا ممثلا يراوغ، أو مهدداً يتوعد، أو منكراً لما يقال على طريقة الأطفال والنساء الجاهلات، إني أنكر هذا لأني أنكر هذا، ولا مزيد ...

ناقشة مستر شامبرلن رئيس الوزارة الإنجليزية في الشروط التي فرضها على حكومة براغ وأوجب عليها فيها أن تُخلي الأرض المطلوبة وأن تبدأ الإخلاء في الساعة الثامنة من صباح السادس والعشرين من شهر سبتمبر (1938) وأن تتمه عند انتهاء اليوم الثامن والعشرين.

فقال لمه مستر شامبرلن إن هذا إملاء "إنذار نهائي" بغير حرب، وبغير هزيمة، على أمة قبلت المطالب وقبلت الاحتلال.

واختار شامبرلن كلمة "إملاء" عمداً لأن هتلر يذكرها كلما ذكر معاهدات الصلح ومعاهدة فرساي على الخصوص، ويعتبرها موجباً لفسخ تلك المعاهدات.

فما زاد هتلر على أن قال: "كلا، ليس هو إملاء". وأشار إلى رأس الورقة قائلاً: "انظر! إن الورقة مكتوب عليها كلمة مذكرة ..."

وهو كلام يقال للابسي القمصان في ساحة الخطابة فيقبلونه ويسيغونه، ولكنة لا يقال في مفاوضات وزراء وسفراء.

فالخطابة هي الميدان الذي يغلب فيه هتلر بهذا الأسلوب، ولن يغلب به في ميدان آخر.

وقد حذق من الخطابة ما يحذق بالمرانة ومساعدة السامعين المستعِّدين للإصغاء والتصديق، وأهمه تدفق الكلام وسهولة التعبير.

ولم تزوِّده الطبيعة من أدوات الخطابة الفطرية إلا بزاد واحد وهو انقطاع الصلة النفسية بينة وبين الأفراد، واضطراره من أجل ذلك إلى مواجهة الجماهير للشعور بالحياة ونشاط الإحساس. ومتى نشطت نفسه ودبَّت الحركة إلى ذهنه فلا يندر أن يلهمه الموقف بعض الخواطر البارعة التي يشل بها أعداءه في صورة مزرية أو صورة تستفز السخط والامتعاض، وكلها من ولائد الكراهية وليس فيها صورة واحدة وليدة عطف أو عناية بالآخرين.

ويختلف الناقدون في صوته اختلافاً لا يتبين الحقيقة فيه من يسمع الصوت منقولاً بالمذياع، وهو ينقل بعض الأصوات على أصلها ويعرِّض بعضها للتحريف وبعضها للتحسين.

فمن الناقدين من يعيبون على صوته خشونة تصك الآذان، ويقولون إنه أجرى العملية الجراحية في حنجرته لإصلاح هذا العيب.

ومنهم من يعجب بما في صوته من العمق ورنة التجويف، ويعده من أصلح الأصوات الخطابية لنقل الشعور الجارف والتهويل على السامعين.

وسواء كان العيب الذي يعيبه أولئك صحيحاً أو غير صحيح فالمهم في صفات الأصوات أن تؤلف بالتكرار، وأن يكون لها طابع ولون معروف، وعندئذ قد يصبح العيب حلية مرغوباً فيها مع النجاح والتوفيق.

سيماه

ترى ماذا كانت سمات هتلر الشخصية وهل كان زعيماً ؟

عصرنا هذا هو عصر الزعماء.

فقد شهدنا فيه كل ضرب من ضروب الزعامة على اختلاف شروطها ومقوماتها، وشهدنا فيه كل ضرب من ضروب الحركات الشعبية وكل جماعة من الجماعات التي تدين بالطاعة لزعيم.

شهدنا زعماء من طراز سعد زغلول ومصطفى كمال أتاتورك يقودون الأتباع بهيبة "الشخصية" الآمرة وطلعة السيد المطاع.

وشهدنا زعماء من طراز غاندي تحف بهم هالة القداسة ويأتمُّ بهم الناس كما يأتمُّون بناسك المحراب.

وشهدنا زعماء من طراز "دي فاليرا" يعيدون عهد القديسين المقاتلين بالصبر والثقة والمفاداة.

وشهدنا زعماء من طراز (موسوليني) يسري منهم النشاط الحيوي إلى أتباعهم كما تسري الحرارة في الأسلاك.

وشهدنا زعماء من طراز لينين يقنعون من يقنعونهم بقوة الفكر المتعصب والمنطق المنحرف واللدَّد العنيف.

وشهدنا زعماء من طراز (شيان كاي شيك) يقررون زعامتهم بصرامة العزم وحصافة الذهن ومثابرة الصبر والعتاد.

وشهدنا زعماء كأبن السعود يجمعون أكبر ما يجتمع في أبناء قومهم من الصفات، فيفهم الناس أن ابن السعود أكبر العرب لأنه أكبر عربي في طبائع الأمة العربية.

وكل هؤلاء الزعماء يراهم المتفرِّسون المتوسعون فلا يحارون في أسرار زعامتهم، ولا يجدون أنفسهم مضطرين أن يسألوا: لماذا كان هؤلاء زعماء؟ لأن الإيمان باستحقاق سعد زغلول ومصطفى كامل وغاندي ودي فاليرا وموسوليني ولنين وشيان كاي شيك وابن السعود لمنزلة الزعامة في أقوامهم لهو أسهل كثيراً من الشك في ذلك الاستحقاق.

وآخر ما يخطر على الباب أن يرى المتفرس المتوسع رجلاً كسعد زغلول أو غاندي على بُعد ما بينهما من التفاوت، ثم يخرج سائلاً: لا أدري والله ما الذي جعل هذا من الزعماء؟ إنه لا يسأل هذا السؤال لأن حيرة الشك هنا لا تحيك له في خاطر.

أما الذين رأوا هتلر - وقد رآه أكثرنا في الصور - فكلهم على ما نعتقد يسألون: أين سر الزعامة فيه؟ لماذا يستهوي الجماهير؟ وأي شيء يعوضه عن هيبة الزعماء؟

وعندنا نحن أن سر الزعامة في هتلر أنه هو "واحد مكَّبر" من جماهير النازيين، أو أنه هو "مكبر الصوت" الذي يعيد في الساحة الواسعة أصداء أفراد متعددين، لا يسمع الواحد منهم إلا إلى أمد قريب.

فهو رجل يستطيع كل فرد من أتباعه أن يتمثل فيه نفسه مجسماً معظماً بهذا التمثيل. ويقول في وعيه الخفي: انظر. انظر. هو ذا أنت. هو ذا نموذج منك في نطاق كبير.

وهتلر من أجل هذا ضائع "المعالم الشخصية" لأنه في صميمه ولبابه مجموعة من ملامح الجمهور وليس بفرد عظيم له ملامح فرد عظيم.

ولو وضع في وسط خمسة أو وسط خمسين أو وسط خمسمائة لكان حيرة الحائر في الانتقاء والاستخراج؛ لأنه صورة لا تتميز من سائر

الصور إلا إذا انتزعتها من بينها لتكبيرها.

فكل خصلة في رجل الشارع فهي في هتلر أضخم وأجسم، ولكنة يلبسها كما يلبس الممثل دوره فلا يناقضك "بشخصية" مقررة تثير المقاومة والمناظرة، ولا يشعرك بالغضاضة أن تجلسه على كرسي الرئاسة؛ لأنك أنت الذي أجلسته عليه وأنة الكاسب عند الموازنة بين نصيبك ونصيبه، فإنما هو "شخصية مسرحية" وأنة الحقيقة الحية على كل حال.

وانظر الفارق مثلا بينة وبين بسمارك، أو بينة وبين هندنبرج، أو بينة وبين مولتكة، أو بينة وبين أصحاب القيادة السياسية والحربية في أمة الألمان على الإجمال.

نعم إنهم ألمانيون في الصميم، وألمانيون في الخلق والسحناء، ولكنهم ألمانيون ينفردون بملامح لا تنغمر في ملامح السواد، وليسوا بالقناع الألماني الذي تتساوى فيه الوجوه.

ماذا يبقى من بسمارك إذا نزعت عنه جلباب قومة؟

يبقى كثير.

وماذا يبقى من هتلر إذا جردته من ذلك الجلباب المسرحي أو من تلك ألصبغة العمومية؟ لا شيء.

ولا شيء يبقى منه أيضاً إذا عزلته عن الحركة النازية في أوانها المعلوم ودواعيها المسبوقة: "فهتلر غير النازي" لن يكون له وجود، وبسمارك موجود ولو لم يطرق باب الديوان.

قال كارل شتيبانك الممثل الذي رأى هتلر على القرب، وكان هتلر يشهد رواياته ويخلع عليه الجنسية الآرية على الرغم من نشأته التشكية: "دخل الغوهرر فقال: هيل! ... تحية النازيين. إني مغتبط بحضورك إليَّ

فأجبته: هيل! ورفعت يدي بالتحية المعهودة.

ثم لفظ ببعض كلمات دارجة وسيما، التفكير بادية عليه، أما عيناه اللتان اشتهرتا بلون الحديد فكانتا تنظران تجاهي ولا أقول تنظران إلي. وطالما سألني أناس من الإنجليز عن تينك العينين ما هما وما لونهما؟ فالحق أقول إنني ما استطعت قط أن أعطيهما لوناً من الألوان الرمادية أو الزرقاء أو الخضراء، إن في تحديقهما ولا شك شيئا غير مقبول، فإن وصفة بعضهم بالمغناطيسي فهو فيما رأيت أقرب إلى تحديق الذين ينامون منه إلى تحديق الذين يُنيمون"

وقال السير نيفيل هندرسون السفير البريطاني الذي كانوا يلقبونه في إنجلترا "بالنازي" لفرط رغبته في مسالمة الألمان: "ألفت أن أسمع كثيرا من الألمان - ولا سيما النساء - يترنمون بإشراق سيماه وعينية خاصة، وكنت أنظر إليهما فأرى فيهما سخونة وغضباً: إذ لم يكن من حظي أن أراه إلا في المناسبات الرسمية. بيد أنني على الرغم من أعماله ومساعيه التي لا يستطاع الإقلال من شأنها لست أرى مناصاً من المصارحة بما أبقاه في نفسي من الأثر عند المقابلة الأولى أو بعدها، وذاك أنه لم يشعرني قط بأية سمة من سمات العظمة.

ولقد كان يسحر شعبة كما هو بيِّن بغير حاجة إلى بيان، وكانت له قدرة على الخلابة إذا أجمع النية عليها، فإنها كانت إحدى بضائعه ومخزوناته، وكان لها أثر شهدتُه غير مرة. وإن لم يكن لي منه نصيب.

على أنه في حالاته المعقولة كان يريكني أحياناً بسداده وحسن تدليله. فإذا سارت ثورته، وهي الحالة التي كان لها أبلغ السلطان على قومه، فكل ما كنت أصبو إليه ساعتئذ أن أرجوه تهدئة نفسه.

ورايت منه كثيراً من اعتزاز الفطرة وتأدباً حيثما لقيته، ونكني طالما تساءلت وما برحت أسأل: كيف صعد إلى هذه المرتبة؟ وكيف احتفظ بسلطانه على الأمة الألمانية؟ وجواب السؤال الثاني فيما أعتقد أن الألمان يحبون أن يسوقهم الحاكم المستبد، وأن حزبه ليس بقادر، وقد حصل على زعيمة. فلا حيلة له في إبقائه حيث هو إذا أراد أن يتقي الهدم والدمار".

وقال السير نيفيل في موضع آخر: "هذه القدرة على خداع النفس وإقناعها قد كانت جزءاً موصولاً بخططه وتدبيراته، وقد ساعدته عن إضرام عواطفه وإقناع شعبة بما يريدهم تصديقه. ويخيل إلي أنه إذا وقف غدا بين يدي الناس فلسوف يجادل يومئذ جدال المؤمن في ظاهر الأمر بأنه كان حريا أن يعصم أوروبا من أهوال الحرب لو قبل البولونيون شروطه المعقولة السخية!".

وزارته الرحالة المعروفة "روزيتا فوربس" Rosita Forbes فوصفت مظهره بالتفاهة في أحواله الهادئة وقالت: "يستطيع هتلر دائما أن يلوح لك في مسحة البساطة والبراءة على أتمها، وأن يحس ما يقوله في ساعة قوله، وفي تلك الساعة على الأرجح لا في غيرها! وهو لا يصطنع المعرفة الغزيرة، بل يتكلم في سهولة بالغة. وعيناه - إذا لزم موقف الدفاع - ولكنة يعكس لك ما يحسه متى اهتم بموضوع الحديث بكل ما يبدو لك من ملامحه وسائر كيانه ..."

وقال الأستاذ ستيفن روبرت: "إن ألمانيا الجنوبية طالما أنجبت الحالمين وتُباع الخيالات، على مثال ملك البجع لدفيج البافاري، فلا تزال بينهم نزعة القرون الوسطى لا تفارقهم. وهم يعيشون في عالم كأنه

الوهم بين جبال كأنها الخرافات التي لا ترى رأي العيان، وكأنما الحقول والبيوت التي لهم تخريج مسرح وتصوير ستار".

ثم قال: "وهتلر واحد منهم: ابن فلاح يزيد تعليمة قليلاً على تعليم كل ابن فلاح، ولكنة يستوي الآن في مكان يعلو على متناول الخيال في أعجب ما عندهم من قصص الجان.

وفي الحق إنه لا يخلو أبداً من هيئة إنسان مدهوش بعض الدهشة، وقد نبهني زميل من كبار أطباء العقول لا زمني في رحلة نورمبرج إلى هيئة هتلر وهو يشد نفسه من حين إلى حين في المحافل الكبرى ليكف عن الأحلام، كأنما هي حالة من حالات الشخصية المزدوجة، فهو لا يحب أن تبرز فيه صفات الفلاح الشائعة بين جمهرة الفلاحين، ولا يفتأ مذكراً نفسه بتمثيل دور الزعيم أو نصف الإله بين شعب عظيم، ونبَّهني ذلك الزميل إلى علامة أخرى من علامات هذه الخليقة، وهي إسراعه إلى تبديل ملامح المرض والاكتفاء التي تزحف إلى وجها أحيانا في وسط المواكب الشعبية ..."

هذه كلها ملامح رجل مطبوع على "الإيحاء الذاتي" أو مزاج الاستحضار الذي يستعين به الممثلون على تحضير الشخوص والأدوار.

فهو أبداً شخص غير شخصه، وهو أبداً لابس قناع من صبغة خياله، وهو أبداً بين جمهور وعلى مسمع من هتاف وتصفيق، وإلا فهو نكرة من النكرات.

ونحن نستفيد من أوصاف الذين راقبوه ودرسوه وقيدوا حركاته وسكناته عليه ... ولكنة لا يختفي عليه إذا اختفت أقوال هؤلاء أجمعين: لأننا كما قلنا في عصر الزعماء، وفي عصر المذياع يجوب القضاء، والصور المتحركة تتردد في الإرجاء، وليس لنا محيص من المقابلة بينة

وبين زعماء الأمم في زمانه، وليس في وسعنا بعد هذه المقابلة أن ننسب إليه صفة "ذاتية" كالصفات التي تتجل في أمثال سعد زغلول ومصطفى كمال أتاتورك وغاندي وموسوليني، ولا أن ننس الفارق بينة وبينهم في مقوّمات الزعامة؛ فهو مكبر صوت في ساحة عامة، وليس منهم جميعاً من تتحصر سيماه في تكبير الأصوات.

أصحاب هتلر

المرء علي دين خليله ترى من هم أصحاب هتلر وأصدقائه المقربين وربما كان أوفى الطرق وأقربها إلى دراسة نفس إنسان أن نفحص سيرة أصحابه وأعوانه الذين يعمل معهم ويعملون معه، ويحتاج إليهم ويحتاجون إليه.

فمن هذا الإلمام بسيرة أصحابه وأعوانه نعلم حقيقة العمل الذي يتفقون عليه: هل هو في مبرةٌ يتفق عليها أناس كرام، أو هو جريمة يتفق عليها أناس مخلوقون للإجرام.

وليس في وسع أقرب المقربين إلى هتلر وأرغب الراغبين في الثناء عليه أن يطلق وصف "الأناس الكرام" على أصحابه: جورنج وريبنتروب وجوبلز وهيملر وإخوان هذا الطراز!

فكلهم من مرض الظهور المشهورين بالنقمة والغدر وسوء الدخلة وحب الشرور.

وكلهم ممَنْ يعرفهم الإنسان فيقول عل الفور: ها هنا جريمة مدبَّرة! ولا يخطر له على بال أنها مأثرة من مآثر النبل والشمم والفضيلة.

ولا حاجة إلى التوسع في سيرة هيملر، فحسبه أنه رئيس اللجنة وقائد الجواسيس الذي ترجع إليه آثام الغيلة ومكائد الوقيعة ووصمة التهذيب في المعتقلات، وإفساد الأبناء على الآباء، والزوجات على الأزواج، والإخوان على الإخوان: سعياً وراء الفضائح وتسقطاً للأخبار

واختراعا للجنايات والأكاذيب، وقياما "بوظيفة نازية" لا يخطر على البال أن يضطلع بها رجل صادق شريف.

ولا حاجة كذلك إلى التوسع في سيرة بوبلز، فحسبه أنه مدير الدعاية النازية التي تقوم على المأس الخبيث والكذب الصريح، والألمان أنفسهم عل الرغم من قسوة الرقابة عليهم يصفونه بأنه أكذوبة تتحرك، وقف الممثل الهزلي لدفيج فنك Finkh مرة يقول معرضاً به: "نحن الألمان نحب صيغة الجمع لغير داع". فنقول مثلاً: إن الأكاذيب قصيرة الأرجل ... لماذا لا نختصر فنقول: إن الأكذوبة لها رجل قصيرة!

ولكنتا نذكر الحقائق المقررة عن الرجلين اللذين يقبضان مع هتلر على زمام السطوة كلها في البلاد الألمانية، وهما ريبنتروب المسئول عن السياسة الخارجية، وجورنج المسئول عن الجيش والطيران، وفيهما ينحصر كل ما في ألمانيا من قوة السياسة وقوة السلاح.

فالأول من مرعى الظهور وأمثلة "الانتهاز" الذين عُرُفُوا في الاصطلاح الحديث ينعت "الوصوليين".

لم يكن من أصحاب الألقاب ولكنه سعى عند عَمِّهِ حتى تبنَّاه، ثم سعى عند المراجع الرسمية حتى أقرت وراثة اللقب بالتبني وهو يورث بالبنوة الصحيحة.

ولم يكن من الأغنياء ولكنة وصل إلي الثروة من طريق الزواج، فصاهر أوتو هنكل Otto Hinckel صاحب الملايين من تجار النبيذ المعدودين.

وكان في نشأته، وبعد الحرب، يتاجر بالنبيذ في ألمانيا الغربية حيث يعسكر الفرنسيون وجنود الحلفاء، وهي تجارة كانت تقوم علي التهريب برعاية "الأعداء" المحتلين للبلاد!

وكان سبب التعرف بينة وبين هتلر من "أليق" الأسباب بأخلاق النازيين وطبيعة النازية.

فقد كان ريبنتروب منوطاً بالتجسس على الأحزاب البافارية في أعقاب الحرب، وكان ضابطاً يساعده في هذه المهمة ضابط آخر، فكانا موضع الشبهة والارتياب بين العمال وصغار الجند لانتمائهما إلى طبقة الضباط التي كانت متهمة النيات في عرف السواد من أبناء الطبقة العاملة.

وكان من جراء ذلك أنهما بحثا عن "جندي" يؤدي عنهما هذه المهمة وينقل إليهما ما يسمع ويرى، فعثرا بالطلبة المنشودة، ولم تكن هذه الطلبة غير "هتلر" الذي كان مستعداً لكل صناعة من هذا القبيل في مقاهي ميونيخ. وعلى هذا النحو تم التعرف بين الرئيس والمرءوس، أو بين المرءوس والرئيس.

وريبنترري، هو موقع الميثاق الألماني الياباني لخمس سنوات، وهو الساعي في إبرام المحالفة بين الألمان والروس! وإنه لعمل لا يخلو من الدلالة على الأخلاق مهما يقل القائلون في تسويغه باسم السياسة والمناورات الدولية.

أما جورينج فالثابت من الأوراق الرسمية في بلاد السويد أنه كان يتعاطى المورفين بشهادة الأطباء والصيادلة أمام قضاة الأحوال الشخصية في مدينة "ستوكهلم" سنة 1926.

وفحوى القضية أن زوجته السويدية طُلقت من زوجها السابق فون كانتزو Von Kantzow ولها منه ولد قاصر، فاختلفا على الحضانة، وجاء أهل الزوج السابق إلى المحكمة يثبتون أن تربية الولد خطر محقق بين الأم وزوجها الجديد ... لأن الأم مصابة بالنوبات المزمنة، والزوج - وهو

جورينج - مصاب بإدمان المخدرات وأعراض الجنون.

وبعد تقديم الوثائق وسماع أقوال الخبراء والشهود قضت المحكمة بفصل الولد عن الزوجين وتسليمه إلى حضانة آخرين.

وقد ثبت في المحكمة أن جورينج دخل مستشفى أسبودن Aspud-den بعاصمة السويد في منتصف سنة 1921 للعلاج من آفة المخدرات وعوارض الجنون، وأنة نُقل منه إلى مستشفى كاتارينا Katarina حيث كانوا يحجزونه في حجرة مبطنة لفرط هياجه بعد تحريم المورفين عليه.

وعجائب جورينج في حب الظهور ونشوز الأخلاق لا تُحصى ولا تفرغ منها فكاهات أهل برلين من نازيين وغير نازيين، حسبك منها أنه يلعب بشبل أسد وأنة يبدِّل نيفاً وعشرين كسوة رسمية، ويملأ كل واحدة منها بالأنواط والأوسمة والشارات!

والظاهر أن الآفة عامة بين زعماء النازيين على صور وأشكال؛ فكلهم جياع إلى المظهر البراق، وكلهم يعيشون في جو التمثيل والإخراج.

فالمنافس الأول لجورينج - وهو ريبنتروب - لا يكثر مثله في تبديل الكساء وحمل الأنواط والأوسمة، ولكنة لا يعيش بغير تمثيل وتهويل سواء أقام في بلاده أو تغرَّب عنها ... ومن ذاك أنه تولى وزارة الخارجية فأقام فيها حرساً من مائة وخمسين فتى يلبسون الكسوة الرمادية الخضراء، ويرسلون الأهداب من الأكتاف، ويصطفون كل صباح لأداء التحية في فناء الوزارة.

وروى مراسل "لايف" Life الأمريكية أنه حضر مأدبة من مآدب ريبنتروب الرسمية وهو سفير في العاصمة الإنجليزية، فلما دخل الردهة الكبيرة بصر رودلف واقفاً على الشرفة وفي يده نسخة لم تفتح من كتاب

"كفاحي" لهتلر يقلب فيها كأنه يقرأها وينعم في قراءتها!

ثم أقام ريبنتروب مأدبة أخرى في الخريف التالي تكريماً للكونت شيانو، فحضرها المراسل مع الصحفيين المدعوين. قال: فرأيت الفتى في وقفته الأولى، وفي موضعه الأول ومعه الكتاب لم يفتح بعد، وهو مقبل على قراءته بإنعام.

وحكاية "هيل هتلر" والوقفة النازية في بلاط لندن أعجب ما يروى من مهازل هذا التمثيل والإخراج!

وقد تساوى ريبنتروب وجورينج في استغلال الوطنية والاستفادة من محنة الأمة عند الحاجة.

فاحتلال الحلفاء لوادي الرين لم يمنع ريبنتروب أن يقنص الفرصة ويتجر هنالك بتهريب النبيذ.

وحماسة بورينج الوطنية لم تمنعه أن يعرض المظلات الواقية للبيع في الأسواق الأوروبية، فأنشأ في أيام الجمهورية الألمانية المعروفة باسم الريخ الثاني مصنعاً لهذه المظلات بعاصمة السويد يعرضها لمن يشاء أن يشتريها من دول الأعداء والأصدقاء، وهي تلك المظلات التي كانوا يعتمدون عليها في غارات النرويج والميادين الغربية.

وقد حفظت نسخة الإعلان في دار المحفوظات السويدية وفقا للقانون الذي يقضي في تلك البلاد بإيداع نسخة في المكتبات الحكومية من كل ورقة مطبوعة ... فكأن جورينج لا يختص وطنه بمخترعاته إلا إذا كان له نصيب من حكمة، أما إذا كان يائساً من الحكم غريباً في بلاد أجنبية فليس لوطنه هذا الحق عليه.

وندع هنا ما أفشاه الصحفي سفتون ديلمر Sefton Delmer عن

ودائع الزعماء النازيين في المصارف الأوروبية والأمريكية وتبلغ في تقديره سبعة ملايين من الجنيهات.

فسواء ثبت هذا الخبر أو لم يثبت فالهدايا التي تلقاها جورنج في عرسه (سنة 1934) تبلغ الملايين... والأسهم التي اشتراها جوبلز في البلاد الخارجية حقيقة لا تقبل الإنكار، ومنها مائة سهم في شركة كبيرة يعرفها المصريون وهي شركة قناة السويس وقد حُجز (أي على الأسهم) بقرار من نيابة محكمة السين في منتصف شهر مايو (1940)، وقس على ما ثبت بالأوراق والشهادات ما هو مزوي.

إلا أننا لو نفينا الاختلاس وابتزاز عن هؤلاء الناس لظلوا على وصفهم عصابةً من مرضى الظهور ونهّازي الفرص وأصحاب الضراوة بالشرور.

فما هي القضية الشريفة التي يقدمها أمثال هؤلاء؟ وما الذي يرحض عنهم وصمة هذه الشرور؟ أيرحضها عنهم أنهم أذكياء لبقون في التخيل ونصب الفخاخ؟

لقد حيرت عصابات المهربين في الولايات المتحدة ذكاء الشرطة والمحققين ورؤساء الحكومة حتى اضطروهم إلى رفع الحظر عن المسكرات؛ فمن المجرمين أذكياء ومنظمون، ولكن ليس من رجال الخير والنجدة والقضايا الشريفة فتاكون أشرار، مجرَّدون من فضائل النبل وسجايا المروءة.

ولولا أن العمل الذي يتولاه هتلر "جريمة إنسانية" لما تولاه معه أناس بهذه الطباع.

حقيقة هتلر والنازية

ماذا قال المؤرخون والسياسيون عن حقيقة هتلر وتصرفاته هناك إجماع علي أن تصرفاته لم تكن صائبة علي الإطلاقِ في مجملها وفحوى ما تقدم أننا أمام رجل أبتر مدخول الطبيعة.

لم تؤهله للخير وراثته ولا نشأته، ولا صلة الأرحام بينة وبين أهله، ولا صلة المودة بينة وبين صحبة، ولا القدرة على كسب عيشة، ولا النجاح والتوفيق في الفنون الجميلة التي ظن أنه مستعد لها بطبعه، ولا الغرائز والعواطف التي ركبها الله في تكوين كل ذكر وأنثى.

وإلي جانب هذا لم يكن لطبيعته المكبوتة مصرف من الحركة الجسدية والألعاب الرياضية التي تُلهي وتشغل من هواجس النفس المصدومة النافرة وأشواق الجسد العاجز المحسور؛ لأن هتلر على كل إطنابه في مدح الألعاب وتنشئة الجيل عليها لم يولع قط بلعبة رياضية أو حركة جسدية، ولم يشتهر كما أشتهر غيره من الطغاة بغرام السرعة في ركوب الطيارات والسيارات، أو غرام الفروسية وتجربة السلاح، أو ما شاكل ذلك من وسائل التنفيس والتفريج.

ولو اقتصر أمره على هذا لكانت نهايته التي لا شك فيها إما إلى الإجرام أو الجفون، وإما الهزال، ولَمّا سمع به أحد ولا كتب له اسم في سجل التاريخ.

ولكنة نشأ موهوب الذهن في فترة الزعازع الدولية والمفاجآت السياسية.

واتفق له أنه كان "مختار" من خمسة أو ستة في بدء حياته الحزبية:

اختاروه ولم يكن في وسعهم أن يختاروا من يشاءون كما يشاءون. ثم تكفل التاريخ بالبقية الباقية، وأصبحت الصعوبة بعد ذلك في إسقاطه ومحوه لا في ارتقائه وتمهيد طريقة.

كيف وصل هتلر إلى الزعامة؟

وصل إليها لأنه كان "مختار" من أولئك الخمسة أو الستة من البداية، ولم يكن من السهل إسقاط زعيم بعد اختياره.

وكيف فعل بعد ذلك ما فعل ذلك عالم السياسة الدولية؟

فعل ذلك لأنه قبض بفضل تلك الزعامة على موارد أمة كبيرة كالأمة الألمانية، قوامها ثمانون مليوناً وطاقتها الحربية والسياسية والصناعية لا تفوقها طاقة أمة أوروبية، وعقيدة الجيل الناشئ منها في طاعة "الزعيم" أنها مقدمة على طاعة الإله كما قال مدير المدارس الدكتور رينولد كروس Reinold Kraus حيث كتب في صحيفة دوتش تابسيتونج: "إن المسيحية عالمية في شعورها، ولكن الواجب هو تقديم الوطن على العالم. فمن المستحيل أن تؤمن بالريخ الثالث ثم تؤمن بأن طاعته مقدَّمة على طاعة الإنسان".

ورجل يقبض على زمام ثمانين مليوناً من المخلوقات الآدمية هذه عقيدتهم وهذه فطرتهم وذلك استعدادهم للطاعة العمياء ما الذي يستكثر عليه مما فعل؟ ولماذا يستكثر عليه؟ ولماذا نقف أمام فعلة موقف الدهشة والإكبار.

لو أنه كان متقيداً بدستور أو متقيداً بقانون أو متقيداً بشرف مأثور أو متقيدا بمعاهدات مرعية أو متقيداً باجتناب الحرب أو بالسير في طريق محدود لا يتحاشاه ولا يحيد عنة، لكان العجب مفهوماً من أن

يستطيع ما استطاع. لكنة لم يتقيدً قط بشيء من الأشياء، ولم يزل يأمر ويطاع في كل ما أراد.

بل نحن نخطئ إذا فهمنا أن المسألة هنا مسألة طاعة؛ لأنها في حقيقتها أكثر جداً من الطاعة.

المسألة هنا مسألة تعصب لزعيم يراد له التقديس والتمجيد، ومسألة "ثورة شعورية" جامحة في سبيل التمكين والتأييد، أو هي "هوسة" تسبق الطاعة إلى المفاداة والمغامرة؛ لأن غريزة الجماعات قد جاشت جيشانها، فاندفعت كما يندفع القطيع من الماشية في أثر الحيوان السابق، ولو إلى الهلاك.

أيقال إن هذا مطلب صعب على من يريده؟

كلا. بل هذا أسهل المراكب وأوطؤها لمن لا يحسب حساباً ولا يتقيد بقيد ... فليس أسهل من إثارة الشر في نفوس الجماعات الغاضبة المتعطشة إلى الانتقام، المهتاجة بصحة الحرب والعدوان.

وإنه لأسهل المراكب من الوجهة الاقتصادية والسياسية، لا من الوجهة الشعورية ولا من وجهة النظر إلى غرائز الجماعة دون غيرها.

تسلَّحوا أيها الألمان جميعاً!

هذه أسهل صيحة تصاح يقبلها أصحاب المصانع لأنهم يروجّون بها مناجم الفخم ومصانع السلاح.

ويقبلها الضباط والجنود لأنهم يعتزون بها ويضمنون بها العيش والكرامة. ويقبلها الصُّناع لأنهم يجدون عملاً في صنع السلاح أو في حمل السلاح. فإنكار الجريمة لا ينفي طبيعة الإجرام.

وكفى أن يكون الشر سهلا يواقعه المرء لأيسر ضرورة أو لضرورة موهومة لتثبت طبيعة الإجرام أيما ثبوت.

وما ضرورة ذلك، وما ضرورة تأجيلها أو انتظار اليأس من المفاوضة فيها؟

ليست بضرورة على الإطلاق. لكنها مع هذا كانت أعضل على هتلر من معضلة المغامرة بسلام الدنيا ومصير بني الإنسان.

وسوَّغها المسوَّغون فقالوا انه قد أسرع إلى الحرب لأنه عاهد الروسيين على التزام الحيدة وتقسيم الغنائم، كأنهم ينسون أنهم يعنون بذلك تفسيراً واحداً لا تفسير غيره؛ وهو أن صاحبهم يتلهَّف على ذرائع الشر والبغي فلا يرفضها ساعة العثور عليها، وليس يتلهف على ذرائع الرفق والسلام.

وبعد فسيطرة ألمانيا على الدنيا ليست حقيقة في حيز الوجود، وليست حقيقة في مستقبل الأيام، وليست حقيقة تساوي أهوالها وخسائرها على فرض إمكانها.

لكنها حقيقة على صورة واحدة، وهي الإعانة عل طوية الشر والبغي والتمادي فيهما إلى أقصى مداهما؛ ففي هذا ولا شك هي حقيقة وافية بغاياتها، مؤدية إلى نتائجها وهذه هي حقيقة أدولف هتلر.

وليس في تاريخ الرجل عمل واحد يستعصى على إنسان متوسِّط الذكاء غير مقيد بالعواقب ولا بوازع القانون والأخلاق.

فهو لم يصنع معجزة يوم اختاروه زعيماً لخمسة أو لستة من الفارغين للمشاغبات السياسية في ميونيخ. ولا سيما إذا ذكرنا أن هذه الزعامة لم تكن أمنية مرغوباً فيها، للشك في مصيرها واستلزامها أن ينقطع لها

صاحبها عن الأعمال والعلاقات.

وهو لم يصنع معجزة ببقائه في زعامته: لأن خلع الزعيم ولو كان خصومه على هدى، أصعب جداً من بقائه في الزعامة ولو كان على ضلال.

وهو لم يصنع معجزة باقتداره عل ما فعل وبين يديه موارد الدولة الألمانية وأمامه عالم لا يريد الحرب ولا يتفق على المقاومة.

وفضيلته الكبرى هي نقيصته الكبرى: هي أنه ركب الدولاب الجامع ولم يبال؛ لأن أسوأ العواقب لا يعنيه ولا يثنيه.

فلم ينكر ماذا يكون العدو وألمانيا كلها هاجمة على التسليح مشغولة بالتأهب للقتال انها حقيقة أدولف هتلر.

فالمصانع لا تخرج المدافع والدبابات أبد الآبدين، دورانها على السلاح سرمداً مستحيل، ووقوفها بعد دورانها أعواماً مستحيل؛ لما فيه من إغضاب أصحاب المال، وإغضاب الملايين من العمال، المتسكعين بين الجوع والسؤال.

والتحدث عن الحرب ليل نهار لا بد أن ينتهي إلى حرب عاجلة ولو لم تكن لازمة ولا ناجحة. هذا ما كان يفكر فيه هتلر ليل نهار.

وتربية الشعب على المفاجآت المسرحية تعوِّده أن يترقبها ويتحفز لها ولا يطيق الفراغ منها، وإلا فترت الحميَّة وخمدت نار الزعامة التي هي قوامها وهو ما فعله هتلر.

وهكذا دار الدولاب الجهنمي دور ته المرهوبة، ولم يكن عند هتلر إلا لعبة أخاذة يستطيبها خيال أكتع لم يفلق للعظمة المغنية، وطبيعة جارمة خوت من الرحم الإنساني، وعقل مخبول يومض فيه الذكاء، ولكنة ذكاء في قبضة شيطان.

قضية هتلر والنازية

ما هي القضية التي كان يعرضها النازيون على العالم للفصل فيها؟ وأين هي مصلحة العالم من طرفي القضية؟

إن كان هتلر يعرض على العالم قضية الطغيان والحرية الإنسانية، أو قضية الإيمان بالسلاح والإيمان بشيء في الحياة وفي الحضارة غير السلاح.

وهو لا يعرض على الناس قضية الطغيان ليقول لهم: أيها الإخوان، تعالوا وكونوا طغاة مثلى ... ولكنة يعرضها ليكون هو الطاغية المتحكم وهم العبيد المستسلمين.

وهو لا يؤمن بالسلاح ليقض به في خصومته مع بولونيا وإنجلترا وفرنسا وبلجيكا وغيرها وغيرها، ثم يكفر به ويلقيه جانباً ويعترف بالحقوق والحرمات.

كلا! بل هو يعتمد عليه اليوم مرة ويعتمد عليه غدا عشر مرات؛ لأنه إذا بلغ ما أراد زاد اعتماده عليه، وأصبع أقدر على استخدامه مما هو الآن.

فهو قد عمل للحرب فجمع لها عدتها ..وغيرهُ لم يعملوا للحرب فلم يجمعوا لها مثل تلك العدد والخطط والمعدات الحربية بل والبشر أيضاً.

هل أصاب أو أخطأ في اشتغاله للحرب دون غيرها؟

قل إنه أصاب أو قل إنه أخطأ، فليس هذا مقطع القول الآن، وإنما مقطع القول أن الذي ينصره أو يتمنى له النصر يخطئ كل الخطأ ولا يصيب في حقه ولا في حق العالم أقل صواب.

على أن العالم لو اشتغل للحرب وحدها كما أشتغل لها هتلر لكان معنى ذلك أن الهتلرية قد ربحت المعركة قبل دخولها، وقد دان العالم بدين الطغيان وكفَر بدين الحرية. وأصبح لزاماً عليه أن ينقلب إلى معسكر ميدان لا يتربى فيه الطفل ولا يعمل فيه الرجل، ولا تفكر فيه العقول، ولا تجمع الدولة مالاً أو تنفقه، ولا تبيح الحكومة شيئاً أو تحرمه إلا في هذا السبيل هكذا كان هتلر يفكر وهكذا كان هتلر يتصرف ويفعل.

يقول هتلر للعالم:

أعطوني حرية الإنسان. أعطوني حقوق الإنسان. أعطوني ضمان الرأي والروح. أعطوني تراث الماضي والرجاء في المستقبل. أعطوني حقوق الفرد في الدولة ألغيها، وأعطوني الدول الصغيرة أدوسها، والدول الكبيرة أمزقها ... وقواعد الطمأنينة في الأرض كلها أزعزعها وألقي الفزع والمصير المجهول في مكانها. أعطوني كل ما تعزون ولا تسألوني ماذا تأخذون! لأنني آخذ ولا أعطي، آخذ الحرية التي عندكم ولا أعطي القوة التي عندي، أو آخذ رجاء كم في الحرية ولا أعطي رجاء كم في القوة؛ إذ هي لي وحدي لا أعطيها أحدا حتى بين الألمان خلاصة بني الإنسان، فكيف يُعطاها غيرهم من المخلوقين للطاعة والهوان؟

يقول هتلر للعالم:

أعطوني الحرمات والحقوق لأن ألمانيا لا تعيش في الدنيا وللدنيا حرمات وحقوق.

فهل يصدق فيما يقول؟ كلا. بل هو يكذب ويلغو، فما في الأرض أمة تعيش قريرة راضية والدنيا مسلوبة الحرمات والحقوق.

وهبوه مع ذلك صادقاً فعلام يدل صدقة؟ يدل عل أن مصلحة ألمانيا

ومصلحة العالم نقيضان، وأن العالم لن يستريح وللألمان سطوة وشنآن.

والواقع أن العالم - كذب هتلر أو صدق - لن يستريح والسطوة الهتلرية قائمة والدولة النازية دائمة.

فقضية الإنسان كانت هي أن تنهزم ألمانيا الهتلرية الهزيمة المبرمة التي لا قيام بعدما؛ لأن انتصارها هو انتصار لمطالبها التي تبغيها، ومبادئها التي تدين بها، ومطالبها الصريحة التي لا تكتمها فهي استغلال الشعوب الأخرى وابتزازها، ومبادئها الصريحة التي تبشر بها هي سيادة القوة بينها وبين، الدول، وسيادة القوة بين، الحكومة والرعية. وهل لأحد أن يطمع من حكومة ألمانية في حرية أوسع من الحرية التي يؤذن بها لأبناء ألمانيا نفسها؟ كلا. فما للحرية وجود في عالم يسوده فرد مقدس معصوم يطلب من الناس ما لا يطلبه الخالق من المخلوقات.

كل ما هنالك مبادئ القوة، ومعنى مبادئ القوة إلغاء التفاهم والتعاقد في السياسة الخارجية، وإلقاء الشورى والانتقاد وضمان الحقوق والأرواح في السياسة الداخلية. فلا شيء غير طغيان السيد وإذعان الضعيف المحكوم إذعان المستسلم الصامت الذي لا ينبس بشكاية، ولا يطمع في إصغاء.

ليس يكفي أن تخرج ألمانيا من الحرب وقد فاتها النصر والاستعلاء، بل يجب أن تخرج منها مهزومة عاجزة عن التهديد وهو ما حدث فعلاً.

لأنها إذا ملكت زمام التهديد بعد الحرب لم يلبث العالم أن يعود إلي ما كان فيه من الفزع الدائم والتسابق الأهوج في مضمار التسليح، وأن يسرف إسرافه المنهك في أهبة الهجوم والدفاع. فتذهب موارده في إعداد عدة التدمير ثم تضيق هذه الموارد بكل عمل مفيد من أعمال

البناء والتعمير. ويعاني أبناء الأمم جميعاً ما كانوا يعانونه من الكساد وإرهاق النفقات، بغير أمل في تبديل هذه الحالة.

ولا موضع للمفاضلة بين خروج ألمانيا منصورة أو موفورة القوة وبين خروج الحلفاء منصورين قادرين على المقاومة.

فأقل ما يُرجى من انتصار الأمم الديمقراطية أن تبقى حالة الحرية كما كانت في السنوات الأخيرة، وهي حالة أكرم وأسلم من كل حالة يتوقعها العالم بعد تسليط الألمان عليه.

هذا أقل ما يرجي من انتصار الأمم الديمقراطية. أما أكبر ما يرجى من انتصارها فهو اتساع آفاق التفاهم والتعاون بينها وبين الأمم الضعيفة، وهي خطة صالحة للأقوياء والضعفاء على السواء: يظفر منها الأقوياء بمَوَدَّةٍ لا يستهان بها وتخفيف في النفقات الحربية هم أحوج ما يكونون إليه، ويظفر منها الضعفاء بالعضد الذي يريحهم من أعباء الدفاع، ويتيح لهم أن يوجهوا أموالهم وأرزاقهم وجهة الإصلاح والتعمير.

وقد يخطر على بال جاهل أن خروج الدول الديمقراطية من الحرب مضعضعة خائرة أصلح للعالم وأجدى على الأمم الضعيفة.

فهذا الخاطر سخيف؛ لأن الدول المضعضعة الخائرة لا تضمن تقرير السلام وإخافة المتربِّصين المتوثبِّين للشر وهم كثيرون، منهم المستبدون الذين تجنَّبوا الحرب فصانوا قوتهم للإرهاب والنهب بغير حساب، ومنهم الشيوعيون الذين يرقبون يوماً يفرضون فيه مذاهب الهدم والكراهية على جميع الشعوب، وأي فرصة ينتهزونها لترويج مذاهبهم كالفرصة التي يجدونها وهم آمنون سطوة الدول الديمقراطية الكبرى؟ لعلهم يصيبون بين شعوب تلك الدول نفسها تربة صالحة لإلقاء بذور

الفتنة والتمرد والانتقاض، متى وجدوها مضعضعة خائرة لا تقوى على إخافتهم ولا على علاج المشكلات المتراكمة في داخل بلادها.

وقد يخطر لأحد أن مذاهب الهدم والكراهية تشقي أناساً وتسعد آخرين؛ فإن كان المقصود أنها تسعد الحاكمين بأمرهم فذلك صحيح، أما إن كان المقصود أنها تسعد الأيدي العاملة فليس أفشل من هذا بشهادة العيان.

فقد اتسع مجال التجربة للطغاة الشيوعيين جيلاً كاملاً فماذا صنعوا؟ وماذا أفاءوا على الطبقة الفقيرة من فلاحين أو صناع؟ جمعوا على رأسها من الذل والإرهاق ما لم يجتمع في أمة حاضرة، وجعلوا الدولة صاحبة رأس المال وصاحبة المرافق داخل البلاد وخارجها، فأصبحت الطبقة العاملة من أجل ذلك محرومة حقها وأصبع الاحتجاج أو الاضطراب في هذه الحالة تمرداً على الدولة وخيانة عظمى يُعاقب عليها بالموت أو بالسجن الطويل، وأصبحت السلطة ألتي يشكو منها العامل هي السلطة التي يشكو إليها. بل أصبحت روسيا كلها سجناً كبيراً لا يُباح الخروج منه ولا الدخول إليه إلا كما يباح الدخول والخروج في السجون.

ولا يكتم الشيوعيون هذا الإخفاق الذي لا سبيل إلى كتمانه؛ فهم يعترفون به ويردونه إلى كل سبب غير سببه الصحيح، وهو سخافة المذهب ألذي يجعل تاريخ الإنسان كله تاريخ "بنك" أبدي لا محل فيه لغير أطوار النقد وأسعار المصارفات، ولن يفقهوا هذا ولن يرجعوا عنة؛ لأن المسألة عندهم مسألة شهوة لا مسألة فكرة، وهي في قلوبهم حقد على المحسودين وليست رأفة بالمحرومين، وسيُمنّون أنفسهم ما استطاعوا أن ينهزم العالم ويتضعضع فيتاح لهم الأمل المنشود، ويدركوا

يومئذ ما لم يدركوه بعد الحرب الماضية التي خرج منها الظافرون وهم متماسكون غير مضعضعين. ولهذا نقول إن قضية العالم هي انهزام ألمانيا وانتصار الدول الديمقراطية.

وكما نقول إن كل نتيجة دون هزيمة ألمانيا لا تكفي، نقول كذلك إن كل نتيجة دون انتصار الديمقراطية لا تكفي؟ لأن الشيوعيين والمستبدين هم المستفيدون دون غيرهم من هزيمة الديمقراطية أو من انتصارها على أعدائها انتصارا لا تحميه.

إن النازيين كانوا يتقرَّبون إلينا - نحن الشرقيين - بحجة غريبة، ويتقربون إل الأمم الأخرى بحجة أغرب وادعى إلي الريبة.

أما الشرقيون فيذكرون لهم الشكايات التي يشكونها من الدول الديمقراطية، والقضايا الوطنية المعلقة بين تلك الدول وبعض الشعوب العربية والشرقية.

ومهما يكن من شأن هذه القضايا والشكايات فممَّا لا نزاع فيه أن المرء لا يحمد جراثيم السل لأنه يشكو الزكام، ولا يرض بسهولة النازيين وطريقتهم في حكم البولونيين والتشكيين والنمسويين والهولنديين وأبناء الشمال؛ لأنه يلقى ما يسوءه من الدول الديمقراطية.

فإن الفرق لبعيد جداً بين من ينكر الحرية أصلاً وفصلاً وبين، من يعترف بها ويماطلك فيها، أو يخالفك في مقدارها.

ولا أمل على الإطلاق في حرية أو رخاء مع النازيين، ولا يأس على الإطلاق من بلوغ الحرية والرخاء ما دامت للديمقراطية حجة قائمة.

ما من شرقي يرض للشرق بما دون الإنصاف الشامل والحقوق الوافية، وسيبلغ أبناؤه لا محالة ما يتُوقون إليه من إنصاف ومنعة بفضل

الجهود التي يقوم بها رجال كل بلد على حدة، وفضل الجهود التي يتعاون عليها رجال الأمم العربية كافة؛ فمطلب الحرية والإنصاف لأمم الشرق مطلب مفروغ منه ولا جدال فيه.

إلا أننا حين ننظر إل النزاع الأوروبي إنما ننظر إل المسألة من جانب الموقف الحربي والسياسة الخارجية، وهي لا يمكن أن تكون إلا على وجه من وجوه ثلاثة: أن تقف الأمم الشرقية وحدها، أو تقف إلى جانب النازيين، أو تقف إلى جانب الحلفاء.

فالوقوف وحدها في حومة هذا النزاع العالمي لا يتأتى؛ إذ ليس في أمم الشرق الأدنى أمة أقوى من فرنسا وهي لم تستغن عن المعونة الإنجليزية، ولا أقوى من بريطانيا العظمى وهي لم تستغن عن المعونة الفرنسية.

وحسبنا أن نتخيل تركيا وقد وقفت أمام الروسية وألمانيا ونظرة إلى خلفها فلم تجد مَنْ يحمي ظهرها ويملك الشدة اللازمة لنصرتها. فماذا يسعها أن تصنع؟ وماذا يكون المصير إلا أن يطغى الروس والألمان ومن معهم على كل أرض في طريقهم ليقتسموها أو يقتتلوا عليها؟

بقي الوقوف إلى جانب الحلفاء أو الوقوف إلى جانب النازيين، ولا تردد في المفاضلة بين الموقفين: قوم يسلمون الحق ويؤجلون موعده، وقوم ينكرون كل حق لمن عداهم في خيرات الدنيا ولا ينتظرون من الساميين خاصة إلا الخضوع لسيادة الآريين، بغير أمل في الخلاص أو في تبديل الحال، إلا أن تتبدل الأجناس. وهيهات!

فالأمم الشرقية لا تعرف مصيراً هو أولى بخشيتها واتقائها وضياع آمالها من مصيرها مع النازيين، إذا ملكوا زمامها بوسيلة من وسائل الغلب والإرهاب.

أما الحجة ألتي يتقرب بها النازيون إلى العالم مسوّغين بها مطامعهم وملطفّين بها مز شرور عدوانهم فهي أنهم لا يصنعون اليوم إلا ما صنعة الإنجليز والفرنسيون في الأجيال الماضية، فلماذا يجوز الفتح للإنجليز والفرنسيين ولا يجوز للنازيين؟ ولما ذا تهنأ بريطانيا العظمى مثلاً بالسيطرة العالمية ولا يغلبها النازيون عليها؟

فإذا سلَّم العالم هذه الحجة وجب أن يطلّق الأمل في التقدم والتفاهم والسلام أبد الآبدين، وأن يجعل السيطرة العالمية قبلة لكل دولة تشعر بالقوة وتعتزُّ بالعدد والعدة: يوم للألمان ويوم للروس ويوم للطليان ويوم لأهل اليابان أو الصين أو من شئت من البلاد، ولا راحة للدنيا في هذا الرجراج الصاعد الهابط بين قوم قد استعدوا وقوم يستعدون، أو بين عدة أقوام مستعدين في جيل واحد ... وذلك هو الجحيم بعينه للظافرين والمظفور بهم أجمعين.

والحقيقة أن السيطرة على العالم خرافة أغبياء وستظل خرافة أغبياء إلى آخر الزمان.

والناس لا يملكهم واحد مهماً علا في ملكه واستطال

فالدنيا لا تسودها دولة في القصور الحديثة ولن تسودها دولة في العصور المقبلة، وما سادتها بريطانيا العظمى في أيامنا هذه ولا في أيامها الماضية، وأخرى بالمستقبل أن يجري على سنَّة أقوم من هذه السنة ما دام للحضارة معنى وللمصالح المشتركة قدرة على كبح من يعدون عليها؛ طغياناً في سبيل الفتوح، أو إيثاراً لمصلحة دولة واحدة على المصالح جمعاء.

والأمم التي كانت تدخل في الدولة البريطانية إما مستقلة كأفريقيا

الجنوبية وكندا وأستراليا وزيلاندة الجديدة. وربما كان سلطانها على لندن أكبر من سلطان لندن عليها.

وإما تابعة كالمستعمرات الأفريقية وما شابهها وليست سيادة الإنجليز لها دليلا على سيادتهم للعالم؛ لأن البلجيكيين والإسبانيين يملكون مثلها. ولا ينفع النازيين عند هذه الأمم أن تُجلي الإنجليز عن أرضها؛ فإنها متى استطاعت إجلاءهم فلن تفعل ذلك لتركع تحت أقدام النازيين، وتقبل السيطرة ممن تحسبون الأمم الأفريقية في زمرة القرود.

وبين الأمم المستقلة والأمم التابعة أمم كأهل الهند كانوا يتقدمون في طريق الاستقلال، وقد تكون للنازيين مصلحة في الحلول من أهل الهند محل الإنجليز ... ولكن ما هي مصلحة أهل الهند؟ وما هي مصلحة العالم؟ وما هي مصلحة الأمم المغالبة أو الدول المغلوبة؟ وما هي مصلحة الأمم الواقعة في الطريق؟

إننا لم نذكر الهند لتقرير هذه الحقيقة؛ فهي غنية عن التقرير، وإنما ذكرناها لنقول إن الحالة كانت في ألهند لا ترجع إلى العوامل الخارجية كما لم ترجع إلى العوامل الداخلية، وإن بريطانيا العظمى لو كانت رفعت يدها عن تلك البلاد لما زالت جميع الحوائل بينها وبين قيام الحكومة الوطنية الشاملة، ولا قاربت الزوال.

فهناك الأمراء الحاكمون في ولاياتهم وهم لا يتفقون ولا يرضون أن يحكمهم مجلس في عاصمة بعيدة.

وهناك المسلمون وهم كثرة في بعض الأقاليم وقِلَّةٌ في بعض الأقاليم الأخرى، ولو شملتهم حكومة واحدة لأصبحوا قلة ضائعة في جميع الأقاليم.

وهناك المنبوذون وهم عشرات الملايين ينظر إليهم البراهمة نظرتهم

إلى الرجس الذي يفرقون من ظلة، ولا خير لهم في حكومة تضعهم هذا الموضع وتهملهم هذا الإهمال.

وهناك اختلاف الأقاليم في الأجناس واللغات والأديان وعناصر الثروة ومعادن التربة الزراعية، مما لا يجتمع نظيره إلا في قارة من القارات الكبار.

فمسألة الهند العضال كانت ليست مسألة السيادة الخارجية وحدها، سواء كانت عالمية أو مقصورة على بعض أجزاء العالم؛ إذ لو فرغت كل سيادة عالمية في ألمانيا لما فرغت المسألة الهندية، بل لعلها تبدأ يومئذ من جديد.

وإنما المسألة في الهند كانت محتاجه إلى الإنجليز كاحتياج الإنجليز إليها، وأنها لا تخسر إذا حالفت الإنجليز محالفة استقلال وكرامة، كما تخسر إذا انفصل الفريقان دفعة واحدة.

فالعلاقة الوحيدة الصالحة للتوفيق بين أمتين في زماننا هذا هي علاقة المصالح المشتركة والمعونة المتبادلة، ولو كانت بريطانيا العظمى أقوى ممًا هي اليوم أضعافا مضاعفات لما استطاعت أن تقيم علاقاتها مع الأمم المتصلة بها على غير هذا الأساس.

أما السيطرة على العالم في زماننا هذا فأوجز ما نقول فيها إنها خرافة أغبياء، وإنها قد بطلت اليوم كل البطلان، ونرجو أن يكون بطلاناً سرمديا لا رجعة فيه.

وهنا مفترق الطريقين في قضية اليوم: طريق الإيمان بالقوة الحيوانية تبقى اليوم كما كانت بالأمس وتبقى إلى آخر الزمان كما كانت في أول الزمان، فلا تبديل لها ولا رجاء في التبديل ولا خير فيه لو كان إلى

تحقيقه سبيل، وسيسود القوي العالم وينبغي أن يسوده وأنفه راغم. ولا عبرة بما يتعلل به طلاب المُثل العليا من الآمال والأحلام.

وهذا طريق النازيين.

وطريق الإيمان بشريعة في الحياة غير شريعة القوة الحيوانية، وهي شريعة الحق والإنصاف والأمل في تقدم الإنسان إلى سُنن في المعاملات بين الأمم والأفراد وراء سنة الكهف والغابة.

وهذه طريق الديمقراطيين.

ويقول النازيون إن شريعة القوة حقيقة لا ريب فيها، وإن الإنسان لا يغالط نفسه في وجودها إلا لعلةٍ على حدِّ قول أبي الطيب؛ فالدول الديمقراطية تنادي اليوم بشريعة القوانين والعهود وتنكر سياسة البطش والإرهاب لأنها شبعت وامتلأت: فلا حاجة بها إلى مزيد من السطوة والسيادة، والأمم الضعيفة تنادي بشريعة القوانين والعهود لأنها تطمع في المساواة بينها وبين الأقوياء على أحكام هذه الشريعة.

وكل ما يقال عدا ذلك فهو أكاذيب وأوهام.

وعندنا أن هذا القول على فرض صحته لن ينفع النازيين ولن يشفع لهم بين يدي العالم. فإذا كانت المسألة كما يقولون مسألة مصلحة وليست بمسألة حق، فقد كفى خذلاناً لقضيتهم أن تكون مصلحتهم هم ومصلحة العالم نقيضين، وأن يكون نجاحهم أول خطوة في خذلان من عداهم من شعوب الدنيا، حتى شعوب الدول التي تدين بالقوة ولا تدين بالعدل والإنصاف؛ فإن نجاح النازيين يضير تلك الشعوب كما يضير الدول الديمقراطية الكبرى ويضير المستضعفين.

على أن المسألة هنا ليست مسألة مصلحة وحسب كما يقول النازيون؛

فشريعة القوة وشريعة الحق موجودتان لا شك فيهما، والخصومة بينهما قائمة على أمور مشهودة وليست قائمة على أوهام وأكاذيب، واحتياج الحق إلى القوة لا ينفي هذه الحقيقة؛ لان القوة أيضاً تحتاج إلى الحق في عملها وفي دعواها.

ونحن لا ننكر شريعة القوة والإرهاب وننصر شريعة المال والقانون لأننا أمم ضعيفة تحسب حساب مصلحتها كما يقول النازيون، بل نحن ننكر تلك وننصر هذه لأن بينهما فرقا صحيحا بل فوارق جَمَّةً في جميع الأمور، فوارق يجب أن يحرص عليها القوي كما يحرص عليها الضعيف، ويظهر أثرها في الضمائر والأخلاق والعقول كما يظهر في المرافق التي تتناولها السياسة خارجية كانت أو داخلية.

وفيما يلي تلخيص بعض هذه الفوارق التي تدعونا إلى تفضيل شريعة القانون على شريعة القوة، أو تفضيل الديمقراطية على النازية وما إليها، سواء بلغنا شأوَ القوة العسكرية أو قنعنا بما نحن فيه.

(1) بداية القضية

إن قضية الحرية الإنسانية لم تطرح للفصل فيها في إبَّان الحرب العالمية الثانية أثناء الأزمات المتعاقبة التي تقدمتها.

ولكنها طُرحَت للفصل فيها منذ زمن أي من اليوم الذي تصدى فيه المستبدون للحكم وهم يعلنون جهرة أنهم يستبدون لأن الاستبداد في الحكم هو الواجب وهو الصواب، وأنة هو النظام المفضل على نظام الحرية في كل شعب وفي كل آونةٍ، ولم يقولوا كما كان يُقال من قبل إن الاستبداد ضرورة موقوتة إلى أيام معدودة، ثم تعود الحرية إلى مجراها وترجع الشعوب إلى شوراها.

يومئذ بدأت قضية الحرية الإنسانية في القرن العشرين، ووجب أن يتوقع الناس النهاية من تلك البداية.

وبدا لنا يومئذ أن نعالج الموضوع من نواحيه القريبة إلينا عسى أن ننته ولو إلى بعض الخطر، وأن نجلو ولو بعض الشبهات.

هل فشلت الديمقراطية أيام هتلر

كان الاستبداد المطلق مقدساً في زعم رجال الدين الذين كانوا يستعينون به على حفظ مكانتهم وقضاء مآربهم، وكان هتلر يستعين بهم على تقرير نفوذه وشمول سلطانة على الضمائر والأجسام، وكان لحق الحكم مصدر إلهيَّ يتلقاه الحاكم المستبد من السماء فلا يُسأل عنه ولا يكون للشعب إلا أن يطيعه كما يطيع خالقه، ويؤمن بحكمته التي تخفى عليه كما يؤمن بأسرار حكمة القدر؛ فالحكومة رسالة سماوية معصومة على هذه الأرض الخاطئة. والشك في الحكومة كالشك في العقيدة: كلاهما كفر يُعاقب عليه بالحرمان السرمدي من رحمة الله.

كان هذا هو مصدر الحكومة المستبدة إلى ما قبل القرن الثامن عشر، وكان الإيمان به عاماً شائعاً لا يشك فيه إلا أفراد معدودون من أحرار الفكر يخفون آراء هم كما يخفي المجرم جريمته والآثم وصمة عاره. فلما انتقل سلطان الحكم من المستبدين إلى مشيئة الشعوب، انتقلت القداسة معه إلى المصدر الجديد، وأصبح حق الحكم مقدساً - مرة أخرى - من طريق الشعب لا من طريق الصوامع والكهان. وتغير النظام القديم ولم يتغير قالبه الذي صنعته العادات المتأصلة والمصالح المتشعبة والعقائد الموروثة.

وربما بدأت هذه القداسة الشعبية على سبيل المجاز في التعبير يلجأ إليه دعاة النظام الحديث للمقابلة بين أساس المحكومة الغابرة

وأساس الحكومة الحاضرة، ثم أضيفت إلى هذا المجاز حماقة الفكرة الناشئة وروح الأمل في المستقبل، والنقمة على الماضي. فأصبحت القداسة الحديثة عقيدة في الضمير يشوبها من الإبهام كل ما يشوب العقائد التي تستعصي على متناول العقول.

أصبحت الديمقراطية عقيدة مقدسة في العرف الشائع، فجاءها الخطر من هذه الناحية في عصر الشك والسخرية من جميع "المقدسات"، وسمع الشاكُّون والساخرون بهذا "المقدسة" الجديدة فعلموا أن هناك شيئاً طريفاً يظهرون فيه براعة التفنيد وقدرة التصغير والتقييد، فأسرعوا إليه في جدًّ ووقار، وأعنتوا أنفسهم كثيرا ليقولوا إن الديمقراطية شيء لم يهبط على الأرض من السماء وإن القداسة هنا مجاز لا حقيقة له في العلم والاستقراء. فكان الجاحدون لقداسة الديمقراطية والمؤمنون بتلك القداسة المنزَّهة عن الشوائب بمنزلة واحدة من الفهم والسداد؛ لأن قداسة الديمقراطية لم تكن مسألة علمية يبحثها الناقدون الممحِّصون على هذا الاعتبار من جانب القبول أو من جانب الإنكار، فالذين يضعونها هذا الموضع ينظرون إليها من أضيق حدودها التي يعرفها المجازيون والجهلاء، ولا ينظرون إليها من أوسع الحدود التي يحيط بها من يعرف حقيقتها ويقيسها بمقياسها الصحيح. وإذا كان المتكلم الذي يقول إن الماء العذب شهد حلو المذاق مخطئاً في صيغة التعبير العلمي، فأشد منه إمعاناً في الخطأ والغفلة عن الحقيقة من يحمل الماء العذب إلى المعمل الكيمي؛ ليثبت أن الماء ماء وليس بشهد حلو المذاق، كما يقولون في لغة المجاز.

في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت "السيكولوجية" أو علم النفس،

وتفرعت فروعه وكثر الاشتغال بتطبيقه على الأفراد والشعوب.

ولعل أغرب ما استغربه الناس من قضايا هذا العلم وصفة لأطوار الجماعات والأساليب التي يجرى عقائدها وتوجيه أهوائها وتسيير حركتها وإثارة خواطرها؛ فقد جاء هذا الوصف بعد شيوع الديمقراطية في العالم الحديث بأكثر من جيلين، فلاح لمعظم الناس كأنه غريب وكأنه مخالف للمقرر في الأذهان أو لما يجب أن يتقرر في الأذهان! ولو أنه جاء قبل ذلك بمائتي سنة أو لو أنه تقدم في عصر الإصلاح مثلا لما وقع من الأفكار موقع القرابة في شيء ولا أحاط به ذلك السحر الذي يحيط بكل هجمة مخالفة للمألوف، ثم لجاءت الديمقراطية حتماً في سياقها الطبيعي دون أن يتخيل أحد أن حقائق علم النفس تعارض الحكم الديمقراطي أو تعارض حكم الشعوب: لان الديمقراطية جاءت نتيجة لأزمة لفساد حكم الاستبداد ولم تكن نتيجة لجهل الناس بالسيكولوجية وخطئهم في تفسير حركات الجماعات، فلو علم الناس في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر أن حركات الشعوب غير مقدسة ولا منزَّهة عن عيوب الطبيعة البشرية، لما كان ذلك مانعاً لوقوع تلك الحركات في أوانها ولا واقياً للأنظمة العتيقة من التداعي والسقوط. ولكن "السيكولوجية" ظهرت بعد الديمقراطية فنشأت غرابتها من ثم وكان استغراب الناس إياها وهماً متولداً من الوهم القديم الذي تطرَّق إليهم من تقديس الشعب بعد تقديس المستبِّدين. فلولا الخرافة الدائرة خرافة المستبدين الإلهيين لما وجدت خرافة الشعوب الإلهية ولا اتخذت أطوار الجماعات التي استعرضتها مباحث العلماء النفسيين دليلاً عل بطلان الديمقراطية، ولا قيل إن نظامها قائم على أساس واهن لأنه قائم

على مشيئة الشعوب وهي مشيئة لا توصف بالعصمة. وقديماً عرف الناس من أطوار الأفراد أنهم يطمعون ويستأثرون وأنهم ينقادون للهوى ويخضعون للشهوات وأنهم عرضة للخطأ الكثير والضلال البعيد وأنهم غير معصومين، فلم يكن هذا العلم بأطوار الأفراد هو الذي قضى على حكومة الفرد، ولم تتقوض النظم إلا حين تَعَذَّر التوفيق بينها وبين أحوال الرعايا ومطالب الأمم.

لم تنقض على الديمقراطية سنوات حتى خيَّبت آمال الحالمين فيها وخيبة آمال أولئك المظلومين الذين صوَّروا زمانها المترَّقب في صوره الفردوس على الأرض أو العصر الذهبي الذي تَغَنَّى به الشعراء وتحدَّثت به الأساطير. فلا ظلم ولا إجحاف ولا تمييز بين القوي والضعيف أو القريب والبعيد، كأنما صوت الشعب المنطلق من غيابات الأَسر نغمة ساحرة كنغمات "أورفيوس" يتجاور في سماعها الليث والحمل والضاريات والنقاد، ومتى كان كل هذا منتظراً من الديمقراطية فلا جرم يخيب فيها الظن ويحكم عليه الحاكمون بالفشل بعد أول صدمة مع وقائع الحياة وعثرات التجربة الأولى، وهي لا تخلو من النقائص ولا تسلم من الاضطراب.

فلم يكن أقسى على الديمقراطية ولا أظلم لها من غُلاة المؤمنين بها الذين كانوا يكلِّفونها ما ليس يكلِّفه نظام في هذه الدنيا. أيةً كانت قواعده من الصحة، ونيات القائمين به من الصلاح.

هذه كلها أسباب يصح أن تُسمَّى بالأسباب المصطنعة للشك في حقيقة النظام الديمقراطي والأخذ فيه بالغرض دون الجوهر المقصود.

على أنها ليست بجميع الأسباب المصطنعة التي يمكن أن تُعَدَّد في

هذا المقام؛ فهناك أسباب مثلها دعت إلى الشك في حكومة الشعب قلما تتجاوز العرضيات إلى دخائل الأمور، فمنها أن عيوب الحكومة الشعبية مكشوفة ذائعة لاستفاضة علاقاتها واشتراك المئات والألوف في دعواتها وأعمالها؛ فليس لها حجاب من الفخامة والروعة كذلك الجدب الذي كانوا يسترون به عيوب المحكومات المستبدة ويتعاون فيه الكهان والمداح والبلاطيون على التمويه والتزويق، وخليق بهذا التكشُّف أن يغُضَّ من فضائلها بعض الشيء.

وإن مجرد القول بأن الشعوب لا تصلح للديمقراطية تدليل على أنها درجة عالية يجب أن تتوجه إليها آمال المُصلحين وطُلاَّب الكمال، في حين أن القول بجهل الشعوب واضطرارها من أجل ذلك إلى الحكم المطلق دليل على مصلحة الحكام المطلقين في بقاء ذلك الجهل وتخليد هذه الحالة التي بها يخلدون.

وممَّا يضعف جانب الحكام المطلقين في دعوتهم هذه أنهم يعيبون على الجماهير أطوارها ليتخلصوا من ذلك إلى تزكية الحكم الديكتاتوري أو الحكم المطلق، مع أن التجارب الكثيرة - والتجارب الحديثة منها على الخصوص - قد أظهرت أن الديكتاتورين الصالحين هم رجال الشعوب وثمرة تلك الأطوار، وأن الجماهير لا تعوزها البديهة التي تقطن بها إلي مقدرة القادة وتوليهم إعجابها وتخصهم بثقتها وإقبالها وتسلِّمهم زمامها حتى حين يجترئون على عاداتها التي تغار عليها وتغضب للمساس بها إذا مسها من ليست له تلك القدرة وذلك الإعجاب. فإذا احتاجت الجماهير إلي الصلح النافذ في إصلاحه فليس أقدر على هذا الطلب من زعيم شعبي تبرزه البديهة الشعبية، ولا أسرع منه في حث غريزة

الأمم ومغالبة ما فيها من العيوب، وكأنَّ هذا المصلح هو الزوج المحبوب الذي يطاع لأن طاعته سرور، ويقاس مقدار حبه بمقدار المشقة التي تُبذل في إطاعة أمره. وقد يكون الزوج زوجاً بالصيغة الرسمية ولكنة لا ينال هذه المكانة ولا يأمن الرياء والخيانة إذا تكفلت له الصيغة الرسمية بالطاعة الظاهرة.

وعبثٌ ولا ريب أن تعابُ أطوار الجماهير وأن يقتصر الأمر فيها على النقد والزِّراية، وهي هي الأطوار التي لازمتها في كل ما تمخضت عنه الإنسانية من الثقافات، وفي كل من تمخَّضت عنهم من الدعاة والمصلحين.

فأصلحُ الطبائع لإحياء الشعوب هي الطبائع التي بينها وبين الشعوب مجاوبة في، الشعور ومساجلة في مناصر الحياة. وإذا كانت الشعوب تخطئ في عرف العلماء فليس عرف العلماء هنا هو القياس الذي يُرجع إليه تقدير الدوافع والنتائج؛ لأن الطبيعة لا تستشير العلماء فيما تعمل وفيما تريد. بل ليس العلماء أنفسهم بنجوة من الخطأ على حسب مقياسهم؛ لأن أخطاءهم قديماً وحديثاً في تصوُّر الحكومات النافعة أكثر وأكبر من أخطاء الشعوب كلها مجتمعات.

للديمقراطية عيوبها ولكنها عيوب الطبيعة الإنسانية التي لا فكاك منها. وقد يكون لهذه العيوب في مجموع الحضارات الإنسانية فضل كفضل المحاسن المصطلح عليها إن لم يزد عليه.

ولا تقارن الديمقراطية بحكومة المثل الأعلى المنشودة في الخيال والموصوفة في الأحلام؛ إذ هذه الحكومة لا موضع لها في عالمنا ولن يكون لها موضع. ولكنها تقارَن بالأنظمة الأخرى في جملتها وينظر إل

عيوبها بصدق وإخلاص وتقدير لجميع الظروف.

فلعلَّ هذه العيوب بعض لوازم الحسنات التي لا يُستغنى عنها، أو لعلها طارئة يزيلها المزيد من الديمقراطية؛ إذ كان من المحقق أن محاربة الديمقراطية لم تُزلها فيما مضى ولا يرجى أن تزيلها فيما بعد.

وكذلك لا يصح أن نقيس الديمقراطية بمقياس الأغراض التي أعلنها دعاتها والآمال التي عقدوها عليها؛ لأن هؤلاء الدعاة لم يخترعوها ولا يتأتى لهم أن يحصروها ويسيطروا عليها، وإنما تقاس مزاياها بالضرورات التي أدَّت إليها أولا ثم بالفوائد التي نجمت عنها فعلاً ولا تزال تنجم: فهي بلا ريب قد أوجدت للعصبيات الحزبية مخرجاً غير الفتن الدموية، وأقنعت الشعوب بأن عليها تبعة في الحكم وأنها قادرة على تبديل الحكام، فضعفت فيها نزعة الثورة بقدر ثقتها من الاشتراك في الحكومة والقدرة عل تبديلها، وهي في مدى خمسين سنة قد صاحبت في عالم الصناعة والعلم تقدما لم تبلغه الإنسانية في خمسين ألف سنة، وعلما أن ازداد هذا التقدم صعب على الناس أن يؤمنوا بتلك الخرافة التي هانت تهيئ لفرد واحد أن يملكهم له ولأبنائه من بعده ملك السيد للعبيد.

يقول بعض الباحثين - ومنهم الأستاذ ساروليا الذي ألقى محاضراته في هذا الموضوع على طلبة الجامعة المصرية - إن الحكم النيابي تراث إنجليزي غير قابل للتعميم في الأمم الأخرى. ويضرب "ساروليا" المثل بالأمة الفرنسية التي لا تستقرُّ فيها الوزارات طويلاً لاختلاف الأحزاب وصعوبة التوفيق بينها إلي زمن طويل، ويعتبر ذلك الاختلاف من أعراض الحكم النيابي ومن الدلائل على أنه لا يصلح لكل أمة، ولو

كان الحكم النيابي هو الذي خلق العصبيات الحزبية في فرنسا لكان قول الأستاذ وأمثاله صحيحاً في هذا المعنى وكانت فيه حجة من بعض الوجوه على الحكومة النيابية، ولكن الواقع أن العصبيات الحزبية لم تفتأ تمزِّق فرنسا كل ممزَّق في عهود حكامها المطلقين، ولم يخل جيل واحد في تأريخها من فتنة على وراثة العرش أو فتنة عل المذاهب الدينية أو فتنة على القحط والإفلاس أو نزاع بين التاج والنبلاء أو حروب تثار لإخفاء هذه المنازعات، متى توطدت فيها الديمقراطية فانحصرت "العصبيات" في مناوشات الأحزاب وسكنت الثورات وبطلة المجاعات، ولم يمنعها اختلاف الأحزاب أن تتماسك بعد الحرب العظمى وأن تستفيد من سمعة الديمقراطية أنصاراً لا يُنكر إفادتهم لها منكر، وأن توسع مستعمراتها وقد كانت تفقدها في عهد الملوك الشموس، وأن تكون هي وزميلاتها المنتصرات عنواناً لانتصار الحرية الشعبية وآية على أن حكومات الشعوب تحتمل من الصدمات ما لم تحتمله حكومات القياصرة والطغاة. فانكسرت الروسية والنمسا وألمانيا وكان نصيبهن من التماسك بعد الحرب على قدر نصيبهن من الحرية والمشاركة في الشئون العامة بين الشعب والحكومة، وخرجت الأمم من تلك المحنة بعبرتها التي لا تضيع.

وقد فعل تراث الحكم النيابي فعلة في إنجلترا كما فعل فعلة في الأمة الفرنسية، فوقاها الثورات والخصومات الداعية وكانت وشيكة أن ترتطم فيها مت تين في القرن التسع عشر عند الخلاف على تقسيم الدوائر الانتخابية وتعديل شروط الانتخاب، وهو في جوهره أشد من الخلاف الذي أفضى إلى الثورة الجائحة في عهد الاستبداد.

ومن النظريات ألتي أذاعها بعض المؤرخين - وفي طليعتهم (بتري) العالم المشهور في الأثريات المصرية قال أن الحكومة الشعبية كانت هي الدور الأخير من أدوار الدول في التاريخ القديم ولاسيما تواريخ الدول المصرية؛ يبدأ الدور بفاتح عظيم، ثم يضعف الفاتح العظيم فينازعه الحكم أفراد القادة الغالبون، ثم يضعف هؤلاء القادة ويستسلم أبناؤهم للترف والصغائر، فتثور عليهم العامة وتتولى الأمر الحكومة الشعبية، ثم يسطو عليهم مُغيِّر جديد فيبدأ الدور الأول كرَّةً أخرى، وهكذا دواليك عصراً بعد عصر في سجلات الفراعنة ومن جاورهم من المشارقة والمغاربة.

فإذا صح هذا فهو مختلف مما نحن فيه اليوم: لأن الحكومة الشعبية كانت في التاريخ القديم فترة منفردة تقع في إحدى الدول ثم لا تكون الدول المحيطة بها مجارية لها في تلك الفترة، بل ربما كانت في بداية الدور الأول - دور الفاتح العظيم - فتحدث الغارات من ثَمَّ وتتجدد الأدوار. أما اليوم فالحكومة الشعبية حركة عامة ومبدأ مشترك وليس بالفترة المنفردة ولا بالدور المقصود على بعض الحكومات!.

لم تفشل الديمقراطية وفشل هتلر

لم تفشل الديمقراطية ولا ظهر إلى الآن من آثارها وعلاماتها إلا ما يدل على نجاحها وثباتها، وأنها ستكون أساساً للحكم في المستقبل، تُبنَى عليه قواعد الحكومات ويرجع إليه في إصلاح كل ما يحتاج منها إلى الإصلاح.

أما تلك الأسباب المصطنعة التي ألمنا بها، فأكثر من يتعلق بها ويعمل لترويجها هم أنصار الحكم المطلق والرجعة إلى الاستبداد

القديم، وهم أقل الناس حقاً في تجريح الديمقراطية بعد ما تبين من فشل حكمهم في، بلاد كثيرة وأحوال مختلفة. فإذا بطل إيمان الناس بقداسة الديمقراطية — مجازاً أو حقاً - فمن المقرَّر المقطوع به أنهم لا يرجعون إلى الإيمان بقداسة المستبدِّين وما يزيفونه من الدعاوى والجهالات، وإذا قيل إن الجماهير تنخدع للزعماء وتؤخذ بالمظاهر وتُستمال إلى العقائد التي تُثبتُّ فيها بالإيحاء والتكرار، فهذه الأطوار لم تكن ملغاة في القصور الماضية ولا كان شأنها ضعيفاً في تصريف الأمم وقيادة الحكومات. وماذا كان يصنع المستبدون طوال القصور الماضية إلا أن يستعينوا على خداع الجماهير تارة بالخرافات والأوهام، وتارة بالمظاهر والوجاهات والألقاب والأسماء، وتارة أخرى بالعطايا والمواعيد، إلى سائر ما هو معروف من أساليبهم في تمويه الأعمال وإخفاء الحقائق والتخيل على الغرائز والشهوات. ولو أحصيت الحروب التي أريقت فيها دماء الألوف من المحاربين والمسالمين خداعا للشعوب وتعليقاً لها، أو لو أحصيت الأرواح البريئة التي أزهقها أعداء الحرية والمعرفة، أو لو أحصيت الثورات والقلاقل التي شجوت بين الحكام والرعايا من أجل المظاهر والأسماء والمنازعات الصبيانية والدعاوى الفارغة، أو لو أحصيت الدسائس والجرائم التي انغمس فيها طلاب الحظوة وأعوان الطغيان؛ لكان في بعض ذلك شاهد عن حقيقة من تنفعهم غفلة الجماهير ومن يضرهم انتباهها، وأن تلك الغفلة لم تدم كما دامت في عهود المستبدين، ولم تغد أحداً كما أفادتهم، ولم يحذروا شيئاً قط كما حزروا يقظتها ولا رغبوا في شيء قط كما رغبوا في بقائها واستطالتها. وإنما الفرق بين الاستبداد والديمقراطية أن المجال يتسع

في هذه لأقوال شتى تنكشف الحقيقة من بينها، ولكنة لا يتسع في عهد الاستبداد لكل قائل ولا يصعب فيه التواطؤ على الغش والكتمان.

ومن الأسباب المصطنعة أن نقد الديمقراطية يُرضي غرور تلك الفئة التي تحب أن تتعالى عن "الشعبيات" لما في ذلك من الامتياز والادعاء، ويرسل على الديمقراطية السنة الثرائرة والفضوليين ومن لا ينظرون إلى عواقب الكلام.

ومنها أن المستبدين الطامعين في رجعة الحكم القديم يسقون سعيهم سُراً وجهراً لتشويه كل نظام غير نظامهم وتأليب الناقمين على الحكم الحديث، ولا بد في كل حكم من راضين وناقدين.

ومنها أننا في زمن تتوالي فيه المخترعات ويسألون فيه أبدا عن أحدث الآراء وأغرب الأخبار. فإذا مضت خمسون سنة عل الناس وهم يمدحون الديمقراطية، فالذي يفاجئهم بعد ذلك بنقدها لا يعدم له سامعين بين طلاب، الزَّى الطريف في كل مجال.

فأنت ترى أن نقد الديمقراطية يصادف من العناية أضعاف ما تستوجبه الأسباب الحقيقية التي لا دخل فيها للوهم والغرض والفضول. وأما الأسباب الصناعية فما هي وما مبلغ ما تجيزه؟ هي أشياء لا تجيز لأحد أن يحكم بفشل الديمقراطية ولا بأنها في طريق الفشل القريب.

على أننا إذا قدرنا أن السنة القديمة تتكرر اليوم تكررت في دول الفراعنة وجيرانهم، فكل ما يُستخرج من هذه النظرية أن الحكم قد تعذَّر على الطغاة والقادة لعجزهم واضمحلالهم، فصار الأمر إلى الشعوب تحكم نفسها إلى حين. ويبقى علينا أن نسأل أنفسنا متعجبين: هل يعقل اليوم أن هذه الحرية الشعبية التي وصلنا إليها إن هي إلا فترة موقوتة

جاء بها وباء عام أصاب الطغاة والنبلاء في مقدرتهم على الحكم دون الكافة والأوساط؟ وهل نعود بعد زوال هذا الوباء إلي عهد يكون فيه لنا طغاة مقدسون وملوك مستبدون عصيانهم حرمان من ملكوت الله؟ لقد كانت الديمقراطية بالأمس مكومة الشعب وكان الشعب هو العامة. أما ديمقراطيتنا فليس نصيب العامة فيها إلا جزءاً من سلطان الأمة، وعلي كل شامل يدخل فيه السوقة والسراة والأمراء.

كان هتلر يوالي دعوته إلى النازية ويوحي بكتابه الذي لم يكن يقرأه أحد، وكان بينة وبين ولاية الحكم أربع سنوات، وبين إضرام الحرب إحدى عشرة سنة، فإذا كان قد أقنع الناس بشيء في هذه الفترة فقد أقنعهم بخطر الاستبداد على العالم، وأراهم أن المستبد حيث كان إنما يسخِّر الحضارة في خدمة الهمجية، وإنما ينكص بالخاضعين له من قومه ومن الأقوام الأخرى أحقاباً إلي الوراء.

الفوارق بين الديمقراطية والنازية

إن النازيين ينكرون التقدم ويدعون أن المضاهاة بين ماضي الإنسان وحاضره في عناصر الأخلاق تدل على الدوران ي حيز واحد، ولا تدل على التقدم فطرة بعد خطوة، أو الارتقاء در حبة فوق درجة.

فحسبنا أن التهذيب جائز مشاهد في طبائع الحيوان، وأن تقدم الإنسان في علومه وصناعاته وآرائه محسوس لا يُخفي الفرق الشاسع بين حاضره وماضيه.

ولنضرب مثلا واحداً على إمكان التهذيب في طبائع الحيوان يغنينا عن أمثلة كثيرة، وهو مثل الكلب الذي كان في توحشه أخوف ما يخاف على الأطفال والطير وصغار الغنم، فأصبح الآن حامياً أميناً لها يدفع

عنها المخاوف ويرعاها وهو جائع محروم.

أما التقدم في الإنسان وصناعاته وآرائه وأحواله الُملابسة للعلوم والصناعات، فهو أظهر من أن يحتاج إلى تمثيل.

ومقاييس التقدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال، فإذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح السعادة للحقير ويخت مها العظيم، وإذا قسناه بالغنى فقد يغني الجاهل ويفتقر العالم، وإذا قسمناه بالعلم فقد تعلم الأمم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية.

إلا مقياساً واحداً لا يقع فيه الاختلاف والاختلال، وهو مقياس "المسئولية" واحتمال التبعة.

فإنك لا تضاهي بين رجلين أو أُمّتين إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته.

ولا اختلاف في هذا المقياس كلما قسْت به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد، أو بين الهمجي والمدني، أو بين المجنون والعاقل، أو بين الجاهل والعالم، أو العبد والسيد، أو بين العاجز والقادر، أو بين كل مفضول وكل فاضل عل اختلاف أوبة التفضيل.

فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع.

والنازية تهدم هذا الخلق من أساسه؛ لأنها تقضي على الحرية والتصرُّف والاختيار، وليس من المعقول أن تحاسب إنسانة على التبعات وهو مسلوب الحرية مأمور، فيما يأخذ وفيما يدع، من مطالب عيشة وواجباته نحو قومه.

وقد ركدت القرائح في ألمانيا منذ تولاها النازيون، فلم يظهر فيها

نابغة في العلم والفن والحكمة، ولم يؤثر عنها ابتكار مفيد في الثقافة العالية، هذا وهي الأمة التي امتلأ تاريخها بأعلام الأدب والبحث والاختراع.

ولقد شكا هذا الركود وزراؤهم وقادتهم وكرَّروا الشكوى مرات، فكتب الدكتور سيروب Syrup رئيس مصلحة العمل في شهر مارس من سنة 1938 يقول: «إن الجيل الجديد من رحال العلم ناقص في جامعاتنا، ولا شك أن بناء الدولة والثروة معاً يستلزم أن ينشأ المهندسون والكيميون وعلماء طبقات الأرض والطبيعيون والأطباء».

وربما خطر لبعضهم أن النازيين لا يكترثون لذلك النقص ما استطاعوا إخراج الضباط والجنود وتزويدهم بالسلاح.

ولكن الواقع غير ذلك؛ فإن التعليم لازمٌ للضباط والجنود لزومه للمهندسين والصناع. وقد كتب الماجور التوماس في صحيفة فرانكفورتر زيتنع يقول: «إن الأستاذ زيميكZemeck مدير المتحف الجرماني في ميونيخ قد أشار في آخر اجتماع لمكتب الرايخ الاقتصادي إشارة خاصة إلى هبوط طبقة التعليم العالى بين الناشئة الألمانية، ولا مناص من موافقته في رأيه؛ إذ الخطر عظيم على قوة دفاعنا إذا انحصر نطاق التربية الذهنية وضاق أفق التفكير، من جراء فرط الاهتمام بالتربية البدنية.

ومتى بلغ بالأمر أن يلحظه قادة الفرق والألوية في جنودهم المدعوين للخدمة، فمما لا جدال فيه أنه يدل على ضعف ماثل في نظام تعليمنا الآن".

وقد تخرَّج من المدارس العليا في سنة 1937 ثمانية عشر ألف طالب، فالتحق منهم عشرة آلاف بخدمة الجيش وانقطعوا عن حياة الدرس والاستبحار في العلوم ولم يظهر أن الآخرين وجدوا متَّسعاً لهم

في هذه الحياة.

وسواء شكاً القادة النازيون أو لم يشكوا ذلك النقص المطَّرد فهو نقص لا يستغرب من جيل مفتون بالمواكب والصفوف، مشغول بالثكنة والطريق عن المكتبة والمعمل، مشغوف بما يرضي الحواس الحيوانية دون ما يرضي الفكر والروح.

ومتى نظرنا إلى المبادئ التي يقوم عليها بنيان النازية لم نجد بينها مبدأ واحداً يستدعي التقدم.

فالطاعة العمياء هي طاعة السرب والقطيع، وحركة الصفوف هي حركة الطيور، والزعامة "الغريزية" أعرق من زعامة الارتياد والاختيار، بل حتى التضحية العمياء لها مرجع إلى غريزة الحيوان، وليست هي من فضائل البصيرة والضمير.

وما من عبث ولا مصادفة كان تقدم العلوم والصناعات في العصر الحديث أعظم وأوسع من تقدمها في جميع العصور.

فمنذ نشأت الديمقراطية نشأت حرية البحث وحرية الكشف وحرية الابتداع. ولا عجب أن يخترع الناس في مائة وخمسين سنة أضعاف ما اخترعوا في مائة وخمسين ألف سنة؛ لأن الاقتراع وليد التصرُّف والاختيار، وهما نبات يزكو في عهد الحرية ولا يزكو في عهود القسر والتسخير.

الأخلاق والديمقراطية

والأخلاق "أولاً" لا تُفهم بمعزل عن المشيئة والاختيار، فإننا لا نعرف آلة ذات خُلق. وإنما تبدأ الأخلاق حين يبدأ الإدراك والتكليف.

وأنة تستطيع أن تقيم على ابنك حارساً يلازمه فلا ينسى واجباً ولا يهم برذيلة، ولكنك لا تربية بهذه الحراسة، ولا تجعل له روحاً ولا تمييزاً كتمييز العقلاء بين ما ينتهي عنه وما ينتحيه.

وكذلك تُربَّي الأمة هذه التربية فلا تنتفع بما رُبيتْ فيها من عادة التسليم والاستسلام، بل تُقتل فيها فضيلة الاستقلال وتهيئها للذل والخنوع، وربما كأن ذلها وهي تشكو السيد وتثلبه أشرف لها وأجدى عليها من الذل لسيد تهتف له وتحيية.

وكثيراً ما نسمع التشهير والتجريس بالفضائح أو الرشاوى التي تنكشف في الأمم الديمقراطية ويتخذها المستبدون دليلاً على فساد أصيل في النظام الديمقراطي والحكام الديمقراطيين.

ويحق لأبواق الاستبداد أن تطيب في ذلك التشهير وذلك التجريس لو كانت الرشاوى والسرقات تمتنع في دولة المستبدين ولا تحدث إلا في دولة الديمقراطيين؛ بيد أن الواقع الذي لا جدال فيه أن سرقات الطغاة المستبدين في جيل واحد تربى على سرقات الديمقراطيين في جميع الأجيال.

وإنما يجسر الناس على اتِّهام السارق في عهد الحرية ولا يجسرون

على اتهامه في عهود الطغاة، أو يحسُر منهم من لا يبالي بالمصير فيلقى جزاءه من حيث ينجو السارق بما سرق، وذلك أخرى أن يحسب للديمقراطية من المزايا ولا يحسب عليها من العيوب.

وما يزعم أحدٌ أن "النظام الديمقراطي" يقتلع الرذائل من الطبائع البشرية ويتركها وليس فيها إلا الفضائل والحسنات.

فهذا ما ليس يزعمه زاعم في نظام من أنظمة الحكم كيفما كان، وغاية ما هنالك أن الديمقراطية تكشف رذائل الحكام ولا تحميها كما تحميها سطوة المستبدين، وهذا وحده غنيمة جديرة بالذَّبِّ عنها والحرص عليها.

على أن الأموال التي أنفقها هتلر في تشييد قصوره السحرية وتنظيم حراسته الشخصية، والأهوال التي فرضها على كل قارئ ألماني ثمناً لكتابه تارة وثمناً لصحفه تارة أخرى، لتبلغن أضعاف ما اختلس حاكم ديمقراطي أو عدة حُكَّام ديمقراطيين في عمر طويل، وهو مع ذلك معدود في عزفهم من أمثلة النزاهة والعفاف!

ولا يخفى أن الحرية ليست بأرخص من المال، وأن جميع الحكام المستبدين يسلبون الحرية، وليس جميع الحكام الديمقراطيين يسلبون الأهوال.

كذلك لا يخفى أن القتل جريمة أقبح من السرقة وأوبل منها، وهو شي ء يقترفه الحاكم المستبد حيث شاء.

قُتل في ألمانيا ألوف من الناس ولم تحفل الحكومة بإثبات الذنب على واحد منهم ولو بعد نفاذ العقاب، مع سهولة الإثبات لمن يقبض على أعنَّة الدواوين بغير رقيب.

وإنما رخُصت الأرواح وشاعت الغفلة فأمكن هذا حيث يحسبون

اختلاس الأهوال من المستحيلات.

أقيل المستشار النمسوي دلفوس، فكتب النازيون يومئذ يقولون إنه شهيد الماركسيين، وقال فون باين سفيرهم في فينيا: "إن حكومة الريح تنعى الجريمة وتأسف لوقوعها".

وما هو إلا أن سقطت النمسا في أيدي النازيين حتى احتفلوا بتكريم ذكرى القتلى وقام رودلف هس ينادي علانية: "بأننا نذكرهم في اليوم الذي سبق فيه هؤلاء الثلاثة عشر من نخبة الزملاء إلي الموت المهين على المشانق الزرية، وإن أطيافهم لتمشي في مقدمة الصفوف حيث مشت في الدنيا جموع النازيين".

فهذا العدوان الوضيع على حياة رجل لا ذنب له عندهم إلا الأمانة لاستقلال بلاده، وهذا الرياء القبيح في إنكار الجريمة ثم الإشادة بفاعليها، وهذه الرذائل التي تتكرر في حبس شوشنيج والتكيل بأمثاله من رؤساء الأمم المغلوبة، من الذي قال إنها دون السرقة في شناعتها ووصمة عارها؟ ومنذ متى كان للمستبدين حق الصولة على الضمير الإنساني فلا يأنف إلا ممَّا يريدونه على الأنفة منه، ولا يثني عل الخلق الجميل إلا إذا أمرره بالثناء؟

إن فساد الأخلاق ي حكومات الاستبداد لـمَّا يمكن إثباته بالأرقام؛ ففي ألمانيا النازية مئات الألوف من الجواسيس والرقباء، وكل جاسوس من هؤلاء فهو رمز للرياء والجبن والخوف وإهدار الحقوق، وإلي جانب هذا الجيش من الجواسيس والرقباء جيش مثله من الدعاة والمقرظِّين عملهم في الحياة أن يكذبوا على أبناء وطنهم ويخدعوهم بالباطل والنفاق. وكل هذا ... كل هذا لا يساوي فضائح ستافسكي وأمثالها من

عيوب الحكومات الديمقراطية! شاهت العقول إن كان هذا حكمها على الأخلاق، فكيف وفضائح ستافسكي شائعة مع رذائل التجسس والدعوة الكاذبة لا يحجبها إلا الجبن والتهديد؟

وأبشع من هذا أنهم يمسخون الأذواق فيسق لون لها أن تستمرئ هذه الرذائل كأنها حسنات وطيبات. فمن الأمثلة التي ينصبونها للإعجاب مثل الابن الذي يقي بأبيه وأولياء أمره ويتجسس عليهم لرؤسائه النازيين، فيشوبون هذا العين الطاهر - معين الحنان والإخلاص - بشائبة مسمَّمة لا تبقي في النفس الإنسانية على موضع للأمان.

ثم تسري ظلمات هذه الأخلاق المنكوسة إلى دخائل العقول فتغشَّي عليها بظلمات فوق ظلمات؛ لأن العقل الذي يتعوَّد أن يرى للمسألة وجهاً وأحداً لا وجه غيره يتعطل، فيه التفكير ولا يفهم حجة الآخرين، ثم يتعود أن يتلقى الأفكار كما تصاغ له لا كما يصوغها هو بعد تقليبها على جميع الفروض والاحتمالات. ولا يقتصر هذا العيب الفادح على المحكومين، بل يسبقهم إلى الحاكمين الذين لا يسمعون اعتراضاً ولا يصبرون على اعتراض. ومن جرائر ذلك ولا شك أنهم يتعنتون فلا يديرون أسماعهم إلى حجج خصومهم، ولا يعرفون من حل المشكلات إلا أن يقمعوا المعارضين في أوطانهم ويشهروا السلاح على سائر الأوطان.

حل المشكلات الديمقراطية والديكتاتورية

وعلى ذكر المشكلات وحلِّها نقول إن الآخذين بالظواهر يتوهمون أن النُّظُم "الديكتاتورية" أصلح النظم الحكومية لعلاج المشكلات العويصة وحل العقد المؤرَّبة في زمن وجيز.

وهذا صحيح إذا نحن أخذنا بالظواهر ولم نتعقب الحلول والعلاجات

إلي جرائرها المحتومة ونهاياتها التي لا محيد عنها.

أما إذا نحن تجاوزنا الظواهر إلى ما وراء ها، فالنظم الديكتاتورية في الواقع تداري المشكلات ولا تمحوها، أو هي في أكثر الأوقات تحل مشكلة واحدة وتفلق إلى جانبها مشكلات عديدة، كما فعلت في مشكلة البطالة.

قيل لكاتب إنجليزي: لا بطالة في ألمانيا!

قال: نعم. ولا في سجن دارتمور!

ومعنى ذلك أن علاج البطالة على الطريقة الألمانية النازية مستطاع في كل مكان يرضى سكانه أن يعيشوا في بلاد هم عيشة السجناء في دار تمور.

وجلية الأمر أن النازيين عالجوا البطالة "بتشغيل" العاطلين جنوداً في الجيش، ورقباء في ديوان الجاسوسية، وعمالاً في مصانع السلاح والذخيرة، ونزلاء في معسكرات الاعتقال، وأجراء بأنصاف أجور وأرباع أجور.

وكل علاج من هذه العلاجات يؤدي إل كارثة مطبقة تهون إل جانبها كارثة البطالة.

لأن استنفاد ثروة الأمة في المدافع والدبابات وما إليها يضيع المال بغير عوض ويؤدي إلى رخص العملة وضعف القدرة على الشراء؛ فما يُشترى في هذه الحالة بعشرة قروش لا يساري ما يُشترى ى في الأحوال الطبيعية بقرشين.

ولأن إنفاق الملايين على السلاح يُلجئ الحكومة إلي إرهاق الرعية من أصحاب الأموال والموظَّفين والعمال بالضرائب الثقيلة والخصوم المتعدِّدة بأسماء شتى، فيحسب الأجر على صاحبه خمسة قروش مثلاً وهو لا يقبض منه أكثر من ثلث ما حسبوه.

ولأن "تشغيل" المصانع بالسلاح والذخيرة لا بد أن يقف أو يدوم، فإن وقف فهناك صدمة الركود المفاجئ، وكارثة البطالة من جديد، وإن دام فهناك دوام الكساد ورخص العملة وضرورة البحث من مصرف للسلاح في القتال والتخريب.

وليس في وسع مكومة أن تخلق جو الحرب بتجييش الجيوش وتكديس السلاح وتهييج الخواطر وتجويع الناس دون أن تصطدم بالحرب طائعة أو كارهة، و محتاجه إليها أو زاهدة فيها، فهي أسيرة مُسخَّرة وليست بحرة قادرة عل التدبير والتقدير، وهي كالدابة المسحوبة من لجامها إلى حيث تشاء أو لا تشاء، وليست كالرجل الذي يضع قدميه حيث تبصر عيناه.

مشكلة التجارة عند النازيين

فالنازيون يحلون هذه المشكلة بالترقيع والتلفيق والخداع والاحتيال، فلا يلبثون قليلاً حتى يجدوا أنفسهم بين ضرورات القوة العمياء.

يعرضون على الأمم أسعاراً أكبر من الأسعار التي تبيع بها محصولاتها الزراعية، ثم يعرضون عليها مصنوعات حربية بأرخص من أثمانها في البلاد الأخرى، مقايضة ومبادلة: لأنهم لا يشترون بالنقد الحاضر.

ثم يبيعون المحصولات الزراعية بأقل من الأسعار التي اشتروها بها، ويماطلون في تسليم المصنوعات بدلاً منها، ليرفعوا أثمانها.

ولما كانت الأمم التي تعاملهم مضطرة إلي استيفاء ديونها فهي تعود فتقبل كل ثمن، كما يقبل الدائن كل ما يستطيع الوصول إليه من أمتعة المدين المماطل.

وتمضي فترة وجيزة فتعلم الأمم التي تعاملهم أنها خسرت عملاءها؛ لأن عملاءها يشترون محصولاتها من النازيين بأرخص من الأثمان التي تباع بها في أسواقها الوطنية. وهنا يرى النازيون أنهم مستهدفون لقطع المعاملات، عاجزون عن إطالتها والاستمرار عليها بغير التهديد والإرهاب، والقتال تحت كَرَّةٌ أخرى.

هذه أمثلة من "العلاجات" النازية.

وهي أشبه بعلاج المشعوذة والطلاسم منها بعلاج الطب والجراحة العلمية. والمشعوذ قد يخدع مريضة فترة من الزمن ويقنعه أنه خير له

من الطبيب وخير من الجرَّاح!

والطبيب أو الجراح قد يفشلان في بعض الأمراض، ويبدو للمريض أنه أخطأ في الركون إليهما وقلة الركون إلي السحرة والمشعوذين.

ولكن الطب هب والشعوذة شعوذة على كل حال.

ومتى عرف الطب علاجه فذلك هو العلاج الصحيح الذي يقاس عليه ويطمأن إليه.

أما إذا بقي العلاج الطبي مجهولاً فليس ذلك بحجة على صلاح الشعوذة والتدجيل، ولو نجحا إلى حين.

وهذه مشكلة البطالة مثلاً في البلاد الديمقراطية: فإن هذه البلاد لم تحسم داء ها حتى الساعة، ولا تزال تعالجها بالإعانات تارة وإنشاء أعمال الإصلاح والتعمير تارة أخرى، إلى ما شابه ذلك من المسكنات والملطفات. ولكنها مسكنات الطب وليست بمسكنات الشعوذة، ثم هي حيرة سليمة المغبة، وليست بدواء كاذب يخلق إلى جانبه عدة أو دواء.

ومن الواضح أن مشكلة كمشكلة البطالة التي ترجع إلى أسبابها العالمية لن يتأتى أن تحلها أمة واحدة في داخل حدودها، ولن تعالج يوماً بمعزل عن علاج الكساد العالمي واختلال المبادلات التجارية.

فإذا شعرت الأمم بهذه الضرورة ودفعها الشعور بها إلى ابتغاء الوسيلة الناجعة بالتعاون فيما بينها، فذلك خير للعالم وخير لكل أمة على حدة من الجرعة القاتلة التي تؤدي بالعليل والصحيح.

ومتى رأى الطبيب من واجبه أن يترك بنية المريض تعمل عملها وتدبر مقاومتها فعلية أن يظل طبيباً يفعل ما يوحيه إليه طبه، وليس عليه أن يلبَس للناس لبوس المشعوذ الدجال.

النازيون والنظام

النظام كان «فخر» النازين لأنهم يعيبون عل الديمقراطية اختلاف الآراء وصعوبة الاتفاق عل قرار، وبطء الإنجاز بعد الاتفاق عليه.

والقول الصواب هنا أن نقارن بين أحسن الديكتاتوريات وأحسن الديمقراطيات، كما نقارن بين أسوأ الحكومات من الجانبين؛ فلا نفرض النظام الديكتاتوري كما يكون في "مثله الأعلى" ونفرض النظام الديمقراطي كما يكون في أقبح الأشكال والأوضاع.

وممَّا لا شك فيه بعد هذه المقارنة أن أفضل حكومة ديمقراطية خير من أفضل حكومة ديكتاتورية، وأن الديكتاتور الرديء شر من الديمقراطية الرديئة عل أسوأ ما تكون.

والنظام بغير "انتظام" نقيضةٌ لا يقبلها العقل المستقيم؛ فما هي وسيلة انتظام الديكتاتورية حاكماً معصوماً بعد حاكم معصوم، وخلقاً صالحاً بعد سلف صالح؟

لا وسيلة على الإطلاق.

ولكن الديمقراطية الصالحة تعقُبُها ديمقراطية صالحة إن لم تكن أصلح منها؛ لأن مرجد صلاحها إلى الشعب قبل حاكمية.

أما إذا كان الفساد من الشعب نفسه فهو فاسد مع الشورى وفاسد مع الاستبداد، وقد يكون المستبد غبياً سفاحاً كما يكون الحكام الديمقراطيون عَجَزَةً أو مختلسين.

وما الحيلة في فساد المستبد الجائر، وكيف السبيل إلى تبديل حكمة؟ لا سبيل غير الثروة والفوضى.

أما الديمقراطية فباب التبديل فيها مفتوح بغير ثورات وبغير سفك دماء.

على أن الحاكم المستبد إنما يصلح من جانب ويفسد من جوانب شتى، فيعطي الأمة نظاماً إن أعطاها، و يسلب منها حرية الرأي وكرامة الاستقلال والإرادة حيثما ظهر وكيفما كان.

والديمقراطية بعدُ لا تعيى بالمواقف العصبية التي لا بد فيها من إطلاق أيدي الحاكمين: لأنها تطلق أيدي الحاكمين ي هذه المواقف بنظام مقرر معروف، ليس كله استبداداً لأن أساسة تفويض الأمة، وليس كله حرية لأن الحرية فيه محدودة حيث تقام لها الحدود، وربما تعلمت من سرعة العمل في أيام الحروب دروساً تنفعها أيام السلام، فتأتي السرعة من طريق التعليم والتعوُّد من طريق الإرغام والإلزام.

ففي الديمقراطية "احتياط" لأحوال الاستبداد، وليس في الاستبداد احتياط لأحوال الديمقراطية؛ إذ هو استثناء دائم، ولن لا يجري إلا على حكم الاستثناء.

وربما كان للاستبداد - إذاً صلح - بعض حسنات المستشفى الذي يضمن النازلون به نظافة الطعام وجودة الهواء وانتظام المواعيد بأعيُن الأطباء. فإذا استشرى فساده فهو حبس كحبس الحجاج لا حرية فيه ولا ظل ولا طعام.

أما الديمقراطية فهي بيتك الذي تعيش فيه وفق مرادك، إذا صلح فهو خير من المستشفى، والناس مخلوقون للعيش في البيوت لا في المستشفيات والسجون.

الصحـــة

ونحن نذكر المستشفى على سبيل المجاز والتمثيل ولا نعني أن الصحة تتوافر لرعايا الحكومات المستبدة كما تتوافر في المستشفيات.

فمن غير المعقول أن حكومات تجور على أقوات رعاياها وتعتمد على نظام الجرايات في أوقات السِّلم لتنفق على السلاح والذخيرة تستطيع أن تكفل التغذية النافعة لأولئك الرعايا المحرومين. وكل حكومة شعارها "العدة ولا الزبدة" كما تفعل الحكومة النازية، فليس في وسعها أن توفق بين نقص الأرزاق وتصحيح الأجسام.

وقد تُعجب الناظر مواكب الألعاب الرياضية ومعارض الجيوش، فيخالها عنوان الصحة الحسنة والأرزاق المكفولة لسواد الأمة، ولكنة لا ينظر إلي ما وراء ذلك نظرة قريبة حتى يتبَّين مكامن الداء ويعرف الثمن القاصم الذي اشتُريت به هذه المشاهد الجوفاء: موكب زمر وطبل واحد وراءه ألف أسرة تحرم الغذاء والكساء. ولولا هذا التمويه الفاشل لوجدت منهما الكفاية وفوق الكفاية.

ويقترن نقص الأرزاق بنقص الرعاية الطبية، لانصراف الأطباء إلي ملازمة الفرق العسكرية، أو لانصراف الشُّبَّان عن دراسة الطب والاستبحار في العلوم، فتقل الرعاية الطبية وهي أحرى ما تكون بالمزيد، لازدياد حاجة الناس إليها من جراء سوء التغذية وضعف الوقاية.

وفي كتاب الدكتور مارتن جمبرت الألماني المسمى "يحيى الجوع" بيانات وإحصاءات مستمدة من مصادر النازي الرسمية تدل على مبلغ انتشار الأمراض والعلل بين الناشئة الألمانية من أثر المبدأ القائل: "العدة ولا الزبدة" أو دعوا السمن واصنعوا المدفع.

فإصابات الحمى القرمزية في سنة 1932 كانت 79830 فأصبحت 117544 بعد أربع سنوات.

وإصابات الدفتيريا في سنة 1933 كانت 77240 فأصبحت 146733 بعد أربع سنوات.

وفي دورتمند خمسة وخمسون في المائة من الأطفال مصابون بلين العظام، ولا يزيد عدد الأطفال المعاقين من أمراضه في ميونيخ على خمسة وثلاثين في الألف؟

وجاء في التقرير الطبي عن الجامعات سنة 1939 : "إن مقابلة الأحوال في السنوات الأربع الماضية تدل على هبوط في مستوى الصحة بين الشبان؛ فإن زيادة المصابين بمرض القلب في السنة الماضية مزعجة غاية الإزعاج ... وعدد الطلاب الذين لا يصلحون للانتظام في سلك الفرق الرياضية قد تضاعف في السنتين الماضيتين، وكان عدد الطلاب الذين لا يقدرون على المشقات البدنية في سنة 1935 أقل من عشرين في المائة، فأوشك أن يبلغ الخمسين في المائة الآن".

وانتشار الأمراض بين العمال أكثر وأعضل. وقد حَرَّمت الأمم تشغيل الأطفال في بعض المعامل إلا ألمانيا النازية؛ فإنها - لحاجتها إلى الصناع بالأجر القليل - قد أوجبت على الأطفال أن يعملوا من العاشرة، وارتفعت نسبة الناشئين الذين يعملون في وادي الرور بين الرابعة عشرة والعشرين من 855 في كل عشرة آلاف (سنة 1932) إلي 1778 بعد ذلك بخمس سنوات.

ويشيع النازيون أنهم يروِّضون الناشئين على فرح القوة والفرح بالحياة. ولكن المقارنة بين حوادث الانتحار في ألمانيا وحوادث الانتحار

في البلدان الأوروبية الأخرى لا تنبئ عن فرح بالحياة بل فرح بالموت؛ فإن عدد المنتحرين في ألمانيا وحدها يكاد يساوي عددهم في أرجاء القارة الأوروبية بأجمعها.

وكذلك زاد عدد الموتى ثمانين ألفاً كل سنة في ألمانيا الجديدة، وكان معظم الزيادة في الأعمار ما بين الأولى والخامسة عشرة، وما بين العشرين والخامسة والأربعين، أي في سن الطفولة وسن الشباب. سن الفرح بالحياة.

وهذه نتيجة بدَهيَّة لا غرابة فيها مع نقص التغذية وإرهاق الأجسام بالمعمل، وكبت النفوس واستفزاز الأعصاب.

النازيون وتربية العقول

كانت تربية العقول أضَرُّ في ظل النازيين من تربية الأجسام.

لأنهم يتعمدون تعريج الرءوس ويجرِّدونها من مَلَكة التفكير المستقيم، فلا ترى الدنيا على حقيقتها بل تراها كما تحب الحكومة أن يروها ويثابروا على رؤيتها، يصبغون التاريخ والجغرافيا للطفل بالصبغة التي تساعدهم على ترويضه واقتياده، ويغرسون فيه الأحقاد التي يضرمونها بالغضب والشر كلما أحبوا أن يضرموها، ويخلقون له وجوداً عجيباً لا مجد فيه ولا حق ولا فضيلة لغير الآريين، المزعومين، ويفقدونه الملكة الصحيحة التي يختبر بها حقائق الأمم والرجال، فلا يرى الأشياء ولا يتصور المعاني إلا بعد تحريفها وتشويهها كما ترى الأشباح في المرايا المعقوفة، واطرداها أمامه على نسق واحد لا ينقي أنه زائغ مضلل وأن تفكيره وشيك أن يخونه متى لمح شعاعاً وأحداً من الضوء في عالم الرؤية القويمة والنظر السليم.

ويستولون على الطفل من السادسة فيقلدونه خنجرا صغيرا ويطبعونه على السر والنقمة يسمونها المجد والنخوة الآرية، ويخيل إليهم أنهم بهذا وأشباهه يقرعون الدنيا بجيل مشاكس متنمر لا حيلة لها فيه إلا أن تستكين له أو تقض على كل قوة في يديه. وذلك في وهمهم مستحيل لشيخوخة الدنيا واضمحلالها، وآية الشيخوخة والاضمحلال عندهم أن الدنيا لا تألف الضراوة بالشر ولا تتغنى بالقتل والقتال.

فتلاميذهم على غرار تلاميذ الحسن بن الصباح الذي كان يحيل إلي أتباعه أنهم في نعيم مقيم ما داموا في طاعته ورضاه، وإنما يقود تلاميذه بتخدير الحشيش وهم يقودونهم بما يشبه الحشيش من الأوهام والأضاليل.

وهؤلاء التلاميذ هم الذين يترنمون بصيحتهم على الحرية: "أيتها الحرية! إنني أبصق على وجهك!" وكلمة "أبصق" هي ألطف تعبير لما يقولون في ذلك النشيد.

الديمقراطية والنازية وجهاً لوجه

ولعل الفاصل المبين بين الديمقراطية والنازية هو فاصل البيئة التي تعيش فيها كل منهما.

فليس أدل على سلامة الديمقراطية من أن قيامها في الأمة دليل على مزايا كثيرة في تلك الأمة، أو دليل على أن الأمة في معيشة طيبة ومعاملة حسنة، وأنها ذات أخلاق لا ضرر من إطلاق الحرية لأصحابها، وأطوار لا تعدو طوقها ولا تستعصي عليها.

وليس أدل على وخامة الديكتاتورية من أن قيامها في الأمة دليل عل شذوذ في معيشتها أو على خوف من بعض الأخطار المحدقة بكيانها، كما يعترف الحاكمون بأمرهم كلما أعوزهم أن يُسوِّغوا قيامهم.في شعب من الشعوب.

فالبيئة الديمقراطية كالأرض الآمنة القريرة، والبيئة الديكتاتورية كالحجر الصحي أو كالخطر الذي لا يعاش فيه بغير رقابة وتضييق.

ولم يعرف التاريخ قط أن ديمقراطية حاربت ديمقراطية على مبادئها، وإنما تتحارب مثلاً حكومة اسبرطة العسكرية وحكومة أثينا الدستورية، أو تتحارب ولايات الشمال في أمريكا وولايات الجنوب؛ لأن الشمال يطلب الحرية للسود والجنوب يطلب لهم التسخير والاستعباد.

أو يتحارب نابليون بونابرت وبريطانيا العظمى، أو بسمارك ونابليون الثالث، أو اليابان و روسيا القياصرة.

وحتم على النازية وما شاكلها أن تكون بيئة حرب تنفر من السلم كما تنفر البنية من السم الذي يتلفها ويقضي عليها؛ فإن "الزعيم" لا يخدع الناس عن عقولهم وحرياتهم إلا بما يزلفه لهم من بواعث الهياج وسورة الشعور وشهوة البغضاء وتعاقب الحوادث بالضجة والصليل! فإن لم يتعهدهم بهذا المثيرات فتر عندهم وبأخ وأذن نجمه بالأفول.

وهو مع هذا يتعاظمهم بروعة التقديس والتأليه ومظهر القدرة التي تأمر فتطاع، وتريد فلا يحال بينها وبين ما تريد. فإن وقف بين جيرانه ونظرائه موقف المساوم الذي يأخذ ويعطي ويتقدم ويتراجع، صغر في أعينهم وضاع بينهم وأوشكوا أن ينقلبوا عليه وينتقدا لذلتهم الماضية ممَّا أسبغوا عليه من الهول والتهويل، فهو يشل يديه عن عمل الساسة كل يوم يلبس فيه هالة التقديس والتأليه؛ فإما أن يرسل الصواعق من سماء جو بيتير، وإما أن يهبط إلى الأرض مع الهابطين.

فسلام الدنيا إذا حكمتها الديمقراطية مفهوم لأنها تقوم على التفاهم ولا تحصر الرأي في يدي إنسان واحد. ولكنة غير مفهوم والدنيا تحكمها الديكتاتورية، بل غير مفهوم وفي الدنيا ديكتاتورية واحدة على مذهب التقديس والتأليه، تفتأ من يوم طهورها تقعقع بسلاح العدوان وتنشئ أبناءها على تمجيده واصطفائه دون سائر الخطط وسائر الحلول.

ومن الملائم أن نستحضر في أخلادنا قبل ختام هذه المقارنة أن تفضيلنا الديمقراطية يؤذي إلى تعميمها في كل أمة، وأن تفضيلنا النازية أو الديكتاتورية لا يؤدي إلى مثل هذا التعميم؛ لأن النازيين يعتبرون مذهبهم مزيَّةً جنسية يستأهلها صفوة الخلق من أبناء الشمال ولا يستأهلها الجنوبيون ولا المغلوبون، وآخر ما يفكرون فيه إذا انتصروا أن

يتركوا الشعوب الصغيرة للمستبدين من عشيرتها، والزعماء المقدسين من أبناء جلدتها، ولكنهم يدينونها بشريعة العسف التي لا تؤمن بتقديس ولا بحق مصون لحاكم أو محكوم من الضعفاء.

ويُحسُنُ بنا كذلك أن نستحضر في أخلادنا أن الديمقراطية لم تنته من التطوُّر ولم تتحجر على وضعها الذي هي عليه في هذه الأيام؛ فهي نظام يتقدم مع تقدم الشعوب، وتزول نقائصه كلما زالت نقائص الناس، ولا أمل من الناحية الأخرى في ارتقاء الديكتاتورية طبقة بعد طبقة وسيداً بعد سيد؛ لأنها راجعة إلى القفزات والنوادر، منوطة بالآحاد المتفرقين، معرضة للهدم والتخريب بعد كل بناء وتعمير.

قال الإمام الشيخ محمد عبده: "لا يصلح الشرق إلا بمستبد عادل".

نعم. ولم يفسد الشرق إلا بالمستبدين الظالمين، ولم ينهض نهضته المرجوَّة إلا بنفحة من الحرية الديمقراطية سَرَت إليه. وقد جرب حظَّهُ في الاستبداد طويلاً فليجرب حظه في الحرية، وليجعلها اليوم قضيته الكبرى، فهي في الحق قضيته التي ينتصر فيها فينجو من ظلم أبنائه وظلم الغرباء.

لماذا هتلر من جديد

قد يتساءل البعض ... لماذا هتلر ومذكراته وشخصيته من جديد يتم تداولها ونشرها ....

أجيب لأن هتلر يمثل جانب من شخصيات ديكتاتورية تفرزها المجتمعات الغير ناضجة .... ولا زال الصراع بين الديمقراطية والديكتاتورية قائماً ولعل ثورات ما يسمي بالربيع العربي خير دليل على ذلك كانت قضية (هتلر) هي قضية الأمس وقضية اليوم وقضية الغد.

ولعلها كانت أحجي أن تكون قضية أمس أو أمس الأول، لو كانت «السياسة» تمشي في طليعة الشعوب ولم تكن تمشي وراءها بخطوات.

وقد قيل إن الساسة يتخلّفون عن عصورهم ثلاثين سنة لأنهم يقتبسون أفكارهم الحديثة في زمن ويتولّون الحكم في زمن آخر، ولأنهم يلبثون إلى أن يَمُرَّ "الصف الأخير" من "محافظي الشعوب" ثم يمروا وراءه ليجتنبوا مشقة الابتداء والاقتحام، ويأمنوا مغبّة "الرجة الثورية" التي تصاحب دعوات الإصلاح.

ماذا ترون العالم اليوم ونحن في القرن الحادي والعشرون.

ماذا بعد أحداث 11 سبتمبر وأحداث الربيع العربي.

وكأننا لا نزال الآن في أوائل القرن التاسع عشر من حيث سياسة العالم وفض المشكلات بين الشعوب والحكومات ونعود إلى أدولف هتلر ونقول:

ماذا كأن يحدث لو أن الدول جميعاً - كبيرها وصغيرها - أجمعت عل إنذار هتلر بالحرب لو أنه رفض خطة التفاهم في المشكلة البولونية وأبى إلا خطة الإرغام؟ كان ينثني عن الحرب ولا جدال.

وكانت كل دولة من هذه الدول تخدم مصلحتها هي قبل أن تخدم مصلحة العالم؛ لأن خمس دول عار الأقل كانت تأمن على حوزتها من غارة هتلر، وإن كانت بولونيا وحدها هي التي انفردت بالتهديد في بداية النزاع.

فلماذا لم تصنع الدول ذلك؟

لم تصنعه لأنها تعمل في السياسة الدولية كما كانوا يعملون قبل مائة سنة، وهم يومئذ على صواب.

فبعد الحروب الدينية والحروب التي نشبت بين الأسر المالكة من جرَّاء الخلاف على الوراثة، رشدت الأمم بعض الرشات فاجتنبت الحروب "العاطفية" والنزوات الحماسية واتبعت "المصلحة" وحدها في إدارة علاقاتها الخارجية، فلا تعادي ولا تصادق من أجل مصالح الأمم الأخرى ولو كانت تجاورها أو تماثلها، ولا تظن أن حدثاً من الأحداث يعنيها ما دام يجري من وراء حدودها.

وجعلت شعارها كلمتين اثنتين: الكلمة الأولى "مصلحتي"، والكلمة الثانية "لا يعنيني!"

وصمدت على ذلك في جميع الأزمات الدولية، ولا سيما أزمات الحروب.

إلا أن العالم قد تغيَّر، وقام بعد العالم في القرن التاسع عشر عالم متشابك متماسك لا تنفصل فيه أمة عن أمة، ولا تطرأ فيه المشكلة الدولية إلا سَرَت آثارها إلي أبعد الأمم وأقربها على السواء.

فقيام حكومة النازي في ألمانيا كان مسألة ألمانية داخلية عل رأي الساسة "الحصفاء" من المدرسة العتيقة.

ولكن ألم يكن كذلك مسألة داخلية بولونية؟ ألم يكن مسألة داخلية بلجيكية ومسألة داخلية نرويجية وإنجليزية وفرنسية وتركية ومصرية؟ ألم يكن مسألة داخلية في جميع الأمم التي اضطرت من جراء قيام النازيين إلى إنفاق ما لم تكن تنفق، وتدبير ما لم تكن تدبر، واتخاذ ما لم تكن تتخذ من الحيطة، وفرض ما لم تكن تفرض من الضرائب، وانتداب من لم تكن تفكر في انتدابهم من الوزراء والساسة والسفراء!

أكل هذا لا يكفي لاعتبار المسألة الداخلية في أمة مسألة داخلية في الأمم الأخرى؟

بلى. إنه لكاف وأكثر من كافٍ.

ولكن النازيين أغاروا على بولونيا ومن ورائها أمم شتى تنتظر وتحسب أنها تسلم بالانتظار، وتبتعد وتحسب أنها تأمن بالابتعاد.

فلم تنقض أسابيع حتى فهمت كل واحدة منها أنها أخطأت في حق نفسها وأخطأت في حق غيرها، ولم تُفد أحداً غير المعتدي عليها وعلى غيرها.

فلا هي سلكت طريق المروءة، ولا هي سلكت طريق السلامة. وبئست السياسة التي تحيد عن هذين الطريقين لتمهد بيديها طريق المعتدين عليها.

انتهى في السياسة الدولية عهد "مصلحتي"وعهد شئوني وكفى!

وأصبحت المصلحة الآن في التوحيد بين المصلحة الوطنية والمصلحة العالمية، فلا تنفرد أمة في سياستها إلا على نية من نيتين:

العدوان عل غيرها أو التعرض لعدوان المعتدين.

فإذا أبت أمة من الأمم إلا أن تفرغ جهودها كلها للسطوة العسكرية وأن تشبع نفوس أبنائها كلهم بنوازع البني والعدوان، فما ذا يبقى للأمم الأخرى بإزاء هذا الخطر الذي يهددها واحدة بعد واحدة؟

لا يبقى لتلك الأمم إلا أن تعمل كل منها منفردة فتستعد وحدها لدرء الخطر عنها، وهي الخاسرة بما يضيع عليها من الأهوال والجهود وعلى أبنائها من الحقوق والحريات.

هذا أو تعمل الأمم مجتمعات وتقلع عن سياسة "مصلحتي"، "ولا يعنيني" لأنها نقيض المصلحة والمروءة والسداد.

وفي هذه الحالة يكفيها ربع الاستعداد الذي كانت مضطرة إليه لو أنها عملت على انفراد.

لأن دولاً عشراً تبذل ربع مجهودها ومالها أقوى من دولة واحدة تبذل كل ما عندما من مجهود ومال.

فهذه "الخطة العالمية" أقل نفقة وأقرب إلى السلامة، وأشبه بالكرم والمروءة، ولا عائق يعوق الأمم عن المضي فيها إلا البلادة والغباء.

ومتى ثبت لزوم الخطة وثبت إمكانها، وثبتت فوائدها فهي في انتظار "الأداة" التي تصلح لتنفيذها، أو هي في انتظار "واسطة الاتصال" بين الحكومات.

وليست هذه الواسطة المرجوة - بل الضرورية اللازمة - بالطريق المقطوع. فالتعاون الدولي قد أخرج بعد اليوم ضرورة و "عقلاً" ولم يعد كما كان قبل اليوم حلماً من الأحلام أو عاطفة من عواطف المتخيلين.

وصداقات الدول لا ينبغي أن تقوم غدا على أساس غير أساس الاشتراك في العدوان أو الاشتراك في دفع العدوان.

والاتفاق على دفع العدوان أيسر من الاتفاق على العدوان؛ لأن المعتدين يتغالبون ويتنازعون، ولا يمضون في الوفاق إلى نهاية الطريق.

وتلك قضية الغد.

وتلك هي عبرة الحرب الحاضرة، إن كانت لها عبرة على الإطلاق.

فلهذه الحرب أغراضها التي لا مناص من تحقيقها.

ولا نعني تلك الأغراض التي يعلنها الساسة ويؤمنون - أو لا يؤمنون - أنهم يعملون لها وينتهون إليها.

ولكننا نعني الأغراض التي تتجه إليها الحوادث وتوجه إليها الساسة في تيارها الجارف الذي لا يسلس عنانه لأحد؛ وإن خيل إلى كثيرين أنهم قابضون عليه، مستوون في الركاب.

وكل حادث عظيم من حوادث الدنية فله نتائجه اللازمة اللازبة إذا شئنا أن نتجنب كلمة المقاصد.

فالحرب الماضية انتهت بزيادة الأمم المستقلة في أوروبا وأفريقيا وآسيا، وبدخول التحكيم الدولي في، دور جديد من أدواره الكثيرة، وبفشل النزعات المادية في تجارب الأمم والأفراد؛ فقد فشلت تجربة الماركسية في روسيا بعد أن أتيحت لها فرصة لا نظير لها، وفشلت تجربة الخلاعة والانطلاق من ضوابط الآداب والأخلاق، فأحس كل خليع مستخف بتلك الضوابط أن النفس التي لا ضابط لها نفش متفككة خاوية، وأنها من أجل ذلك خليقة أن تتهالك وتستخذي في إبان سرورها وانتشائها، كأنها تنفر من ضعفها وتتقزز من خوائها. فرجعت النفوس

تتمرد على التمرد، وتتمثل طريقها إلى الإيمان والمثل العليا.

وإذا قصرنا القول على الجانب السياسي فقد تحقق شطر من أغراض الحرب الماضية، وهر تقرير المصير في أمم كثيرة، وبقي شطر في انتظار التحقيق وهو إنصاف الأقوام الصغيرة أو الأقليات، وإتمام التعاون "عملاً" بين الحكومات.

فما هي أغراض الحرب الحاضرة؟

أولى من سؤالنا عن أغراضا أن نسأل عن أسبابها.

فإذا سألنا عن تلك الأسباب ظهر لنا الماركسيون والماديون بأسبابهم التي لا يعرفون غيرها، وخلاصتها المضحكة أن الدول قد أنفقت ألوف الألوف من ربوات الدنانير للوصول إلى عشر معشار هذا المقدار، وهي لا تثقُ من هذا المكسب كما وثقت كل الثقة من ذلك الخسار.

والماركسيون أو الماديون أول من يجهل أن "الدينار،" ليس بشيء في ذاته، وأنه لا يصبح شيئاً إلا حين يمثل حاجات النفوس والأجسام، ومنها الغلب والزهو وإرضاء الأوهام والخيالات.

وقد أحصيت أسباب شتى للحرب الحاضرة غير أسباب الماركسيين والماديين، وهي الخرف من الحرب واتخاذ الحيطة لمها، وفقدان المثل العلية والأصول الأخلاقية التي لا استقرار للنفوس مع فقدانها، والتفاوت بين الأمم في طبقات الحضارة ونظم الاجتماع؛ فإن التفاوت يمنع التعامل بقسطاس واحد، ومتى تعادت أساليب المعاملة صعب التوفيق ونجمة أسباب الخلاف.

إلا أن هذه الأسباب جميعاً تنطوي في السبب الأكبر الذي تتلاقى عنده، ولا قبل لنا باستيعابها في تفصيلها إلا إذا استوعبناه في جملته، ثم رددناها إليه. -

ذلك السبب الأكبر هو افتراق الطريقين بين الماضي والمستقبل: فإن العالم اليوم حائر بين ماضية ومصيره، فلا هو قد فرغ من الماضي بتة ولا هو قد وصل إلى تقرير المستقبل وتوطيده والاتفاق عليه.

ماض لا رجعة له، ومستقبل لم يأت بعد، وقد آذن في عصرنا بالظهور: في الماضي كانت السياسة تقوم على أساس العصبيات وتكثر منها ما استطاعت لتعتز بناصرها، بين عصبية وطن وعصبية جنس وعصبية لغة وعصبية دين. وعصبية موقع ومصلحة.

وفي المستقبل يضيق العالم بهذه العصبيات؟ لأنه يتَّسعُ ويتقارب بمواصلاته، وكلمة اتسع وتقارب اشتبكت مصالحة ومشاربه وتعذَّر على الأمة أن تنعزل فيه. واستحال أن يحكمه قوي واحد وأن يتفق على تقسيمه أقوياء متحاربون، واستحال أن يُهمل فيه شأن الضعفاء، فلا غنى فيه عن التفاهم والتعاون، وأن ينسحق فيه القوي الذي لا يأخذ خدمة الأقوياء والضعفاء بغير السلاح.

فلا مناص إذن في الغد المنظور من قيام السياسة على أساس العلاقات العالمية المشتركة، حتى في الأمور التي كانت تستأثر بها كل دولة وتأبى أشد الإباء أن تشاركها الدول الأخرى في كثير أو قليل منها، كالعملة والجيش والسياسة الخارجية، والمصطلحات الاجتماعية.

فهذه المسائل كانت معدودة في شريعة العصبيات القديمة عنوان السيادة القومية التي يستقل بها كل قوم عن سائر الأقوام.

فأصبحنا في مسألة العملة نرى كثيراً من الأمم ترتبط بنظام واحد وتوجع إلى ثقة واحدة، ولا تملك أمة واحدة أن تستقل بعملتها عن سائر الأمم.

وأصبحنا في مسألة الجيش نرى فرنسا تشير على إنجلترا بنظام

التجنيد فتقبل إشارتها، ونرى أسطولاً فرنسياً بقيادة إنجلترا، وجيشا إنجليزيا بقيادة فرنسيين، ونرى - نحن المصريين - أننا نقبل الجيوش الأجنبية في أرضنا ونعتبر إقامتها بيننا أثناء الحرب تنفيذاً لاتفاق محمود مرغوب فيه.

وأصبحنا في السياسة الخارجية نرى المذكرة الواحدة تكتب وتدرس في دواوين أمم كثيرة قبل إنفاذها، ونرى اللجان "المختلطة" تحل محل الوزراء المنفردين في كل دولة.

وبلغ من اشتراك اللجان ومجالس الحرب في جميع الشئون أنها لم تترك عملاً وأحدا تنفرد به السيادة القومية على النحو القديم.

فهذا عالم جديد، وهذه أحوال جديدة، وهذه طلائع للمستقبل لا بد أن تبلغ تما مها، ولماً تبلغه بعد.

ومن ثَمَّة هذا التقلقل، وهذا المحاولات، وهذه التجارب، تارة في، ميادين السياسة وتارة في ميادين التجارب، وتارة في ميادين القتال.

وما من عبث ولا مصادفة قد انقسم المعسكران المتقاتلان اليوم هذا الانقسام: معسكر ألمانيا وأصحابها الظاهرين والمستترين، ومعسكر بريطانيا العظمى ومن معها من الخلفاء والأصدقاء.

بل هما يشلان في انقسامهما عالم العصبيات من جهة، وعالم المشاركة العالمية من جهة أخرى.

فها هي ذي ألمانيا تحمل راية العصبية الجنسية باسم الآرية أو باسم الأقوام الشمالية، وفي صفها أو من فلفها الروسية الشيوعية وهي ألتي تحمل راية التعصب للطبقة العاملة وتسميها سيادة الصعاليك.

ختاماً:

كانت هذه تلك آثار سياسة هتلر النازية وكان هذا الإصدار الذي يلقي الضوء علي هتلر وسيطرته.

فهرس المحتويات